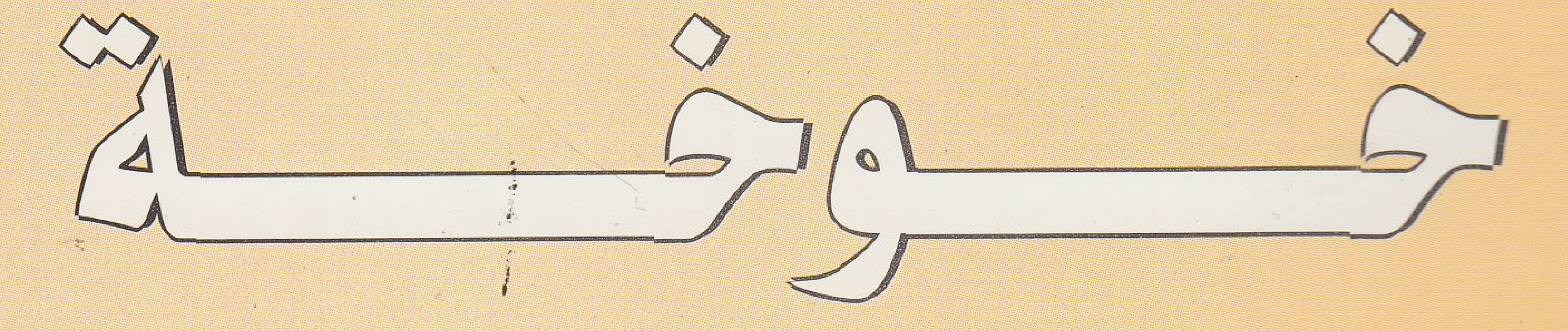
مكتبة الأسرة 2000

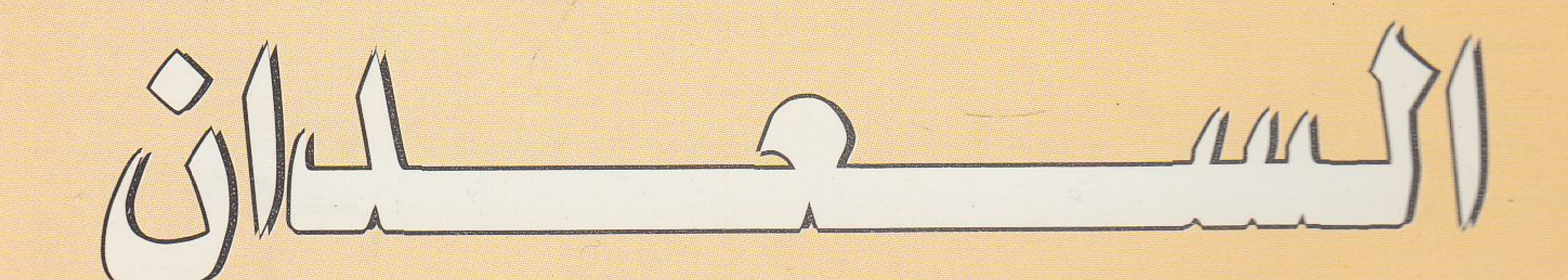
مهرجان القراءة للجميع 2000

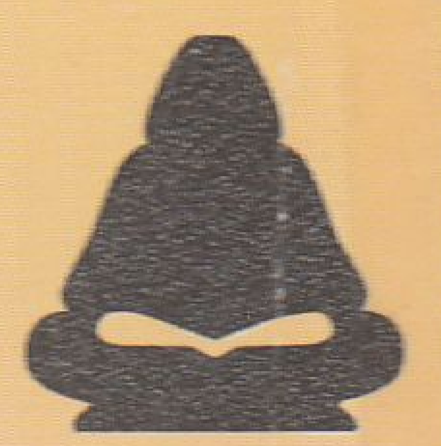
الأعمال الإبداعية

محمود السعدني

قصص قصيرة





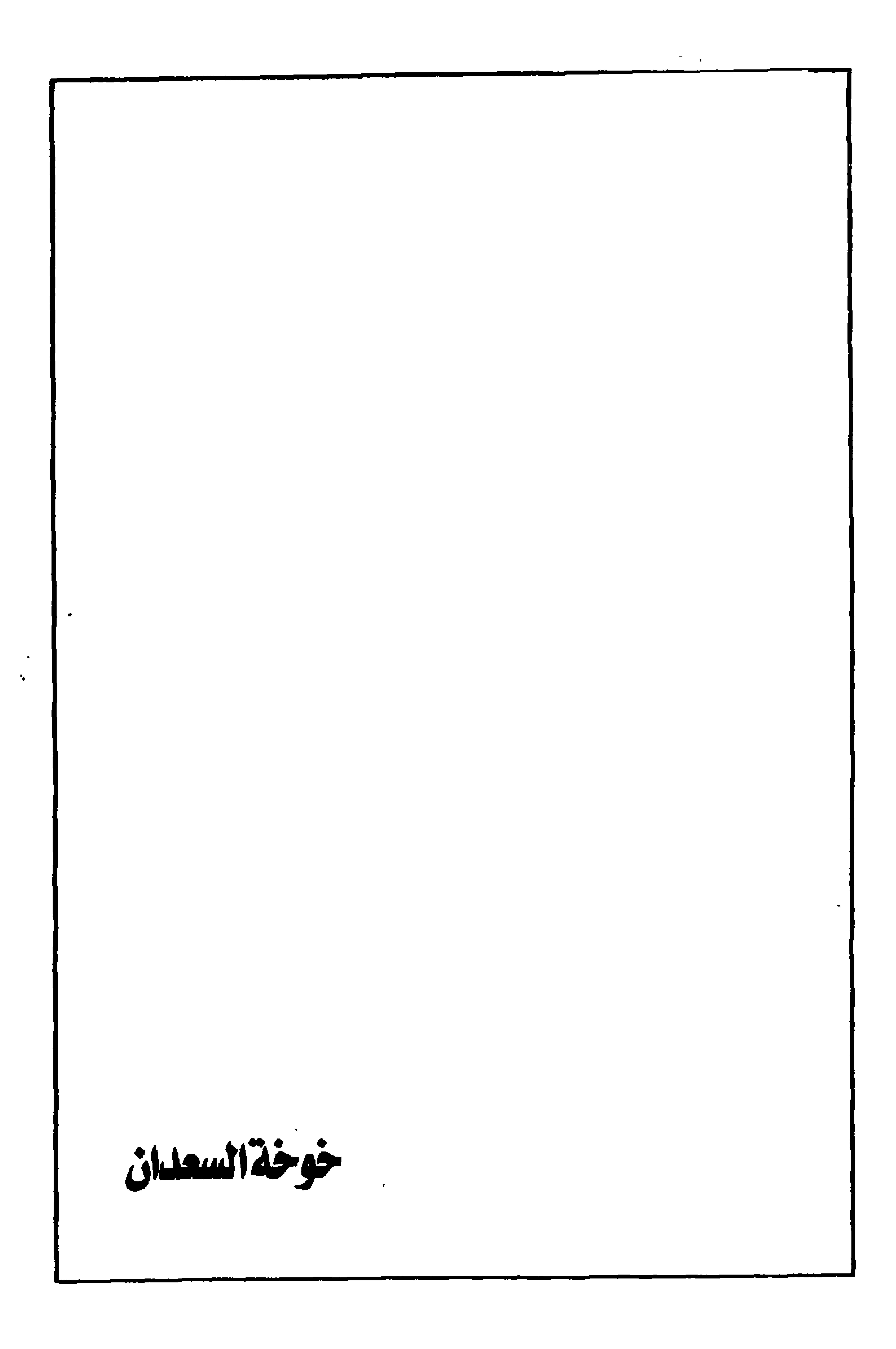


الهيئة المصرية
العامة للكتاب

إهـــــــداء ٢٠١٠

لواء دكتور ممدوح حامد عطية

جمهورية مصر العربية



خوخة السعدان

اسم العمل الفنى : النقرزان   التقنيه : خامات مختلفة

مقاس العمل : ٧٦ × ١١٣سم   رقم السجل : ٤٠٤١

عمر النجدى (١٩٣١)

فنان بارز وضع بصمات لاتمحى فى تفعيل مايطلق عليه «الهوية» المصرية فى الفن المصرى الحديث . مصور وخزاف ونحات وحفار ، وفنان فسيفساء ، أصاب فى كل واحدة منها قدرا عاليا من التقدير فى كافة الأوساط.

كانت رسومه الرمزية ذات السياق التعبيرى الحوشى - متزاملاً فى ذلك مع صالح رضا - أحد الأبجديات التى دعت البعض الى اعتباره نموذجاً يحتذى ، إذ قدم شيخ القرية ، والجالسون على المصطبة خارج البيت ، وعلاقات المحبين والعاشقين من أبناء الفقراء فى المدينة ، وقد ظلت تلك مرحلة لايمكن محوها من الذاكرة لما تتضمنه من حشد للذكريات المشتركة لعديد من المشاهدين. ولعله الآن عادا إليها وقد إزداد بهاءً وقدرة ووضوحاً - بعد أن تخلى عن فنون الكتابة والحروفية فى لوحاته التى بدأها نهاية الستينات . وتذكر له حركة النحت ماجاد به عمر النجدى من فكرة السالب والموجب الذى يماثل الكتلة المنزوعه وفراغها فى التمثال منذ الستينات - فضلاً عن مبادراته الأولى ذات الأهمية فى مجال الفسيفساء الطبيعى للأعمال الصرحية .

قطاع الفنون التشكيلية

خوخة السعدان

محمود السعدنى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

خوخة السعدان

محمود السعدنى

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
المشرف العام :
د . سمير سرحان

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

اهـــــداء

الى الأجيال السعيدة المقبلة ،
جيل أكرم وأحمد السـعدنى ٠

« محمود السعدنى »

كوميديا السعدنى .. ومأساة البشر



بقلم : صلاح حافظ

الأدب عند محمود السعدنى ليس تصويرا للحياة ، وانما هو الحياة نفسها .

وشخصيات قصصه ليسوا رموزا لتجسيد واقع يريد ابرازه أو أدوات يحركها للتعبير عن فكرة لديه . انما هى حقائق حية ، عاشرها بنفسه ، وجاء يحكى لنا عنها .

وهو قد عاشر هذه الشخصيات لأنه يحب ان يعاشر الناس .

وهو يحكى لنا عنها ، لأنه يحب ان يحكى .

وسر السعدنى هو انه لا يوجد مكان ، او بيئة ، او مدينة ، أو شعب ، لا يشعر معه انه فى بيته . فهو يأكل الكافيار فى قصور السادة بنفس اللذة التى يأكل بها كوز الذرة على الرصيف وهو فى السجن كان يداعب السجان ، ويقاسمه طبق العدس ،

ويسمع امجاده بلذة حقيقية . وفى بورسعيد كان يقضى الليـل والنهار مع الصيادين . وفى لندن كان يسمع بشغف متـاعب أصحاب الملايين . وفى حوارى الجيزة كان يشغله الجزار الذى قبض عليه رجال التموين ، وصاحب المقهى الذى سقطت لافتته لانه ثبتها بجبس مغشوش .

وحياة السعدنى أعرض من حياة أى كاتب مصرى أعرفه .

وهو فيها قد عرف من الناس اكثر ممـا عرف اى كاتب . وعاش أدوارا لم يعشها غيره .. عاش فقيرا ، وعاش وجيها ، وعاش بطلا ، وعاش خوافا . وهاجم ودافـع . وكر وفر .. وقال الحق حيث كان يجب أن يكتمه . وكذب بدون سـبب ، لمجرد العبث والتسلية . وخاف أمام أخطار هزيلة . وتحـدى أخطارا رهيبة .

ولا يمكن تفسير حياة محمود السعدنى الا عـلى ضوء الشخصيات التى عايشها ، والتى لا حصر لها ، ولا حـدود لتنوعها . فهو لم يكتف بانه عايشها . وانما عاش كلا منهـا على سبيل التذوق .. وتوحد مـع كل منها فى لحظـة من اللحظات .

وهو لهذا لا يحكى عنها من طرف أنفه . ولا يبدو مشرفـا عليها من أعلى . ولا يحاول أن يجرى على لسـانها فلسفته الخاصة . انما يطلقها تتصرف ، وتتحرك ، وتتفلسف ، وهو محب لها .. ومؤمن بها .

يسخر منها ، نعم . لكن هذا ليس استخفافا بها .. انمـا تعبير عن مودته وحبه ، واعلان بأنها قد صارت بعض حياته ، وأنه قرر أن يعاملها كما يعامل نفسه .. ومحمـود السعدنى لا يحب أن يسخر من احد كما يحب أن يسخر من نفسه .

والقيمة الكبرى للقصص التى فى هذا الكتاب هى أنها جميعا حقيقية ، وأنها جزء من حياة الكاتب .. لا من خياله .

أحداثها ، شخصياتها ، سلوك الناس فيها ، مآسـيها ومهازلها ، كلها من خلق الحياة ، لا من خلق الخيال . وجاذبيتها ليست من ثمار الصنعة الفنية ، أو الافتعال . وانما من ثمـار الصدق فى الرواية .. ومن ثمار المقدرة الفذة التى يتمتع بهـا السعدنى فى تجسيد المشاهد والمفارقات . وقدرته على أن يكتب كما يتكلم .. بطلاقة ، وسخرية ، واستمتاع .

وميزة هذه المجموعة المنتقاة من قصص السعدنى ، والتى سبق أن نشر بعضها ، أنها تصور مجتمعا بلا رتوش ، ولا أغطية ولا زينات . وأنها صادقة مائة فى المائة . وأن صاحبها قد عاش كل قصة منها بكل جوارحه ، وبعين ثاقبة ، وذاكرة حديدية .. وعندما كتبها كان لا يروى عن أبطالها فقط .. وانما كان يكتب عن نفسه أيضا . وكان يفصح فى كل قصة منها عن بعض ذاتـه كانسان .. وفنان .. وأديب ..

لا أدرى ماذا سيقول النقاد .. ولا اعرف ما سيكون موقع محمود السعدنى فى تاريخ الأدب العربى .

لكننى واثق من أن المتعة التى تتيحها هـذه المجموعة من قصصه لا يسهل العثور على مثلها فيما نقرأ اليوم .

وواثق من انها ليست مجرد متعة عابرة . انما هى تغوص فى النفس . وتغذى الوجدان بعصارة حياة خصبة ، عريضة ، لاذعة ، ناقدة ، لا يتاح لاحد أن يعيش مثلها .

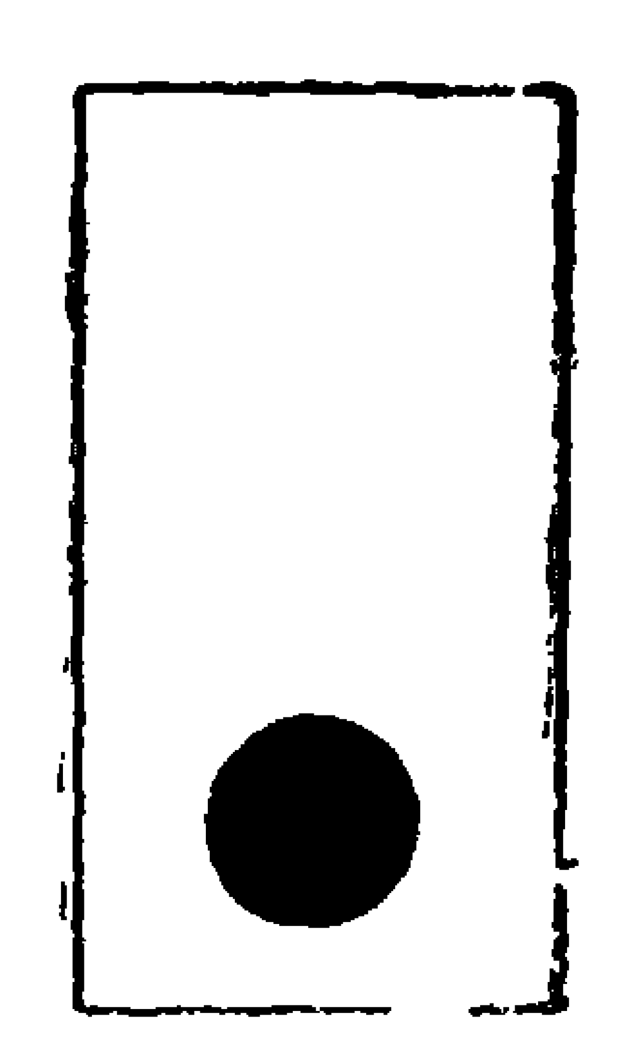
ومع ذلك ..

فهى فى النهاية متعة تخلف مرارة .

تبهج القلب . ثم تعود فتعصره . تسعدنا لحظات بكوميديا الحياة . ثم ينسدل الستار فنشعر بأن هـذه الكوميديا — فى حقيقة الأمر — طلاء من السكر يغلف المأساة !



خوخة السعدان



وراحت شوشو من ميدان السيدة زينب تخترق الأزقة والحوارى ، وتسأل بعد كل خطوة عن خوخة السعدان. وهى على طول الطريق ترمقها الف عين نصف نائمة نصف يقظانة ، يتمطى أصحابها فى كسل لذيذ وفى شمس الشتاء على المقاهى الكثيرة المتراصة بجوار بعضها على الطريق وأحست شوشو بالضنا وأحست بالتعب وتمنت لو استطاعت أن تعود من حيث جاءت بعيدا عن هذه الخرائب التى تفوح منها رائحة كريهة ، وكأنها رائحة خنزير مذبوح !!

ولكن ماذا يقول عنها بابا وماما وكل اخوتها وقد تحدتهم جميعا ، وأصرت أن تسير وحدها حتى نهاية الشوط .. نعم ماذا يقول كل هؤلاء لو انها نكصت على عقبيها وعادت الى قصر أبيها من جديد ولكن لو أن هؤلاء الناس المنبطلين الخاملين لم يسددوا اليها نظراتهم وكأنها رصاصات مدفع رشاش تخترق كل مكان فى جسدها اللدن الجميل ..

ترى ما السبب الذى يجعلهم ينظرون اليها وكأنهم جوعى أمام وليمة فاخرة رفع الغطاء عنها فجأة وبلا تدبير !

الم يسبق لهم أن رأوا نساء ؟ أليست لهم زوجات وبنات وصديقات .. وربما خليلات أيضا ..

ولكن أليس هؤلاء هم الفقراء الذين وطدت العزم على خدمتهم والدفاع

عنهم والسهر على مصالحهم ، وهذه الرحلة الطويلة الشاقة التى تقطعها الآن فى سبيل رفع مستواهم وانتشالهم من الحضيض الذى يعيشون فيه ·

وتوقف عقل شوشو قليلا عن التفكير وفركت بأصابعها النحيلة المدببة الورقة المطوية المعطرة التى كانت تنام مستريحة فى راحة يدها · واستوقفت رجلا كان يعبر الطريق · وألقت نظرة على الورقة ثم سألت المعلم المعمم ·· وتنهدت ببطء قبل أن تسأله عن خوخة السعدان ، وقطب الرجل جبهته ، وضيق ما بين عينيه ورفع سبابته وضربها فى أنفه ، ثم ألقى نظرة طويلة فاحصة على الست الملبن التى تقف أمامه كالهة من آلهة الجمال ثم قال فى هدوء :

ـ خوخة السعدان ··

وردت شوشو فى ضيق شديد ·

ـ أيوه ··

وعاد الرجل ينكش بسبابته فى شعر رأسه ثم فى فتحة منخاره ، ثم ثنى احدى ركبتيه وكأنه على وشك الجرى فى سباق عنيف ، وقال فى نفس هدوئه المعهود ·

ـ اللهم صلى على كامل النور ، بقى خوخة السعدان على طول كده ، وبعدين تكسرى على ايدك اليمين كده ، وتمشى على طول لما تلاقى قهوة قدامها تلاجة ، تيجى كسرة شمال ، وبعد شويه يصادفك جامع ، وهناك بالصلا على النبى تسألى عن خوخة السعدان ·· ألف واحد يدلك ··

ولم تفهم شوشو حرفا مما قال ، وعادت تواصل رحلتها المضنية الى حيث أشار الرجل المعمم الكريه ··

ووقع نظرها على عشش مهدمة ، وبرك طين تسبح فيها الكلاب واستاءت شوشو لكل هذا الفقر المحيط بها · وتمنت لو تعثر على حل سليم للقضاء على كل ما فى هذا الحى من فقر · وتمنت لو انها تملك ملايين كثيرة ، اذن لتبرعت بآلاف عديدة ، لتشترى لهؤلاء الناس صابونا وجازا وخبزا وسيارة لتنقل أطفالهم الى المدارس ، وأجهزة راديو ، واسطوانات لموزارت وبيتهوفن ورمسكى كورساكوف · آه لو استمع هؤلاء الفقراء الى موسيقى كورساكوف اذن لارتقت أحوالهم ، وتغيرت معالم حياتهم ولاصبحوا خلقا جديدا !!

وتاهت شوشو قليلا عن الفقر الذى خلفها ، والفقر الذى أمامها ، والطين الذى يلطخ كل شىء فى الشارع الضيق الملتوى وكأنه بداية طريق يؤدى الى المقابر ··

وسرح عقل شوشو فى الكلب الذى خدعها والذى وعدها بالزواج ،كانت تظنه رجلا ، وكانت هيئته تدل على انه رجل فعلا ، هيئته الطويلة العريضة ، كلامه المعسول ، شاربه الأصفر الجميل ، عضلاته المفتولة ، قلبه الذى لايخشى مواجهة الأسود ٠ ولكن كل هذا تبخر فى لحظة ٠٠ وبدا لها فى ثوبه الحقيقى، عاطل مفلس جبان ، وهيئته الجميلة هى كل مهنته فى الحياة !!

وانحدرت عبرة على خد شوشو ، ولكنها سرعان ما تداركت نفسهـــا ، فراحت من جديد تنظر الى الناس ، والى الحيطان ، والى الأطفال و لكلاب ٠ واقتحم سمعها كلام غريب يطلقه الناس بل استحياء ٠٠ ويقصدون به التحية والسلام ٠

كلام لم تسمع مثله من قبل وأوصاف تكاد تجعلها تضرب رأســـها فى الحائط ٠ هؤلاء الفقراء ليسوا مؤدبين ، لو انهم دخلوا مدارس أجنبية اذن لتعلموا الذوق ولفهموا معنى الاتكيت ٠ وياسلام ياشوشو لقد هبط الحـــل السليم الذى كانت ترجوه ٠

وليكن حل المشكلة من هنا ٠٠ من المدارس الأجنبية ٠ فانها لو لاقتوسيلة لاقناع هؤلاء الناس بضـــــرورة الالتحاق بالمدارس الاجنبية ، اذن لضمنت تخريج جيل جديد من هؤلاء الفقراء يعرف كيف يتحدث وكيف يأكل ، وكيف يحب وكيف يتصرف برشاقة .. وعندئذ سوف تصفو لهم الحياة ..

واستيقظت شوشو من أحلامها على حائط عريض يسد الطريق ٠ واحتارت من أين تنفذ ٠٠ لابد انها ضلت الطريق ٠ وسألت شوشو حتى علمت انهـــا لم تضل وكان عليها أن تحنى هامتها الرشيقة لتمر من ثقب فى الجدار يوصلها الى خوخة السعدان ، وانحنت شوشو ومرت من الجدار ٠ وتمزق جوربهـــا الحرير الطبيعى واتسخ معطفها الفرو ، ولكن ماذا يهم ٠٠ مادام كل هـــذا فى سبيل الفقراء !

وامتلأ قلب شوشو بالخوف عندما هلت على خوخة السعدان ليس هذا المكان بشارع ، ولا بحارة ، ولا بزقاق ، الوصف الصادق له انه خرم فى الحى ، وهل من المعقول أن أحدا من الأحياء يعيش فى هذا المكان ؟ ٠٠

وسألت شوشو ودلها أولاد الحلال على المكان الذى تريده ٠ ومضت من جديد عبر الخوخة تفكر فى الحالة النفسية الرهيبة التى ظلت تعانيهـــا عاما كاملا بعد أن فر من يدها العاطل الجبان كم مرة فكرت فى الانتحار

وكم مرة فكرت فى دخول الدير ، وكم مرة بكت وبللت وسادتها بالدموع ، لقد فر الجبان ومعه شيء عزيز كان من الواجب أن تحرص عليه ، ولكنها لم تبك من أجل هذا ، كان السبب فى بكائها هذا النذل نفسه ، فكم أحبه قلبها الصغير ·· ولكنها أخيرا عرفت الطريق الى السلوى والى النسيان · ليس هناك من ميدان تستطيع أن تسلو فيه أحزانك الا ميدان خدمة الفقراء · وهى ترجو أن توفق وترجو أن تنجح فى الوصول الى حل سريع · انها واثقة من الفوز · لقد تحدت أسرتها وتحدت رئيسة جمعية سيدات المجتمع ، وستثبت لهم جميعا أنهم كانوا على خطأ ·· وهى وحدها التى كانت على صواب · انها لا تنسى أبدا حديث بابا عنما همست له برغبتها فى خدمة الفقراء :

– هؤلاء الفقراء كلاب ، لا يحمدون الله أبدا ، واذا شبعوا تنمردوا ·· ومن الخير أن يبقوا على ما هم فيه من شقاء ··

ولكن شوشو لم تصدق بابا أبدا ، فمن الممكن جدا أن ينصلح حال هؤلاء الفقراء ·· فقط لو وجدوا واحدة تفهم الحياة ، وليس مثل شوشو من يفهم الحياة !

واستراحت شوشو من عقلها الباطن ، فقد وصلت أخيرا الى المكان الذى تقصده فى خوخة السعدان ··

وسألت عن محمد كباره ، وقادها طفل عار تماما الى مكانه · رجل مهدم رغم أنه فى الخامسة والثلاثين ، يلف رأسه بخرقة بالية لا لون لها ، وجلباب تزينه الثقوب ، يجلس على الأرض والى جواره كوز من الصفيح يتصاعد من داخله بخار ويتارجح فى أعماقه شيء أسود اللون لابد أنه شاى، أو ربما هو هذا الشيء الذى تسمع به ·· والذى يسميه الناس ·· الحشيش !

ووقفت أمامه برهة تنظر اليه ثم الى الورقة المطوية ، وبدا من منظر كبارة أنه لم يفاجأ بمنظرها ·· فقد كان وجهه جامدا وكأنه نائم فى مكانه هذا منذ عام · وسألته شوشو برفق :

– انت الأستاذ محمد كبارة ؟!

وضحك كبارة ضحكة ميتة ·· ولكنها ساخرة :

– هاو ·· قال استاذ ·· ليه شايفانى لابس عمة · أيوه أنا كبارة · ايه فيه حاجة انسرقت منك انت رخره · حكومة انت ··

وارتاعت شوشو جدا ، واقشعر بدنها لهذه البداية السيئة ، ولكنها

تمالكت نفسها ·· فهى تجربة على أية حال · ومن يتصدى للخدمة العامة يجب أن يكون مسلحا بالصبر والايمان ·· حكمة قرأتها شوشو فى كتاب !!

وفكرت شوشو فى طريقة اخرى ترضى كبارة وتبدأ بها الحديث ، ولكن كبارة نفسه كان لايزال يملأ الدنيا صراخا وسبابا ، والفاظا يكاد شعر شوشو أن يقف من هولها !!

وحاولت شوشو جاهدة أن تهدئه · ولكنها لم تكد تبدأ حتى برزت امرأة عجوز من جحر خلفها وفى يدها فردة شبشب ، ولسانها يطرقع فى الهواء كالسوط ·· تسب الدين والدنيا وكبارة وكل الناس !! ·· وانهالت المرأة العجوز على كبارة بالشبشب · وظل كبارة يصيح ويشتم ويسب هو الآخر دون أن يتحرك من مكانه ، وفوجئت شوشو بشلة كبيرة من الرجال والنساء والأطفال يلتفون حولها ·· أكثرهم يتفرج ·· وقلة قليلة تحاول فض المشكلة·

وفهمت شوشو خلال هذا كله أن الذى جرى أمامها لحظة لم يكن الا حلقة واحدة من سلسله طويلة بدأت منذ الصباح الباكر بين كبارة والمرأة العجوز· والسبب ان المرأة افتقدت صفيحة قديمة كانت لديها ، فلما لم تجدها اتهمت كبارة بسرقتها ·· وأهل الخوخة جميعا يؤكدون أنها صادقة ·

وعندما علمت شوشو بالحكاية كلها ، حاولت أن تتدخل لعقد صلح بين الرجل الذى جاءت تبحث حالته ·· والمرأة التى ليس لها من صفات المرأة الا الاسم فقط ·· حتى ملابسها نفسها كانت رجالى ·· وكانت ممزقة !!

وقالت شوشو وهى تحاول – صادقة – فض المشكلة :

– ياجماعة بسيطة ·· لازم كلنا نحب بعض ··

ولكن صوتا مازحا جاءها من الخلف من آخر الحلقة المضروبة حولها :

– كلنا نحب القمر ·· والقمر ·هأو ·· يا خرابى يا جدعان ·أموت أنا!

وضحك الجميع ·· حتى المرأة العجوز صاحبة الصفيحة تقصعت وتمايلت ·· وقالت بصوت مرتفع :

– آل نحب بعض ، ياختى بلا نيلة !!

وانفض السامر ·· كل الى وجهته ·· وبقى بعض الناس ملتفين حول شوشو ·· وكأنها مخلوق عجيب يتفرجون عليه لأول مرة ··

ودارت شوشو بنظراتها تتفحص الذين من حولها · الشىء العجيب الذى

حيرها أن الجميع كانوا يشبهون كبارة ، وكأنهم اخوته من أب وأم ٠ وعندما نظرت شوشو الى كبارة ٠٠ خطر لها أن تجرى وتفر ٠ فقد كانت عروقه بارزة ، والزبد يغطى شفتيه ، وعيناه جاحظتين ، وهو يلطم خدوده بين الحين والحين ، وينفخ من شدة البؤس والضجر ٠٠

وسألت شوشو واحدا من الذين يلتفون حولها عما به ٠٠ وجاءها الجواب بسرعة من أكثر من واحد :

ـ أصل الأسياد ماسكينو ٠٠

ولم تفهم شوشو شيئا ٠٠ فقالت فى براءة طيبة :

ـ أسياد ايه ؟

وجاءها الجواب ٠٠ وفى الصوت رنة استنكار :

ـ أسيادنا اللى تحت الأرض ٠٠

وسرت رعدة فى جسد شوشو ، ولم تدر ماذا تقول ٠٠ واخرجها من ورطتها واحد من بين الملتفين حولها ٠٠ كان يبدو انه اكبرهم سنا ،وأيسرهم حالا كذلك ، فقد كان ممسكا برغيف يقضمه ، سألها الرجل فى ود عميق :

ـ الست عاوزه حاجة منه ؟

وأجابت شوشو على الفور ٠٠ وبلهجة املائية كأنها تلقى قطعة محفوظات :

ـ أنا مندوبة جمعية سيدات المجتمع ، وجايه أبحث حالته عشان نساعده ٠٠

وقال الرجل الأشيب العجوز فى نفس الود العميق :

ـ اهلا وسهلا ٠٠ يا الف مرحب ٠٠

ثم التفت الى كبارة ، ولكزه بأطراف أصابع قدمه :

ـ ياواد ياكبارة ٠٠ قوم اتكلم مع الست ٠٠ عاوزه تساعدك ٠

ولكن كبارة لم يرد ولم يتحرك ٠٠ فزعق الرجل العجوز فى وجهه :

ـ قوم يا شيخ جتك نيلة ٠٠ حد يطول ٠٠

وأخيرا رد كبارة فى صوت أجش :

ـ ايه ٠٠ عاوزين منى ايه ؟

وهمست شوشو فى صوت لين حنون وكأنها تردد أغنية :

ـ بس ٠٠ كنت عاوزه اسالك كام سؤال ٠٠

ورد كبارة على الفور هذه المرة ·· دون أن يرفع بصره اليها :
ـ أى خدمة ؟ ··
وسكت برهة ثم أردف على الفور :
ـ أنا موش حرامى ·· أنا أشرف واحد هنا ··آل صفيحة آل ··
وقالت شوشو :
ـ انت ·· حضرتك اسمك ايه ؟
ـ محمد ·· زفت ·· كبارة
ـ وعندك كام سنة يا سى كبارة ؟
ـ أى حاجة ·· أنا يعنى كان عقلى دفتر ··
ورأت شوشو أن تتفادى الثورة ·· فقالت على الفور :
ـ طيب معلهش ·· انت مؤهلاتك ايه ؟ ··
ورفع كبارة بصره لاول مرة ·· وابتسم ابتســــامة بدتر ـ رغم فقره وقذارته ـ فى حالة ليست جميلة ، ولكنها أيضا ليست بشعة مثل منظره ··
وأجاب على استحياء :
ـ أنا لسه ما تأهلتش ··
ثم عاد الى طبيعته الأولى ·· واكمل حديثه بعصبية حادة :
ـ أنا لاقى آكل ·· اما أتأهل ··

ولم تفهم شوشو شيئا ·· ولكنها رأت أيضا أن تتفادى كل ما من شأنه أن يعكر هدوء الموقف ·· فسألته :
ـ طيب ·· وبتشتغل ايه ؟
وقال كبارة :
ـ أشتغل ايه ؟ ·· حلوه دى · أعبى شمس فى أزايز ·· آل · شغلينى انتى ·· شغلينى ريس أو أى حاجة ·· حلوه دى ··
ـ أمال عايش ازاى ياسى كبارة ؟
ـ عايش على الله وع الست ··
وبانت الدهشة على وجه شوشو فسألته مستنكره :
ـ ست مين ؟

وكأنما استفزه هذا السؤال ، فتجهم وجهه ·· وبدا شريرا كوجه غول··
وأجاب متحديا :

ـ انتى كمان موش مصدقة ٠٠ اسأليهم ٠٠ بقولك الست ٠٠ أنا مخاوى ست جنيه من تحت الأرض ٠٠ أجدع ست جنية من تحت الارض ٠٠ اجدع ست ، وطيبة ومسلمة زى حضرتك بالضبط ٠٠

وسكت كبارة قليلا ، وحدق ببصره فى وجه شوشو قبل أن يضيف قائلا :

ـ ايه موش مصدقانى ؟!

وانتزعت شوشو منديلها الحريرى المعطر من حقيبتها ، وراحت تمسح به العرق الذى أخذ ينهمر من جبهتها على عينيها ، وأجابته وهى خائفة وجسدها كله يرتعد من منظره :

ـ مصدقاك ٠٠

واستطرد كبارة حديثه قائلا :

ـ أجدع ست والله ٠٠ بتطلعلى هنا مرة كل شهر ٠٠ تجيبلى كل حاجة، ونستحمه سوا ٠ ربنا يخليها ٠

كانت شوشو قد وصلت الى حالة قاسية من الاعياء ٠٠ كانت تود لو ألقت بنفسها على الأرض وبكت الى ما لا نهاية ٠٠ احست انها ألقت بنفسها فى حفرة مظلمة بشعة ٠ وهؤلاء الفقراء الذين آمنت بهم وتمنت أن تخلصهم من شقائهم مجموعة من الوحوش الضارية ٠٠ جهلة ٠ وحمقى ٠ وأشرار ٠ مثل أكله لحوم البشر ، ورأت أن تنهى الحديث مع كبارة ٠٠ فقالت له مطمئنة اياه على مستقبله :

ـ طيب ياكبارة ٠٠ احنا راح نساعدك ان شاء الله ٠٠

ورد كبارة على الفور :

ـ امتى ؟!

ـ بعد يومين تلاتة ان شاء الله ٠٠

قالتها واستدارت لتنصرف ٠٠ وأفسح لها الناس الواقفون ونظراتهم الحادة مصوبة نحوها ٠ وقبل أن تخطو خطوة قال كبارة فى جد ووقار هذه المرة :

ـ وحياتك تبقوا تساعدوا الست هيه كمان ٠٠ دى ست طيبة قوى ٠٠ لما تشوفيها راح تنبسطى قوى ٠٠ هية بتطلع هنا مرة كل شهر ٠٠ أيوه ٠٠ فاضل أسبوع على ميعادها ٠٠

وهزت شوشو راسها موافقة ٠٠واستدارتفأعطت الجميعظهرها وسارت تقطع خوخة السعدان بخطوات مترنحة ٠٠ ونفذت شوشو من الخرم الذى فى الحائط فأتى على بقية الجورب ٠٠ ولطخ الجزء النظيف الباقى من البالطو الثمين ٠٠ وراحت تحث الخطى فى الشارع الضيق الملتوى نحو ميدان السيدة ٠٠ حيث تنتظرها العربة الفارهة هناك ٠٠

وعندما أطلت على الميدان الكبير ، استراحت نفسها واطمأنت ٠٠وعندما دلفت داخل العربة ٠٠ ألقت بنفسها على الفور متعبة منهوكة القوى ٠٠ وأمام عينيها الجميلتين صور كثيرة غير واضحة ٠٠ صورة النذل الحقير ، ورئيسة جمعية سيدات المجتمع ، وكبارة ، وبابا ٠٠ ورنت فى أذنيها كلمات بابا الخالدة : « هؤلاء الفقراء كلاب ٠٠ لا يحمدون الله أبدا ، واذا شبعوا تنمردوا ٠٠ ومن الخير أن يبقوا على ماهم فيه من شقاء » ٠٠

وقبل أن تدير شوشو مفتاح العربة ، مدت يدها فى خفة وسحبت من تحتها كتابا أزرق أنيقا ٠٠ وألقت نظرة على الصفحة المفتوحة ٠٠كانتهناك جملة تحتها خط باللون الأحمر : « الذين يتصدون للخدمة العامة يجب أن يكونوا مسلحين بالصبر والايمان » ٠٠

ومدت شوشو أناملها المصبوغة فطوت الكتاب وألقته فى المقعد الخلفى ، وانطلقت بالعربة تسابق الريح ٠٠

ومع الريح طارت الورقة التى كانت تحمل العنوان : « خوخة السعدان٠٠ محمد كبارة » ٠٠



الأفريكي

كان علينا ان نمر أمام كامب الافريكان مرتين كـــل يوم ، مرة فى الصباح عند ذهابنا الى المدرسة ، ومـــرة فى المساء عند العودة ..

وكان كامب الافريكان يعكس حالة البؤس والخراب التى ســـببتها الحرب ، كان يحتل خرابة فى منتصف شارع المدارس ، وكانت بواباته الكبيرة مكسورة والكامب فى منتهى القـــذارة ، وجنوده دائما ثملون يترنحون فى الشارع الذى يقع فيه الكامب يصفرون لحنا غريبا وينشدون كلماته فى حسرة شديدة « أنا أحارب من اجل الملكة بشلن فى اليوم » ..

وكنا نجفل منهم اذا اقتربوا منا ، فنفر كارانب مذعورة . وكانوا هـــم فى حالة هياج مستمر ، وأسلحتهم البيضاء الصغيرة تلمع فى أصـــــابعهم ، وكانوا يهيمون على وجوههم فى الليل حول المنطقة المحيطة بالكامب يبحثون عمن يشترى منهم مهمات قديمة مسروقة من داخل الكامب لقاء زجاجة من الخمر الرخيص .

وذات عصرية ونحن نلعب الكورة أمام الساحة الواقعة فى مواجهـــة الكامب ، خرج جندى « افريكى » كما كنا نطلق عليهم ، واتجه نحو الساحة ووقف يتفرج فى هدوء على اللعب ويقذف الينا بالكرة كلما مرقت من الجول ، ويصفق فى حماس كلما سجل احدنا هدفا ، ويصرخ فى نشوة صـــــادقة ، برافو .. رائع ..

ومرت أيام قليلة والجندى الأفريكى يأتى كل عصرية وينفق الساعات الطويلة يتفرج فيها علينا ، وتوطدت الصداقة بيننا اكثر فتطوع بأن يكـــون

حكما بين الفريقين ، ثم اصبحت عادة لديه ان يحمل الينا الهدايا ليوزعها على الفريق الفائز عقب انتهاء المباراة .

وجاء مرة واللعب متعطل لان حارس مرمى فريق الاسد المرعب تخلف عن الحضور ، فخلع الأفريكى زيه العسكرى ونزل الى الملعب بالفانلة واللباس وحذائه الميرى ، وانتهت المباراة بعد ان سجلنا خمسة اهداف نظيفة، وليلتها وزع على كل لاعب من الفريقين قطعة شكولاته ولما ساومناه على أن يسترد منا الشيكولاته مقابل علبة سجاير واحدة للفريقين ، صاح فى استنكار : يا للعار !

وذات مرة سألنا فى ود عميق ، أين تذهبون بعد اللعب ؟ فأجبناه فى زهو : الى المقهى .

فقال فى هدوء : هل اذهب معكم ؟ وبعد أن تبادلنا النظرات أجبناه ، نعم تستطيع . ولكن واجهتنا مشكلة عويصة ، كيف نصحب معنا الافريكى الى حوارى الجيزة ، ثم الى قهوة المعلم امين وهو بلباسه العسكرى ؟

وتطوع احدنا بحل المشكلة فأبدى استعداده لاحضار طقم بلدى كامل ليرتديه الأفريكى أثناء سهرته معنا فى قهوة المعلم امين ، وغاب هذا الصديق لحظات ثم عاد ومعه جلباب كشميرى وكوفية صوف وحذاء بكعب كباية ، واصبح الافريكى المعلم الاخرس ، فقد اتفقنا معه على أن يلزم الصمت طوال الجلسة ، لاننا لا نستطيع أن نقدر مدى الشر الذى سيلحق به اذا فتح فمه فى قهوة المعلم امين .

وقضى الأفريكى ليلته فى المقهى سعيدا بما يرى ، وفى النهاية دفع الحساب كله ، ونفح الجرسون عشرة قروش كاملة .. بقشيش . وبذلك أصبح المعلم الأخرس حديث المقهى .. كله .

واصبحت عادة الافريكى أن يتردد على المقهى معنا كل مساء ، ويجلس صامتا لايتكلم حتى ينتصف الليل ، فيدفع الحساب والبقشيش وينصرف الى حال سبيله ، واصبح صديقا لاكثر رواد المقهى دون كلام ، صابر الطباخ وحشيف المكوجى ، وبرهومة العجلاتى ، واصبحت هوايته الوحيدة ، هى الفرجة على الكوتشينة خصوصا عندما تكون المباراة بين صابر وحشيف .

وذات مساء لم يستطع غزالى ، وهو اسم صديقنا الذى تطوع بحل

المشكلة واحضار الملابس ، لم يستطع احضار الطقم البلدى من منزله ، وقررنا أن نترك الأفريكي يعود الى الكامب بعد المباراة ونذهب نحن وحدنا .

وفى هذه الليلة سألنا المعلم أمين عن المعلم الاخرس ، ولماذا تخلف عن الحضور ؟ وهل اصابه مكروه ؟

واجبنا على اسئلته فى تحفظ . فقد كان المعلم امين هو السبب الذى من اجله نخشى ان نصحب معنا الأفريكي فى زيه والسبب ان المعلم امين فوجىء ذات مساء وهو جالس أمام باب الدكان جلسة انسجام والشيشة بين اصابعه واللاسة الحرير تلتف حول عنقه ، والحذاء يبرق فى قدميه ، ودستة خواتم ذهب تلمع فى أصابعه والدنيا صيف ، ونسمة طرية تهب من ناحية الشارع وتثير معها الغبار ، والمعلم يجلس منفوخا كالديك الرومى . ينتظر فى اطمئنان ورقة اللحم من الفرن ، وسلطانية الطرشى البلدى ، عشاؤه الذى اعتاده منذ اصبح معلما وله قهوة .

فى هذا الجو الجميل المثير ، هبط على المعلم أمين خمسة عساكر افريكان ، وجوههم فى لون الحبر ، ونظراتهم تلمع فى الظلام كأنها فصوص الماس ، ويرطنون بكلمات لم يفهم منها المعلم أمين حرفا ، ولكنه فهم انهم يريدون الجلوس ، وانهم فى حاجة الى شاى ساخن ، والى شيشة تشبه التى فى فم المعلم أمين .

وابتهج المعلم امين وطابت نفسه للصدف الحلوة التى ساقت اليه هذه الصيدة ، فهؤلاء الافريكان من بلاد بعيدة وعساكر فى الحرب ، ولابد معهم فلوس ، وستكون هذه الليلة ، ليلة أنس وانسجام للمعلم أمين .

وصفق المعلم أمين فى حماس وطلب شايا وشيشة للأفريكان وجلس يحاول التفاهم معهم ، وكان كلما عجز عن فهم ما يقولونه رفع أصبعيه ، السبابة والوسطى وقال فى انشراح ، عربى أفريكى سوا سوا .

ثم يهز رأسه ويتمتم فى سرور : مظبوط ، والتقط الافريكان الخمسة كلمة « سوا سوا » من فم المعلم أمين ، فرددوها فى حديثهم معه ، وبذلك انشكع المعلم أمين ، وكيف لا ، واللغة الانجليزية ليست صعبة كما يزعم طلاب المدارس !

والحقيقة التى لم يدركها المعلم امين ، ان الافريكان الخمسة كانوا

غلابة ، ولم يكن معهم نقود بالمرة ، حتى أردا واحقر أصناف النقود ، وأنهم عندما هبطوا عليه سألوه منذ اللحظة الاولى .

ـ هل نستطيع أن نشرب الشاى ، أننا لا نملك نقودا ؟

وعندما هز المعلم أمين راسه موافقا طار الأفريكان من الفرحـــــة . وقبلوا دعوته على الفور ، وكان حديثهم كله خلال الوقت الطويل الـــذى قضوه معه ، يدور ويلف حول معنى واحد ، هو شكر المعلم أمين على كرمه وحفاوته بهم .

وعندما قال لهم المعلم أمين كلمته المأثورة عربى أفريكى سوا سهـــوا فهموا أن الدعوة مفتوحة فطلبوا الشاى أكثر من مرة ، أما الشيشة فكان المعلم أمين بطلبها لهم بنفسه كلما خمدت النار ، وعندما انتهت الجلســـة كان الحساب خمسين قرشا لو كان الزبون عربيا ، أما للافريكى فهو ثلاثة جنيهات .. هكذا طلب المعلم أمين من الافريكان الخمسة ، بالرغم من أن « عربى وافريكى سوا سوا » .

وعندما طلب المعلم أمين الحساب لم يفهم الافريكان اول الامر ولكنهم فهموا عن طريق الاشارة انه يطلب نقودا .. فذكروه بما قالوه لــه فى أول لحظات لقائهم معه ، ولكنه لم يفهم شيئا وظل يطالبهم عن طريق الاشــــارة بالنقود ، رافعا ثلاثة أصابع من أصابعه فى الهواء هاتفا فى صوت يشـــبه الصراخ بكلمة جنيه ، ولكن بطريقة غريبة ومضحكة ، حتى يبدو نطقه اقرب الى اللغة الانجليزية !.

وفى بساطة شديدة سحب الافريكان الخمسة بطانات جيوبهم كلهـــا ليقنع المعلم أمين انهم لا يملكون شيئا ، ثم خيل اليهم أن المعلم أمين قـــد اقتنع تماما ، فمدوا اليه أيديهم يصافحونه .. كما يفعل الاصدقاء !.

وعندئذ تأكد المعلم أمين أنه فقد نقوده . ولكن كيف يسكت على ذلك . وهو الفتوة السابق الذى يتباهى دائما امام زبائنه أن أحدا منهم لا يجرؤ على ان يأكل المعلم امين فى مليم .

ونظر المعلم أمين الى أحد الجنود الافريكان ، وقال وقد قطب جبينه وضيق مابين حاجبيه ، وارتدى قناعا من الشر على وجهه :

ـــ يو .. موش كويس .. اخص ..

وهز الافريكى رأسه .. ولم يفهم شيئا فأعاد المعلم امين فلسفته من جديد .

ــ يو .. نصاب .. اخص افريكى نصاب .

وعندئذ استدار الأفريكان .. ومضوا فى طريقهم ..

ولكن هذه النهاية لم تكن من النهايات التى تروق المعلم أمين ، خصوصا وان الزيطة التى حدثت جذبت انتباه الناس فاجتمعوا حول المعلم امين والأفريكان ليروا حقيقة الامر ، ثم فهموا حقيقة ماحدث من النقاش الذى دار بين المعلم امين ونفسه خلال الربع ساعة الاخير .

ولما كانت الفتونة هى رأس مال المعلم أمين فى الحياة ، فقد خاف على اسمه أن يهبط فى بورصة الفتونة ، واذا كان الافريكى يستطيع أن يأكل المعلم أمين . فما الذى يفعله حشيف المكوجى وصابر الطباخ فى مستقبل الايام ..

فضيحة .. يجب أن يضع لها المعلم أمين نهاية لائقة .

ورفع المعلم امين مقعدا ضخما وهوى به على رأس احد الافريكان ، فهوى على الارض . وهكذا دارت المعركة التى لم تستمر طويلا ، والتى كانت هذه الضربة من المعلم أمين ، هى الاولى والاخيرة من جانبه .

وخمسون يوما والمعلم أمين يتقلب على فراشه فى القصر العينى ، والأفريكان هربوا بعد المعركة ، وشقوا لانفسهم طريقا فى الزحام بفضل المطاوى التى معهم ، ولم يجرؤ احد أن يتصدى لهم .. فليس اخطر من جندى مفلس فى زمن الحرب .. هكذا أفتى محمد خليل كاتب المحامى الذى قضى نصف قرن فى مهنته . ثم نفرغ اخيرا لمقهى المعلم أمين !

ومن يوميها والمعلم أمين لايكره أحدا فى الدنيا أكثر من مطلقته .. ثم الافريكان .

وفى مرات كثيرة كان يسحب مقعدا ويأتى ليجلس الى جانبنا ، ثم فجأة يسألنا وهو يزفر بشدة :

ــ الا بلاد الافريكان دول زينا ؟

ونسأله نحن بدورنا :

ــ زينا ازاى ياعم أمين ؟

ــ يعنى عندهم قهاوى وترمايات وبنى آدمين كده زينا ؟

ــ طبعا !..

ولكن اجابتنا لا تروقه ، فيلوى عنقه ويجز علـى اسنانه ويقـول فى ثقة العالم الخبير :

ــ أبدا ، دا كلام فارغ ، دى بلادهم غابات كلها ، انا أصلى عـارف صنف الافريكان دول .

ثم ينهض ، ويتركنا وينصرف .. وفى مرات أخرى كان يقـول وكأنه يعزى نفسه :

تعرف صنف الافريكى ده ، مابيحاربش ، أصله صنف جبان ، دول يفحتوا خنادق بس ، اللى بيحارب همه الانجليز .

وكان اعجاب المعلم امين بالانجليز لا حد له ..

ــ احسن صنف وحياة دى النعمة ، صنف دوغرى ، يشرب الطلب ويدفع ، مافيش كلام .. عشان كده ربنا مبيض وجوههم .

وعندما قلنا له ذات مساء وهو يجاذبنا الحديث .

ــ ماهو انت افريكى ياعم أمين .

ثار ثورة عارمة ، وكاد يطردنا من القهوة ، وعبثا حاولنا افهامه أن بلادنا فى افريقيا ، وانه تبعا لذلك يصبح افريكى .. كالأفريكان ..

ــ آل افريكى آل ، ليه ، شايف خلقتى سودة ، احنا أجدع ناس من غير مؤاخذه ، دا الافريكى يعنى عبد ، يشرب ولايدفعش ربنا حكم عليـه بالفقر بعيد عنكو ..

وكان دائما يتمنى ان يصارع افريكيا ويصرعه :

ــ يامانفسى أتلايم على واحد افريكى وآكل زمارة رقبته .

ثم يستدرك على الفور :

ــ بس يكون لوحده ، حاكم الكترة تغلب الشـجاعة من غـير مؤاخـذه .

ولهذا السبب كنا نصحب معنا الافريكى بالطقم البلدى ، فقد خفنـا أن « يتلايم » عليه المعلم أمين فيأكل زمارة رقبته .

ولكن .. انكشفت كل الحيل التى لجأنا اليها لاخفاء شخصية الافريكى

فقد هبط على المقهى آخر الليل وهو فى زيه العسكرى وعندما اقتحم المقهى كان المعلم أمين يجلس جلسته المعتادة على الرصيف المقابل . فنهض مذعورا والمقعد فى يده ، وجاء يستطلع الامر . فقد ظن أن فرصته الذهبية قد حانت، وان الزمان صفا له فساق اليه « افريكى » وحيدا لينتقم منه .

ونهضنا لاستقبال الافريكى ووقف المعلم أمين يفكر لحظات عنـــدما اكتشف شخصيته ، ثم انسحب الى مكانه وقد قرر أن يفكر فى عمق قبل أن يحسم الامر معه !.

وقبل ان ينتصف الليل بقليل جاء المعلم امين وجلس بجوار الأفريكى ، وطلب منا أن نترجم بينهما . وجلس يحكى للافريكى قصته مع الأفريكـــان الخمسة ، وكيف شربوا الشاى ودخنوا الشيشة ثم رفضوا الدفع ، ولمـــا طالبهم بالثمن ضربوه حتى حطموا ضلوعه ، وجمجمته ، والقوة طـــريح الفراش خمسين يوما رهيبة .. ثم تساءل فى النهاية :

ــ يصح دا يا افريكى ؟
ورد الافريكى ..
ــ هذا لا يصح ..

وفى نهاية السهرة دفـــع الأفريكى ثمن ما شرب ودفـــع بقشيشـــه المعتاد .. وانصرف .

وأصبح الافريكى زبونا فى المقهى يأتى معنا ، واحيانا يأتى وحده ، وكان المعلم امين ينفرد به وقتا طويلا ، ثم يستدعى أحدنا ويقول له :

ــ وصيه على كام بطانية من بتوع الافريكان .
وكان الافريكى يبدى اسفه كلما طلب المعلم امين شيئا ، ولكنه كان يمده بين الحين والحين بكميات هائلة من السجاير .
وذات مساء اقبلنا على المقهى فوجدنا الافريكى يشارك المعلم أميـــن طعام العشاء وان يشارك احد المعلم امين عشاءه .. فهذا شىء غريب .. وأن يكون الافريكى هو شريك المعلم أمين ، فهو الشىء الاغرب !.
وبعد أن انتهيا من العشاء جلسنا جميعا نشرب اقداح الشاى عـــلى حساب المعلم أمين ، وقال وهو يرتشف الشاى فى لذة فائقة :

ـ صحيح ياجدعـــان صوابعك مش زى بعضيها .. أهو دا افريكى ابن ناس أنا قلبى بيقوللى أنه مسلم .. اسألوه كده .

وسألنا الافريكى عما اذا كان مسلما فأجاب بالنفى ، فلما اخبرنا المعلم أمين قال فى اسى حقيقى :

ـ ياخسارة .. ع العموم هوه ابن ناس ، الأفريكان اللى عمـــلوا معايا الفصل ده لازم خدامين ، حاكم برضه عندهم كده وكده .

وجاء الافريكى ذات مساء ليودع مقهى المعلم أمين . فقد جاءه الامـــر بالسفر الى الجبهة .

وجلسنا فى المقهى طول الليل يحكى كل منا قصصا حدثت له فى الماضى البعيد ، والافريكى ساهم لا يتكلم . كأنما كان يشعر بحزن حقيقى يعتصر قلبه للفراق . وعندما نهض صافح الذين كانوا حوله ، واعطى كـــلامنهم صورته موقعا عليها بامضائه واعتذر المعلم أمين عن عدم وجود صورة معه وطلب م ، الافريكى عنوانه يبعث اليه بالصورة ، ولكن الافريكى اعتـــذر لأنه لاي رف بالضبط المكان الذى سوف يذهب اليه . ووعد المعلم أمين بأن يكتب ا، خطابا فى اول فرصة ، يخبره فيه بمكانه على وجه التحديد .

ومضت أيام طويلة قبل أن يتسلم المعلم أمين رسالة من الافريكى .. ولم يكن بالرسالة سوى جنيهات ثلاثة ، وخطاب قصير باللغة الانجليزية ، يقول فيه الافريكى : « أنا فى ايطاليا الفرقة الاولى الافريقية . الجنيهـــات الثلاثة من الافريكان الخمسة ، وهم يشكرونك » .

« ماير فوندا »

وكانت هذه هى المرة الاولى التى نعرف أن الافريكى الصديق اســـمه ماير . فلم يهتم أحد منا بسؤاله عن اسمه ، كان (الافريكى) هو الاســـم الذى نعرفه !.

وكان واضحا ايضا انه يكذب ، وان الجنيهات الثلاثة دفعها من جيبه للمعلم أمين ، لكى يرضى ويهدأ ، ولكن لماذا لم يدفعها له وهو هنا فى القاهرة لكى يوهم المعلم أمين انها حقا من الافريكان الخمسة .

وفى الايام التى تلت وصول الخطاب انهمك المعلم أمين فى التصوير ،

واعداد الصورة التي وعد بها الافريكي ، واصر أن تكون الصورة ملونة . وأن يكون فى كامل زينته ، ثم استعان بنا لنكتب له الخطاب ، واصر على أن تكون الترجمة حرفية ، وظل يملى علينا نص الخطاب أكثر من ساعة ·· وسلامى اليك كثير السلام . وللافريكان الخمسة كثير السلام .. وبلغهم أننى مسامحهم ، ونحن فى شوق شديد لرؤيتكم والتمتع بكم .. ثم سكت قليلا وسألنا فى اهتمام :

— هوه احنا صحيح افريكان ..؟

ولما أجبناه بالايجاب ، قال :

— طيب اكتبوا .. لأننا جميعا افريكان زى بعض بلغكم الله السلامة والسلام ختام .

وعندما انتهى سألنا فى خبث :

— ايه رايكو فى الجواب ؟

— حاجة عال .

— طيب بس حنبعتوا ازاى لايطاليا يطلع بكلم لحد هناك ؟ .

وتطوع كل منا فذكر رقما .. ثم قال بعد أن انتهينا من حديث الأسعار :

— مش الواحد يبعتوا فى البوسطة بتاعتنا برضه ؟

— طبعا ..

— تبقى داهية لو بعتوه الصعيد .

وعندئذ تناول الخطاب ، ونظر العنوان المكتوب بحروف لاتينية على الظرف وتفرس فيها طويلا ، ثم قال وكأنه اكتشف حقيقة الكون :

— ياسلام يا جدعان ، شوف البنى آدم ، قدر يستقروا الكلام اللى مالوش راس ولا رجلين .

ومضت أعوام الحرب كلها ، وصورة ماير تحتل ركنا ممتازا فى مقهى المعلم امين داخل برواز ثمين ، عثر عليه المعلم امين فى سوق الثلاثاء والخطاب الذى كتبناه للمعلم امين يحتل جيبه ، وبمناسبة وبلا مناسبة ، كان المعلم امين يخرج الخطاب ويفتحه ثم يحكى قصة الرجل الأفريكى الذى كان زبونا فى المقهى ثم سافر الى ايطاليا ، ثم يسأل من حوله فى النهاية .

ـــ الواحد يبعت الجواب فى البوسطة بتاعتنا دى .

ثم يطوى الخطاب فى رفق ، وينظر الى العنوان فى استغراب ويدسه فى جيبه ويتحسسه وكأنه شيء ثمين .

وكان المعلم امين اذا جلس جلسته المعهودة والتف حوله بعض الزبائن الذين لم يشهدوا قصة الافريكى معه ، اخذ يستعيد فصولها معهم :

ـــ تعرفوا ، وحياة العيش والملح كنا نقعد نتكلم انجليـــزى بالخمس ســـــاعات .

وكان الجالسون معه يصدقون مادام المعلم أمين لاينسى أن يطلـــب الشاى كلما شعر بالبرد ، ويضع النار فوق الشيشة كلما احسوا بالصداع.

وكان اذا عثر فى الجريدة على صورة فى ميدان القتال وفى الصـــــورة جنود افريكان ، دقق النظر فيها ، وأشار بأصبعه الى جندى باهت الصورة ويؤكد فى ثقـــة :

ـــ العسكرى دا فوندا .

فاذا قلنا له ان العسكرى فوندا يحارب فى أيطاليا ، والصورة المنشورة امامه التقطت فى افريقيا ، قال فى هدوء :

ـــ دول بس بيقولوا كده ، عشان الاعداء مايعرفوش مكانهم .

وذات مساء اقبلنا على القهوة ، وقلنا له فى عبث صبيانى :

ـــ فوندا مات ياعم امين .

ولم نكن ندرك اننا بهذا الخبر قد سددنا رصاصة الى قلب المعلم امين . فقد بدأ مهموما كأنه فقد ولده ، وانزوى طول الليل صامتا كئيبا لا يتحـــدث مع أحد ، حتى عشاءه الذى اعتاده منذ عشر سنين لم يذقه .

وفى الليل والدنيا ساكنة والمعلم أمين وحده على الرصيف ، ونحـــن نتأهب لمغادرة المقهى ، انفجر المعلم امين باكيا .

وعندما اتجهنا نحوه كف عن البكاء وتظاهر بان الغبار آذى عينيه .. ليس الا .

وفى الصباح احضر المعلم امين نقاشا وطمس على اليافطة التى كـــانت مرفوعة أعلى القهوة ، وكتب عليها بخط جميل ، قهوة فوندا .

وخفنا أن نذكر الحقيقة للمعلم أمين ، واصررنا على كذبنا .. أن فوندا مات . وذهبنا اليه فى المساء لنعزيه ، فوجدناه قد رص الكراسى أمام باب المقهى ، وجلس الزبائن صامتين ومقرى عجوز يرتل شيئا من القرآن . ثم انتهى العزاء ونسى الناس قصة فوندا ، ولكنها أصبحت عادة لدى المعلم أمين ، أن يحتفل بذكرى الافريكى فى نفس الموعد كل عام .

وحتى الآن ، وبعد مرور عشر سنوات ستجد مقهى صغيرا فى شارع عباس بالجيزة اسمه قهوة فوندا وحولها شريط اسود . ورجل عجوز يجلس خلف مكتب قديم متهالك ، وفى جيبه عدة أوراق بالية ، أهمها خطاب باللغة الانجليزية ، تلقاه منذ عشرين عاما من رجل كان يحارب فى ايطاليا .. ولا احد يعرف مصيره .

ولكنه كلما وقع بصره على الخطاب هز رأســـه أسفا وقـــال فى أسى عميـــق :

ـ يرحمه اللـــه .



أجدع الناس

اختفى عبد العاطى اسبوعا ، من قهوة أمين ثم ظهر .. البالطو على كتفه والكوفية حول عنقه وعرقه يغسل يديه ، فقد كان الجو حارا لايطاق ، ولقد كــان اختفاء عبد العاطى مثار تخمينات من رواد قهوة أمين بعضـهم قرر أنه طفش والبعض أكد أنه مات ، أكله ترام وهــو عائد من المخبز فى الصباح ، والبعض قال أنه مـريض وربما سافر الى مكان بعيد .

وعندما ظهر عبد العاطى فى قهوة أمين ذلك المســاء ورأى الناس يديه مصبوغتين بالحنــاء عــرفوا أن عبد العاطى تزوج من بنت الحلال .

والتف الصحاب حول عبد العاطى يسألونه فى فضول عن دنياه الجديدة . أنهم جميعا عزاب لم يدخلوا دنيا بعد ، وعبد العاطى وحده هو الذى قـرر واقتحم دنيا الجواز ، وعبد العاطى كان مثلا فى دنيا العزوبة . وراية فى الزواج له وزن وله مقــام .

ونظر عبد العاطى فى هدوء الى الجالسين حوله : محمد حنبف وصابر الطباخ ، وعبده المكوجى ، وسيد السكرى ، ثم رفع يــديه الغليظتين المصبوغتين بالحناء وصفق طويلا ، وجاء الجرسون وطلب مشاريب للجميع، ثم اعتدل فى جلسته وأصلح من هيئته وقال فى اهتمام بالغ :

ـــ الجواز حلو .

واتسعت عيون الجالسين ، ومالوا جميعا الى الامام وشهق عبده المكوجى من الدهشة وسأل فى استنكار .

ــ حلو ! ؟

ومرت فترة صمت قبل ان يجيب عبد العاطى فى هدوء شديد .

ــ ايوه حلو .. بس للجدعان .

وكان عم ابراهيم العجوز يجلس بعيدا عن الصحاب الملتفين حول عبد العاطى ، لكنه فيما يبدو كان يتتبع النقاش ، فما أن استمع الى جواب عبد العاطى الاخير حتى زحف بكرسيه الى الامام ، وقال وهو يزحف :

ــ اسم الله عليك .. ده كلام مضبوط .

وأفسح عبده مكانا لعم ابراهيم .. وجلس وسط الحلقة المضروبة حول عبد العاطى ، ينظر فى شغف ووله الى الشيشة التى تتداولها أيدى الجالسين .

وقال عبد العاطى بعد أن رشف من كوب الشاى رشفة طويلة لها صوت مسموع :

ــ الراجل الجدع من غير مؤاخذه .. مفيش خوف عليه .

وهتف عبده المكوجى فى سرور :

ــ الله اكبر .. دا الكلام الجد ، الراجل الجدع يغلب ميت واحدة ست ..

ثم عاد الصمت من جديد .. وعادت الانظار تتعلق بعبد العاطى وهو جالس فى وقار والبالطو على كتفه والكوفية حول عنقه ، والعرق يغسل يديه .. والشيشة مدفونة بين شفتيه ، ولكنه نظر الى الجميع بعد قليل نظرة فيها اعتداد شديد ثم قال :

ــ تعرفوا أنا عملت ايه أول يوم .

وقال الجميع :

ــ هيه .

ــ رحت البيت الساعة واحدة بالليل .

وكان عم ابراهيم قد نجح فى خطف الشيشة من يد صابر فهتف وهو ينفث من حلقه سحابة من الدخان :

ــ براوه عليك ، اهو كده الجدعنة .

وواصل عبد العاطى حديثه وكأنه لم يسمع تعليق عم ابراهيم :
ــ أنا كنت باقول ايه ؟ .
ورد عبده المكوجى بسرعة :
ــ رحت البيت الساعة واحدة بالليل .
ــ أيوه مظبوط .. انا رحت الساعة واحدة بالليل . وكنت سكران طينة .

وضحك الجميع ضحكة هسترية استغرقت وقتا طويلا ، وعند ما كفوا عن الضحك ، ظل عم ابراهيم يضحك وحده ، ثم قال بعد ان زايلته نسوية الضحك :

ــ عفارم عليك .. انا يعجبنى أمور الجدعنة دى .
وانتهز عبد العاطى الفرصة واختطف الشيشة من يد ابراهيم وجذب انفاسا سريعة ثم ناولها لصابر وقال :
ــ دخلت لقيتها مبوزة .. زعلانه ليه مابتردش .. حصل ايه مابتتكلمش الغرض ·· قلت لها قومى اخلعيلى الجزمة ··

وهتف عم ابراهيم وهو يمسح فمه بباطن يده :
ــ أيوه ·· اسم الله عليك ·· اهى دى حركة جدعنة مظبوطة ·· اطلب لنا شيشه اطلب ··

وصفق عبد العاطى طويلا وجاء الجرسون ، وطلب شيشة لابراهيم .. ثم استأنف حديثه قائلا :
ــ الغرض ·· عملت نفسها مش سامعة ، ورحت لهفتها جوز اقلام خليتها وحياة سيدى النبى طرشمت دم ..
وهتف عبده فى جنون وهو يصفق بشدة :
ــ تسلم ايدك يا عبد العاطى ، أهودا الشغل صحيح ، مش شغل الافندية ، اللى يروح البيت يغسل الحلل لمراته .
وتساءل عم ابراهيم وهو يشفط انفاس الشبشة فى اخلاص :
ــ غضبت ؟
ورد عبد العاطى فى ثقة شديدة :
ــ ما عنديش حد يغضب انا ··

وقال ابراهيم :

ـ اسم الله عليك ·· راجل طول عمرك ياعبد العاطى ·

وصفق عبد العاطى مرة أخرى ·· طلب شيشة للصحاب ، ثم وضع ساقا علىساق وأحكم وضع الكوفية حول العنق تماما ، وقال وهو يهز ساقه فى دلال :

تانى يوم رحت الساعة تلاتة بالليل قابلتنى بتضحك مديت رجلى فى وشها راحت خلعالى الجزمة سرعة البرق .

وتمايل الجالسون فى نشوة ، وقال عم ابراهيم وفى رنة صوته الفرحة بالانتصار :

ـ ماهى شافت العين الحمرة ، ولو كان راجل طرى شويه ، كانت ركبته ، اسألنى انا ، حاكم أنا اتجوزت أربعة واستويت ..

وبعد أن سادت فترة صمت قصيرة ، تساءل عبده المكوجى فى همس :

ـ انما الجواز عاوز مصاريف كثيره ياسى عبد العاطى ·

ورد عبد العاطى فى استخفاف ..

ـ ولا كتير ولا قليل .. اللى معايا بنصرفه .

ورد عبده مشفقا :

ـ البيوت برضه تتكلف ياعبد العاطى والست ساعات ببقى ايدها مخروقة .

وقال عبد العاطى فى استنكار :

ـ والست مالها ومال الحاجات دى ·

وتساءل عبده المكوجى :

ـ أمال مين اللى يصرف ؟

ـ أنا اللى ماسك المصروف ، واللى معايا بادفعه ، أمال ها اقطع روحى .. هوه انا بنكير .

وصفق عبد العاطى ضحرا ، وجاء الجرسون وصرخ فى وجهه فى سأم شديد :

ـ هات دور شاى هنا يابنى ·

ثم التفت الى عبده وقال :

ــ ست ايه وبتاع ايه ، طب ايه رأيك انا امبارح رميتلها شلن رجعت لقيتها طابخة وواكله والحمد لله ٠ وأول امبارح مكنش معايا وسبتلها نص فرنك ، جابت طعمية وعيش وكلت هوه انا ها اموت روحى .

وكان الشاى قد حضر ،وأطبق عم ابراهيم على الكوب ، وراح يرشف منه فى لذة فائقة ، وعندما اتى عليه سأل عبد العاطى فى اخلاص :

ــ والحمد لله يعنى مبسوط ؟

ورد عبد العاطى وشفتاه تطرقع بالسعادة وهو يقبل يده ظهـــرا وبطنـــا :

ــ الف حمد وشكر ، أروح البيت الاقى البنت نضيفه .

وفرشة نضيفه .. والحقيقة البنت نضيفة ، وخدامة تحت رجليـــه ، والف حمد وشكر ياعم ابراهيم .

وهتف الذين كانوا يجلسون جميعا .

ــ الف حمد وشكر ، والف مبروك ياسى عبد العاطى .

وفتر حماس الجالسين بعد أن خمدت النار فى الشيشة ، وفرغت أكواب الشاى ، والقى عبد العاطى نظرة على الساعة ، فاكتشف أن الوقت قـــد زحف نحو العاشرة وان عليه ان يغادر المقهى سريعا الى المخبز الـــــذى يعمـــل فيـــه .

وصفق عبد العاطى للجرسون وسأله عن الحساب ، ثم ارتفع صوته محتجا عندما هتف الولد :

ــ الحساب ريـــال .

وقال عبد العاطى .

ــ ريال ايه ياضلالى انت مش حتبطل سرقة بقى ؟

واحتج الجرسون أيضا لاتهامه بالسرقة واثبت أمام الجميع بعمليـــة حسابية بسيطة ان المشـــاريب التى طلبها عبـــد العاطى بلغت ريالا بالكمال والتمام ، ومد عبد العاطى يده فى جيبه ، واخرج الريال صاغرا ، ودفـــع به للجرسون ، ثم القى تحية المساء على الجدعان .. وانصرف .

وعبد العاطى يعمل فى مخبز بعيد . ويقف طول الليل أمام النار ، ويتقاضى

أربعين قرشا ، ينفق ريالا على القهوة ، واحيانا ثلاثين قرشا ، والباقى ينفق منه على الافيون الذى يستحلبه طوال الليل وهو يقف معذبا أمام النار .

وانقضى الليل وجاء الصبح .. وخرج عبد العاطى من المخبز يترنح كانه حطام وجر رجليه جرا الى المنزل وعندما جلس يرتشف كوب الشاى نظر الى زوجته نظرة حاقده وقال فى جفاء شديد :

ــ طول الليل نايمة زى الملك ، وأنا عدمان العافية ، والاخر افضل واقف ساعة ع الباب اخبط ، يعنى انت السفيرة عزيزة لازم تنامى لحد الضهر .

وتكورت زوجته حول نفسها ولم ترد .. اكتفت فقط بالبكاء ، وارتفع صياحه مرة اخرى :

ــ خليكى ورا العياط لما تخربى البيت .. ما انا عارف وشك الفقر دا .

كانت البنت صغيرة لم تتعد السادسة عشرة ، ضئيلة ، يستطع عبد العاطى لو اراد أن يلتهمها كلها فى فمه ، كان وجهها شاحبا ، وجلدها اصفر وجلبابها الاحمر القطيفة يظهر ساقيها الضامرتين .. وقدمبها المتسختين كانما كانت تغوص فى بحر من الطين .

والقى عبد العاطى نظرة على قدميها الملطختين وبصق عليها بشدة وقال وهو يسعل :

ــ بقى دى رجلين عروسة ، دى ولا رجلين معزة ، على الطلاق ان ما غسلتيهم دلوقت ، ما انت قاعدة فى البيت .

وقفزت البنت واقفة كانها أبو النصاد وخرجت الى الحمام ، وراحت تحف بالكوز من الزير وتلقى على قدمها وهى تبكى بكاء مضغوطا مسلوخا كانها قطة تموت .

واستراحت نفس عبد العاطى وهدات ونهض نخلع ملابسه وقفز على السرير ، وتأهب لنوم طويل ، ولكنه تذكر قبل ان يشرع فى النوم أن زوجته ليس لديها نقود لتعدىه طعام الغذاء .

تفز من السرير ، وضرب يده فى جيبه كانت هناك ورقة صحيحة بربع جنيه وحتة بقرشين .. وقلب عبد العاطى الورقة الصحيحة بين يديه ثم

دسها فى جيبه ، وانتزع القرشين والقى بها على المخده بجوار رأسه ، ثم تمدد على السرير وراح فى نوم عميق .

وعندما عادت زوجته الى الحجرة ، كان شخير عبد العاطى يملأ الجو وكان يبدو بفمه المفتوح ووجهه المنتفخ وجثته الغليظة كأنه ثور وقع نائمـــا بعد مجهود عنيف .

ومدت الزوجة أصابعها الى القرشين فالتقطتهما ، كأنها نشال يحـــذر أن تقع عليه أعين الناس ، ثم القت على زوجها الغطاء ، وتعمدت ان تغطى حتى رأسه الاصلع الكبير .

ووقفت عند النافذة ·· والقت على زوجها نظرة خبيثة ماكرة ، قبـــل أن تستدير لتلقى نظرة على نافذة صغيرة عبر الحارة يقف فيها تلميذ صغير ، ثم مدت بوزها من خلال حديد الشباك وقبلت الهواء ثم فتحت فمها فى ابتسامة بلهاء قبل ان تغلق النافذة وتقفز على السرير وتتمدد الى جوار عبد العاطى .



الانجليزى الحر

وحياة اليوم العظيم ، وحياة اليوم المفترج ، وحق من جمعنا بلا ميعاد ، ليس هناك اجدع من الانجليزى الحر . والانجليز تشاء حكمة الله شكل واحد ، ولكن صنفين ؟ الوجه احمر والعنين زرق والشعر اصفر . ولكن هناك انجليزى مزيف وانجليزى حر ..

وحكمة الله تتجلى دائما : احيانا فى الفواكه واحيانا فى البنى آدم والبرتقال الحادق له شكل الليمون الحلو ولا يستطيع احد ان يفرق بينهما الا اذا غرز أسنانه فى الثمرة وتذوقها ! ولا احد فى العالم تذوق الانجليز مثل الحاج حسن ، انبرت أسنانه من كثرة ما انغرزت فى لحم الانجليز ليكتشف أيهما المزيف وأيهما الحر ، وعندما انبرت اسنانه اكتفى بعينيه . نظراته اصبحت كأسنانه .. نظرة واحدة من عيون الحاج تكفى لمعرفة الصنف، ولكن ما أندر هذا الصنف بين الانجليز ، والكلام لا يلقيه الحاج على عواهنه فهو الخبير وهو العليم وهو الذى قضى رحلة حياته فى معسكرات الانجليز يعيش كجندى معهم من كوم حمادة فى البحيرة الى الشلوفة فى القناة الى حيفا فى فلسطين الى البصرة على شاطىء الخليج وكأنه الطفل الصغير لا يترك أباه . وكان يخاف الانجليز فى بادىء الامر وكان يخشاهم اكثر عندما يرطنون ! حكمة الله ان الانجليز لهم كلام مثل كلامنا ولكنه لا يفهمه .

وعام بعد عام أصبح الطفل صبيا . وأصبح الرطن مفهوما وعندما فهم لم يعد يخاف الانجليز ! وكانت دهشته عظيمة لان الانجليز لهم شكل واحد ، وكأنهم جميعا من امراة واحدة ورجل واحد !

هكذا كان يظن وهو طفل صغير ولكن عندما أصبح شابا اكتشف السر .. الانجليز لهم شكل واحد لانهم جميعا يشربون الخمر !! هو نفسه عندما اعتاد شرب الخمر اصبح مثلهم ، وجهه الاسمر اصبح فى حمار البطيخة اليافاوى ، ولكن الخمر والحق يقال لم تنجح فى تلوين العينين .. هناك سر آخر اكتشفه الحاج حسن فى شبابه ، السر هو البرد !!

وبرد الانجليز قارس وشديد ، هكذا علم الحاج حسن من الانجليز أنفسهم ، ولكن هؤلاء الانجليز سذج لا يعلمون ان البرد هو سر العيون الزرق .

وعندما اكتشف حسن السر كان يتحدث به الى الناس ، ولكن الناس لم تكن تؤمن على الفور ! ولم يكن حسن يجد صعوبة شديدة فى اقناعهم .

ـ مش مصدق ان السقعة تعمل كده ، طيب حط ايدك فى البرد . بعون الله تبقى زرقا !

ـ ياسلام !!

ـ أمال .. انت عارف السما زرقا ليه ؟ عشان الجو فوق ساقع .

ـ عفارم عليك .

وهكذا ببساطة كان يقنع الناس وكان يكسب احترامهم !

ورجل فهلوى وحدق مثل الحاج حسن لا يمكن أن تخدعه المظاهر ، الانجليز فعلا لهم شكل واحد ، وله من بينهم أصدقاء ، وهم جميعا انجليز ، وجميعا يرطنون .. وكلهم لهم نفس السحنة ، ونفس الطريقة فى الحلاقة ، حتى السجاير صنف واحد !

ولكنه بالملاحظة والمراقبة والاختلاط بدأ يكتشف شيئا اخر . انهم أصناف وعدة اشكال ! هناك انجليزى اذا خلا بك بدا عليه أصله ، فلاح ابن فلاح .. يجلس على الارض ، ويأكل بأصابعه ، ويتمدد وينام ، فاذا غطس فى النوم ارتفع شخيره ! وهناك الانجليزى ابن البلد ، على صدره اكثر من نخلة مدقوقة وعلى ظهر يده اكثر من امراة ويسب ميت دين فى الدقيقة ، ويزوغ فلا يرعى عهلا ولا يحترم مسئولية ، ويمد ايده فيهبش من مخازن الجيش ، فاذا احتك به مخلوق أو احتك بمصالحه فتح مطوة وبدأ يتكلم !

ولكن الانجليزى الحر ما احلاه ، يموت من الجوع ولا يأكل بأصابعه،

وتلقى عليه السلام فيلقى عليك الف تحية . ويضبطك ، فى فراش زوجته ، فيغلق الباب ويجلس فى الصالة ينتظر ! وتلزته على قفاه فينحنى فى أدب ويعتذر !

والعلام ليس ببلاش ، العلام بثمن ! والحاج حسن اكتشف هذا السر فى لحظة تجلى ، ولولا الحظ . لولا أن التجربة التى خاضــها كانت مع انجليزى حر ، لفتح كرشه بمطوة ، أو فتح رأسه برصاصة ! والحاج حسن عندما كان شابا فى الثلاثين ، كان آخر عياقة وشياكة وكان فحلا ، ولو كان فى هوليود لاصبح ممثلا وشهيرا ومعبودا للنساء ! وكان الحاج حسن يعمل وقتئذ فى معسكرات العائلات ، وبين العائلات امرأة ضابط طيب ، كانت ناشفة كالحطبة ، ضبها بارز كأسنان الشوكة ، ولكنها كانت رغم كل شيء جميلة متحركة وشابة ! وكانت ترغب فى الحاج حسن — ولم يكن قــد حج بعد — وكانت صريحة فطلبت وصاله ، وكان غشيما فرفض ، وألهب رفضــه النار المتأججة فى نفسها فطاردته وحاصرته وتمكنت منه فى النهاية ! ولايدرى الحاج حسن كيف حدث هــذا ، ففى تلك الليلة كان اللقــاء فى الدكان . والدكانة داخل المعسكر وعلى مقربة من مستعمرة العائلات . وكان القمر مستديرا والجو خريفا ، وصيحات عربيدة من جنود سكارى ترن فى الفضــاء البعيــد !

ولان الحاج حسن كان فحلا فقد كانت المراة منســجمة ومنشكعة ، وكان صوتها عاليا يرن بين جــدران الدكانة ويتسرب الى الخــارج ! ومــر عسكرى سكران عند الباب فسمع صياحا فى الداخل ، وهو صياح لم ينعوده فى لحظات الانبساط ، فتوهم ان فى الداخل قاتلا وقتيلا فطار الى الضــابط ، وللحظ المهبب كان الضابط المقيم فى المعسكر هو نفسه زوج السيدة الناشفة !

وعندما اكتشف الرجل الحقيقة على ضوء المصــباح الذى فى يده ، تراجع مذهولاً ، وسقط قلب الحــاج حسن بين ركبتيه وأغمض عينيه وتلا الشهادتين على روحه !

ولكن مر وقت طويل ، وشيء لم ينطلق فى رأســه . وشيء لم يخترق كرشه ، والاغرب من ذلك أن المراة الناشــفة حاولت مع الحاج حسن ان

تعيد الكرة والرجل زوجها كان قد انصرف منذ لحظة ، ولكن حسن كان قد تحول الى شيء كالمراة ، لا يفرقه عنها الا الشارب المفتول !!

وعندما خرجت المراة خرج حسن لتوصيلها ، وأنكت شيء فى الوجود أن الرجل زوجها كان واقفا عند الباب ينتظر !!

وكل شيء ممكن .. ولكن أن تضـيع حياة حسن فى شربة ميه .. لا وتحسس حسن مطواته ليدافع عن نفسه ، فلابد ان الرجل الانجليزى سيقتله ، ولكن الأنكت هو الذى حدث .. لقد انحنى الرجل يعتـذر عن سلوكه ، وراح يشرح حقيقة الامر ، وانه لم يكن يقصد ازعاجه — ازعاج حسن — ولكنها الصدفة السيئة والجندى السكران الذى ظن انبسـاط زوجته نوعا من الشجار !!

وشهر كامل بعد ذلك والضابط الانجليزى يمر على حسن فى دكانه ويحييه ويعتذر ! وحسن مكسوف يقطر خجلا ويتصـبب عرقا ، ويفكر فى الهرب من المعسكر ، ويود لو أن الارض انشقت وابتلعته . ولكن التكرار يعلم الحمار ، وقد تعلم حسن فى النهاية أن يكون ابرد من هذا الانجليزى الذى يبدو و أن الذى يجرى فى عروقه ليس دماء ولكن مية ساقعة ! ثم تجرأ حسن أكثر فانغمس اكثر فى العلاقة مع المرأة الناشفة ، وتجرأ أكثر فلم يعد يذهب معها الى الدكان . ولكن كل شيء أصـبح يتم فى بيتها وعلى فراش الزوج . وكل شيء كان يتم فى البداية والزوج فى المكتب ، وبمرور الايام ، أصبحت الاشياء تتم فى حضوره وتحت رعايته ! والاغرب حقا ان السرور كان يبدو عليه اكثر مما يبدو على امرأته !

رجل سافل هذا الانجليزى وقواد ، هكذا كان حسن يفهم ، ولكنه فى النهاية أكتشف السر ، ان الرجل الذى أمامه انجليزى من صنف ممتاز ، طيب نادر كالالماظ ، انجليزى حـر !!

وتعلم حسن أشياء كثيرة ، وظل يتعلم حتى شاخ ، الانجليزى الحر غير مسئول عما يقع من الانجليز من فظائع .. فى الحرب يتولى الانجليز المزيفون عملية القتال ، ويقومون بالقتـال ، ويرتكبون السرقة ، وينهبون خيرات البلاد . والانجليزى الحر لا ذنب له فى شيء ، على انه فى كل الاحيان يشمئز وفى اغلب الاحيان يعلن هذا الاشمئزاز فهو لا يحب القتل . ولا يحب الضرب ولا يأكل عرق الناس !!

وما أكثر الانجليز الاحرار الذين صـــادفهم حسن . وما أكثر الذين صادفهم .

ولكن الذى أحبه حسن اكثر كان ضابطا شابا ، وحسن كان قد أصبح حاجا وشيخا ، وكان يحلو للضابط الانجليزى أن يأتى كل مساء الى دكان الحاج حسن ويجلس معه ، فهـــو لم يكن يرغب فى الجلوس مع غيره من الانجليز فى المعسكر ، لانه لم يكن يوجد بينهم انجليزى واحد حـــر · كلهم كانوا مزيفين . والانجليزى المزيف يا مستر حسن ــ فهكذا كان يناديه ــ حثالة مثل الهندى والأفريكى . ليسوا أصلا من بلاد الانجليز ، فهم من بـــلاد اخرى عاشوا فقط فى انجلترا ، واصبحوا انجليزا بالجنسية وليسوا انجليزا فى واقع الامر !

وكان الضابط الشاب صديق الحاج حسن يقدم الدليل كل يوم على أنه حر فعــلا ، سجائره للحـــاج حسن · أشهى المأكولات للحـــاج حسن ، طلبات الحاج حسن كلها مســـتجابة ، رغباته أوامر ! ومعاملة ولا معاملة ملوك . اذا اقبل على الحاج حسن صافحه بأدب واذا ذهب ودعه فى أسف ، فاذا سار ظل يلوح له طويلا حتى يختفى !

ولم يكن أبدا شابا متلافا ، لم يكن يحب الخمر ، ولم يكن يلعب القمار، ولم يكن من هذا النوع من الشباب الذى يتهافت على النساء ، رغم انهن كن يتهافتن عليه ! وكان شديد الأسف لانه يعيش بعيـــدا عن لندن ، وفى صحراء مصر ، وكان يتمنى دائما أن يعود الى بلاده .

ــ وهل تدرى يا مستر حسن ، امنيتى الوحيدة أن اعود الآن الى لندن واسكن فى بيت له حديقة لاتمكن من زراعة الورد .

ولهذا السبب كان الحاج حسن سعيدا رغم لوعة الفراق لان صديقه عائد الى لندن ، وليلتها كان لها العجب . كان على رأس آخر فرقة خرجت من مصر وجلس معه على ظهر الباخرة التى كانت فى طريقها به فى الصباح الى بعيد . وعندما بدأت الباخرة تتحرك فى طريق الرحيل ، ظل الحاج حسن على ظهرها يغالب دموعه ، ويقسم ألف يمين أنه سيحاول أن يذهب الى لندن خصيصا ليراه . ويقسم الضابط هو الآخر انه لابد عائد كســـائح فى شهور الشتاء !!

وجاء الشتاء فعلا ولكنه لم يكن شتاء سياح ، يقول الناس المتعلمـــــون

ان الحــرب على الأبواب ، والانجليز هم الذين سيشعلون نار الحــرب ، والحاج حسن يسمع ويسكت ، أحيانا يصدق ، واحيانا أخرى لا يصدق .

ولكن الحرب وقعت فعلا يا حاج حسن وجاء الانجليز !! المصيبة انه لن يأتى مع الحرب انجليزى واحد حر ، سيأتى الهنود ، وسيأتى الأفريكان ، وسيعود الموريشان ، وهنا تكون الكارثة فهو ساكن أمام الميناء وســيكون بيته صيدا سمينا وسهلا لهؤلاء الاوغاد المسلحين !!

وفكر الحاج حسن طويلا فى مصير عائلته . واستقر رايه على ترحيل الأولاد الى مصر على أن يبقى هو نفسه يواجه العاصــفة التى تتجمع فى سماء بور سعيد . ثم طرد هذا الخاطر نهائيا من نفســه ، فهو رجل مجرب وخبير ، وليس من المعقول أن يعود الانجليز ، وليس من المعقول ايضا ان يهجم الموريشان والهنود والافريكان .. لسبب بسيط هو ان قائدهم انجليزى دائما ، والقادة دائما من الصنف الممتاز .

ومضى شهران وكل شىء على مايرام ولكن فى آخر اكتوبر حدث الذى لم يكن يتوقعه ، لقد هجم الانجليز . وبدأ الضرب فى المليان ، وبعد الضرب بدأ الغزو وانتشر فى فضاء المدينة ملايين المظلات ، حمراء وصفراء ومن كل الالوان !

وصعد الحاج حسن الى سطوح بيته فى انتظار الصــيد الذى تلقى به الســماء .

وكان الحاج حسن مستعدا ومسلحا ومطمئنا الى شجاعته وخبرته فى استعمال السلاح !

وجاءه الصيد سريعا ، فقد هبطت مظلة على سطح بيته ، واختبــأ الحاج حسن خلف عشة الفراخ ليشاهد أولا وجه هذا العدو قبل ان يقتله ، وهى دقائق معدودة يرى فيها وجهه . وجذب ابنه من قفاه ليبطحه ارضا هو الآخر ، ولكن ، فضول الولد الصغير لم يكن يقل أبدا عن فضول ابيه : فمد بوزه وفتح عينيه ليرى وجه هذا القادم الغريب !

ولم تمض ثوان حتى كان الرجل الغريب الذى هبط من السماء منذ لحظة قد تخلص من حبال المظلة ، ورفع مدفعه الرشاش وبدأ يتحرك فى حذر ويخطو كالفهد على السطح متلصصا فى كل اتجاه !

وعندما نظر الوافد الغريب ناحية الحاج حسن كان السلاح قد تحول الى كتلة من الاعصاب منتبهة ومتحفزة ومستعدة للقتال ! ولكن هـذه الكتلة تراخت وتمطت ، كانها قالب زبد ساح تحت حرارة شهر يونيو · والحـاج حسن معذور وله الحق فلم يكن الهابط من فوق بمدفعه الرشاش الا الضابط الانجليزى الحـر ! ..

ونسى الحاج حسن كل شيء الا هـذا الصـديق ، والايام التى ولت والعيش والملح الذى كان بينهما فى زمن مضى ·· خواطر شتى جـالت فى نفس الحاج حسن قبل ان تلتقى انظارهما فجأة ! وعندمـا التقتا ، التى الحاج حسن بسلاحه ، ذهب مفتوح الذراعين للقاء الصديق .. وأى صفة يمكن أن يكونها هذا الانجليزى الحر اكثر من أنه صديق !

وكان الولد الشقى قد راح يعدو امام أبيه فى اتجاه العدو ولكنه لم يكد يخطو خطوة حتى سقط على الارض ، فقد فتح الضابط الانجليزى مدفعه الرشاش فى كرش الصبى فسقط يتخبط فى دمه !

وصـاح الحاج حسن مذعوراً على الخـواجا الذى لابد أن الامور اختلطت عليه .. ولكن يبدو أن الانجليزى الحر لم يفهم شيئا فقد ضغط على الزناد مرتين ، وعندما تأكد الحاج حسن انه لن يتوقف استدار يبحث عن مدفعه ، ولكن الانجليزى الحر ضغط على الزناد مرة اخرى ، واصبح الحاج حسن اسما فى قائمة شهداء بور سعيد ·

الشيء الذى لابد فكر فيه الحاج حسن وهو يتأهب للموت هو السر الذى جعله يتغير .. هذا الانجليزى الحر !!



خاتم سليمان

أصبحت الليلة مزاج وحلاوة ، فقد جاء أبو حسن ، واذا جاء ابو حسن فكل شيء يطيب .. فهو لا يأتي خالي الوفاض أبدا بل يحضر دائما وبين يديه أشياء ، وفي ثنايا جيوبه أشياء أخرى طيبة تحلو بها السهرة وتنجلي ، وليس أبو حسن نكرة ولا هو بالمجهول في المدينة ، فهو تاجر كان سبع زمانه أيام الحرب وبعدها . ثم وفدت الازمة بعد ذلك فطحنته وأودت بتجارته واشتدت الازمة أكثر عندما اضطربت الاحوال في القنال ، وعندما نشبت الحرب وأصبحت الاسماعيلية مسرحا للقتال انهار مركز أبو حسن التجاري تماما ، وأصبحت قدمه على شفا الافلاس .

ولكن أبو حسن ، رغم ذلك ، لم يقنط ابدا ولم يشك لاحد بل هو حريص أبدا على أن يظهر بمظهره القديم يوم ان كانت الاحوال عال والدنيا مقبلة : جلبابه دائما من الصوف أو الحرير ومن أغلى الاصناف ، والخواتم الذهبية لا تزال في مكانها حول اصابعه تلمع وتخطف الابصار .. صحيح أنها نقصت خاتما أو اثنين . ولكن بعضها موجود على أية حال . وأبو حسن راض عن اقتناع ، والدنيا في نظره هكذا ، لا النعمة دائمة ولا العسر يدوم . وهو نفسه شبع من الحياة وارتوى . وعندما كان شابا طاف بأنحاء شتى من الارض ، واستمتع بطيبات الله وقضى سهرات حمراء عنيفة في بيروت وفي فلسطين وفي

الشام وكان دائم الترحال ليعاين بضاعة ، أو يسلم نقوداً حان وقت سدادها ، وهو لم يزل شابا كله صحة وفتوة ولم يبلغ الخامسة والاربعين بعد .

وكانت له مجالات واسعة زمان ، كان يعشق السفر ، ويهوى التمثيل ، ويعجب بيوسف وهبى ، وكان احيانا يقلده وهو يصرخ على المسارح وفى يده سكين تقطر من دماء ضحاياه . ولكن مجالاته أخذت تضيق بعد ذلك حتى لم يبق له الا سهرات الحشيش . ففى ضباب الدخان تعود أبو حسن أن يدفن أحزانه ، وأن يجتر ماضيه فى صمت ، وأن يتجرع حاضره فى شجاعة . ويفكر فى مستقبله فى تفاؤل رغم كل شيء . وفى هذه السهرات يجد أبو حسن مجالا فسيحا ليحكى جولاته وغزواته فى حلب ، ولياليه العامرة فى بيروت ، ومغامراته فى جبل لبنان .

ولكن هذه الحكايات مل تكرارها ، وتعود الصمت بعد ذلك . ولكن غريزة الرغى كانت تدفعه أحيانا الى الحديث عن السياسة ومشاكل الارض . واصبح شغوفا بتتبع أنباء الحرب التى تنشب بعيداً ، والتجارب التى يقوم بها العلماء لتحسين القنابل والصواريخ . وكان تعليقه الذى يختتم به أحاديثه حول هذه المسألة يحمل رأيه بصراحة فى هذا الجنون الذى أصبح هدف الانسان :

– ربنا بيخلق الحياة وبنى آدم بيخلق الموت .

كان يكره الحرب ، فقد كانت الحرب سبب خرابه . ولولا الحرب لكان أبو حسن فى حال غير حاله ، وكل شيء تغير فى الوجود حتى الحرب . فى الحرب العالمية الاخيرة كانت الاموال تدخل له بلا حساب ، كان يكسب المئات كل يوم ولم يشعر فى يوم ما خلالها بانه يخاف القنابل او يجزع من الطائرات .. ولكن هذه الحرب الاخيرة كانت شيئا آخر ، كان هو نفسه هدفا لها .. وكان يقف مستعدا ليخوض غمارها لولا انهم توقفوا وانسحبوا وخرجوا الى غير رجعة .

وهو رغم المشاكل ، ورغم الخوف ، ورغم الافلاس الذى يعانيه ، لايزال يعشق الحياة ويحبها ، ويأمل ان تعود أيامه الحلوة ، فيضع قدميه فى المركب ليطوف بمسرح شبابه بين حلب وبيروت .

ولكنه احيانا يشعر بضيق شديد يبلغ حد الكفر ، ولقد مرت به أحيانا أوقات عصيبة تمنى فيها لو تنشب الحرب ، وتمسح القنابل نصف الارض .. وتقتل نصف الناس ، ويبقى من يبقى بعد ذلك سعيدا ، فأحيانا يخيل اليه أن

سبب زوال الخير هو كثرة الناس وازدياد المخلوقات . ولكن الانبـــــاء التى يسمعها ويقرؤها تؤكد أن أحدا لن يعيش لو قامت الحرب . وان الارض نفسها قد تزول . وتقوم القيامة .

ولقد مضى عليه وقت غير قصير وفكرة غريبة تلح عليه وتغريه : لمـــاذا لا يغلق دكانه ويستريح ؟ . . فهو لا يعانى الفلس فقط ، ولكنه يعانى ايضـــــا من البلدية . ومن الضرائب ، ومن أشياء أخرى كثيرة سببها أن الدكان لا يزال مفتوحا . . الزبائن تتردد عليه ، والنور يشيع فى أرجائه ، وأن كان هو نفســـه لا يستفيد شيئا من الزبائن ولا من النور ، ولكنه صرف هذه الفكرة واستطاع التغلب عليها ، فالدكان رغم كل شىء مركز وقيمة ، وهو على اعتبار ما كـــان لا يزال يتصدر المجالس ، ويختارها بنفسه ، وسهرة الليلة على مزاجه،فهى تضمه مع محام شـاب حديث العهد بالتخرج ، على شىء من الثراء ، وصــــاحب مزاج وطموح يحب الحياة ، ومتعلم يعرف الاخبار والاسرار ومشاكل الكون . . وهناك ايضا موظف فى المحافظة هادىء ورزين ووقور ، وفى حاله لا براه احـــد بعد ساعات العمل ، فهو دائما فى المنزل يستعد لاستقبال عدد من الاصـــدقاء المعدودين ، ومعهم أيضا مراسل صحيفة يحلو له الحـــــديث فى كل شىء . وأبو حسن تحلو له هذه الجلسة وتروقه ، فحديثها يتناول كل شىء الا ســـيرة النــــاس .

وعندما هبط أبو حسن عليهم هلل الجميع لمقدمه ، ورحبـــــوا بـــه ، وافسحوا له مكانا فى الصدر ، فقد كان يحمل معه برتقالا وكنافـــة ، ويخفى فى جيبه كمية لا بأس بها من الحشيش . وعندما ارتاح أبو حسن فى الجلســـة ، أخرج منديله فجفف عرقه ، وخلع طربوشه فمسح حافته من الداخل ونحــــــاه بعيداً ، وانصرف بكليته يشرف على اعداد النار . وبدأت الاحاديث تتناثر من أفواه الحاضرين ، سرد المحامى الشـاب موجزا لاهم أنباء اليوم ، ثم علق عليها وحاول المراسل أن يستنتج من الاخبار احــــــداث المستقبل ، وجلس الموظف يستمع فقط ، ويهز رأسه أحيانا كلما كانت هناك حاجة ليشعر المتكلم بأنـــــه يسمعه . وعاد الصمت فخيم على الحاضرين ، ثم قطعه المحامى الشاب بسؤال لابو حسن ، وكأنما راعه سكوته :

ــ أنت ساكت ليه يابو حسن ؟

وهز أبو حسن المروحة فى يده ليزيد النار اشتعالا .

وقال فى هدوء :

ـــ اصل النهاردة حصل لى فصل غريب قوى .

وتناول المراسل طرف الخيط وسال أبو حسن عن الفصل الغريب ...

واجاب ابو حسن على الفور :

ـــ النهاردة اشتريت سمك حلو قوى ، وبعدين بينضفوه فى البيت لقينا جوه سمكة صباع بنى آدم وفيه خاتم .

وقال الموظف الوقور فى شىء من الدهشة :

ـــ دا كلام ايه ده ؟.

ورد أبو حسن فى هدوء شـــديد :

ـــ زى ما بقولك كده ..

وهتف الجميـــع :

ـــ وبعـــدين ؟

وضحك أبو حسن ضحكة طويلة ، وقال :

ـــ أبدا ، شلت الخاتم وقلت فى نفسى مين يعرف ؟ يمكن خاتم سليمان ..

وضحك الحاضرون ، ثم قطعوا الضحك عندما اخذت الجوزة تدور عليهم واخذت سحب الدخان تتجمع فوق رءوسهم ، صلبة لا تتحرك وكأنها مشدودة الى السقف بحبل غير منظور .

واقترح أبو حسن أن يفتح أحدهم النافذة لينصرف الدخـــان ، وهب المراسل على الفور فنفذ الأمر ثم عاد ، وقبل أن يعود الى مكانه سأل ابو حسن فى شىء من الخبث :

ـــ طيب وايه اللى جاب الصباع والخاتم فى بطن السمكة ؟

واجاب أبو حسن وهو يتفرس فى وجه السائل :

ـــ حد يعرف ؟ ما يمكن يكون صباع عسكرى انجليزى من العساكر اللى غرقوا فى البحر أيام الحرب ..

ووافق الموظف على كلام أبو حسن ، وقال المحامى :

ـــ ما يمكن عسكرى فرنساوى ..

وقال المراسل وكأنه يفصل برأى قاطع فى الخلاف :

ـــ مظبوط ، لأن فيه مراكب فرنساوى كتير غرقت عند دمياط وأنا شـــفت الجثث بعينى ..

ورد أبو حسن وكأنه يريد أن يحسم النزاع :
ــ انجليزى ، فرنساوى كلهم ولاد كلب .
وعاد الصمت منجديد يسيطر علىالجلسة ، والجوزة تدور . وابو حسن ينفخ فى النار ، وقطع الصمت المحامى الشاب ليسأل أبو حسن سؤالا مفاجئا :
ــ طيب وافرض ان الخاتم ده خاتم سليمان ، كنت تطلب ايه ؟
وقال ابو حسن على الفور :
ــ فكره برضــه ..
ثم صمت طويلا وكأنه يفكر فى الامر ، ثم رفع راسه بعد فترة وحـــدق فى الجالسين يتفرس فيهم ، ثم قال للمحامى الشاب :
ــ طيب انت كنت تطلب ايه ؟
وابتسم الشاب لمهارة ابو حسن وقال وكأنه كان يتوقع السؤال :
ــ أطلب منه يعملنى احسن محامى فى مصر ، واغنى محامى كمان ، ومصر ترفع قضية فى محكمة العدل الدولية واترافع عنها واكسب القضــية ، وابنى عمارة على النيل ، ويبقى عندى مكتب فيه الف محامى .
وهز أبو حسن راسه وقال :
ــ حلــوة دى ..

ونظر الى المراسل فاكتشف أن المراسل كان ينظر اليه متوقعا توجيــه السؤال اليه ، واسرع فأعفى ابو حسن من توجيهالسؤال ، وأجابعلى الفور .
ــ انا أطلب اكون صاحب اكبر جرنال فى الاسماعيلية ، مش عاوز أروح مصر ، ويبقى اسمى زى الطبل ، والكلام اللى اكتبه المحافظ بعمل بيه على طول واخليه يعمل م الاسماعيلية دى عروسه ، وجميع العالم يشتغل ، وتبقى الحالة عال ، وكل سنة اخطف رجلى لحد أوربا اشم الهوا ، وايدى على ايدك يابـــو حسن كل مشوار لازم تطلع معايا .
وكان واضحا جدا بعد هذا ، أن الدور على الموظف .. ولكن لم يبد عليه انه يهتم كثيرا بالحديث ، وانه لا يحفل كثيرا بخاتم سليمن وكنوزه التى يفتحها لمن يطلبها ، ولكن أبو حسن حدق فيه طويلا قبل أن يسأله :
ــ طيب .. وانت ؟
وقال الرجل الطيب بعد فترة صمت :
ــ أطلب الستر ..

وعقب أبو حسن :

ــ ما فيش أحسن منه ..

ثم اضــاف :

ــ لكن احنا عاوزين نعرف راح تطلب ايه .. ما هو كل الناس عــاوزه الستر ، انما ايه اللى انت عاوز تنفذه فى مزاجك ؟

ورد الرجل فى هــدوء :

ــ ولا حاجة ، الستر ، برضه .

وساد الصمت من جديد ، وحدقت كل العيون فى ابو حسن ، فقد جــاء دوره ، واسرع المراسل فسأل أبو حسن :

ــ وانت يا عم ؟

ولزم أبو حسن الصمت فترة ثم قال :

ــ اطلب شيء واحد ..

وهتف الجميع :

ــ ايــه ؟

ــ أطلب منه يخلينى ايزنهاور ..

وضحك الجميع عاليا .. حتى الموظف الوقور شاعت فى سحنته السخرية وهتف المراسل عابثا :

ــ حلوة دى !!

وقال ابو حسن :

ــ قوللى ليه ؟

وقال الجميع :

ــ ليــه ؟

والقى ابو حسن بالمروحة جانبا ، واعتدل فى جلسته وقال :

ــ اقولكم ليه ، بقى انا ابقى ايزنهاور ، وعلى طول أذيع بيان اطلب فيه مقابلة بولجانين فى برمودا .

وقاطعه المحامى الشاب :

ــ واشمعنى برمودا ؟

ــ جوها حلو ، والناس الكبار بيتقابلوا هناك دايما ، المهم يقابلنى ... مش مهم فين ..

ـــ طيب ، وبعد ما تقابله . .

ـــ اتفق معاه واشوفه عاوز ايه ، عاوز يكسر القنابل الذرية أوافق ، نعيش سوا سوا أوافق ، مفيش استعمار أوافق .. كل دولة حـرة تعمل اللى هيه عاوزاه ، وكل واحد فينا يلتفت لبلده بس . .

ـــ طيب . . وبعدين ؟

ـــ وبعدين أطلع بيان أقول فيه ان قناة السويس تتبع مصر .

ـــ طيب وهيه بريطانيا ترضى ؟

وقال أبو حسن باستنكار شديد :

ـــ بريطانيا دى ايه ؟ . . ترضى كان بها ، ما ترضاش أحط ايدى فى ايـد بولجانين واضربها بالقنابل والصواريخ ، وأمسحها من على وش الارض . . . نخلى البحر ياكلها .

وصمت أبو حسن قليلا قبل ان يقول متسائلا :

ـــ ظبط . . والا مش ظبط ؟

وكانت الجلسة حليت تماما .. فهتفوا جميعا :

ـــ ظبط !!

واستأنف أبو حسن حديثه ، وقد اطمأن تمـامـا الى ان الاذان تترقب سـمـاعه :

ـــ بعد كام يوم أطلع بيان تانى أقول فيه : فرنسا تطلع م الجزاير . .

ـــ طيب ما طلعتش ؟

ـــ أعمل فيها زى بريطانيا ، امسحها .

ـــ وبيان تانى لاسرائيل . . تدخل جميع العرب أصحاب البلد ، وتنفـذ قرارات الامم المتحدة ، وهيه حرة . . تنفذ ع العين والراس ، تعصى يتعمـل فيها اللى اتعمل مع بريطانياوفرنسا . خلصنا المشاكل دى ، ننتبه بقى للحاجات الثانية نشتغل بعقل . الصين دى بتاع الراجل كاى شيك نطردهام الامـم المتحدة ، وتخش الصين التانية اللى كانت عامله المعرض فى الجزيرة .

وهتف المراسل على الفور :

ـــ دا كان معرض هايل قوى . .

ـــ امال ، حاجه حلوة تمام . . دانا سافرت مخصوص . .

وأمسك أبو حسن بطرف جلبابه وقال :

ــ الجلابية دى من هناك ، حرير أصيل يعنى . .

وسكت أبو حسن ، وسكت الاخرون ، ودارت الجوزة ثم توقفت ، وسأل احدهم :

ــ وتفضل ايزنهاور على طول ؟

ورد أبو حسن :

ــ لا . . مانا جايلك . . بعد كده أطلب مقابلة بولجانين تانى ويحضرها معانا كل الزعماء . . عبد الناصر يحضر ، نهرو يحضر تيتو يحضر ، الراجل بتاع المانيا دا يحضر ، بتاع الصين يحضر سوكارنو يحضر ، سعود يحضر ، القوتلى يحضر . . نورى السعيد لا ، ولا بتاع تركيا كمان ، الناس الجدعان بس وبتاع استراليا كمان ما يحضرش أبدا . . ونعمل مؤتمر : جيوش مافيش ابدا طيارات بتاعة ركاب بس ، أسلحة ممنوعة ، وكل واحد يرجع لبلده ينفذ تمام .

ــ طيب وبعدين . .

ــ قلتلى وبعدين ، بعد شويه آجى رافد دالاس ، واعين بداله راجل طيب ابن حلال . .

ــ وبعدين . .

ــ وبعدين ايه ؟! . . اطلب م الخاتم يرجعنى أبو حسن تانى .

ورأن الصمت على الجميع بعض الوقت ، قطعه المراسل متسائلا فى اشفاق :

ــ طيب وانت استفدت ايه ؟

ورد أبو حسن على الفور :

ــ استفدت كتير . . أول حاجة ما فيش حرب ، الحال يمشى على طول ، التجارة تمشى ، والبحر يمشى ، والجو يمشى ، والفلوس ترجع فى ايدين الناس والجنيه يبقى جنيه زى زمان ، وكل شىء يرخص ، الجلابية دى بدل ما تبقى بعشرة جنيه تبقى بجنيه واحد . . والجوز الجزمة من غير مؤاخذة يبقى بتلاتين قرش ، وتعرف تشرب فنجال قهوة بن مظبوط مش نشارة خشب ، السجارة تبقى سيجارة بحق وحقيق مش زى سيجارة النهارده ، والحشيش يبقى حاجة فخمة صحيح تشربه تشبع مش يبقى سم زى حشيش اليومين دول . الشقة اللى بخمستاشر جنيه تبقى بتلاته والخير يبقى زى زمان واكثر .

وبعد دا كله تسألنى استفدت ايه ، طبعا استفدت روقان البال ، المزاج والفخفخة . طيب دانا على الطلاق بالتلاتة أيام الغارات ما شفت قعدة حلوة ، طول الليل البندقية فىكتفى قاعدمنتظر ولاد الكلب ، وبعدين ماحصلش نصيب .

والتفت أبو حسن للجوزة وللنار ، وسكت والراحة تهدهد نفسه كأنه أدى رسالة ·· ولكن المحامى لم يتركه يستمتع بهدوئه فسأله فجأة :

ـــ طيب وافرض يابو حسن الامريكان عرفوا انك مش أيزنهاور الحقيقى ايه اللى يحصل ؟

وضربت لخمه مع أبو حسن ، فلنفرض أن هذا حدث فعلا فماذا تكون النتيجة . . وهز أبو حسن ، راسه طويلا قبل أن يجيب :

ـــ ولا حاجة ، بعد ما يشوفوا أعمالى راح ينبسطوا ، عشان الناس هناك عاوزين كده ، انت فكرك حد عاوز حرب ، دا الناس هناك برضه أصحاب مزاجات وبيحبوا الدنيا ، مافيش غير شوية يهود ولاد كلب عندهم المال وبيكسبوا م الحرب ، دانا قريت انهم كسبوا مال قارون فى حرب كوريا . ودى كانت حتة حرب لا هنا ولا هناك . . انما الناس الغلابة اللى زى حالنا عاوزين يعيشوا بس . .

وعاد المراسل يسأل أبو حسن فى شىء من التحدى :

ـــ طيب وافرض الحاجات دى كلها اتعملت ، نودى الخاتم فين . .

ـــ ارميه فى البحر . .

وقبل ان يقاطعه أحد ، استدرك قائلا :

ـــ وعشان خاطرك انت أطلب تموين العمر كله ، حشيش أجدع صنف ، وبعدين أرميه فى البحر . .

ـــ واشمعنى فى البحر يعنى .

ـــ أحسن حد من ولاد الكلب يلاقيه يلخبط الدنيا تانى . .

كان الليل . . قد انتصف . . وهدات المدينة ونامت ، عندما نهض ابو حسن بعد أن أكل البرتقال والكنافة فنفضجلبابه وأعاد طربوشهفوق رأسه ، واستعد للخروج . . ونهض الجميع وانهمك الموظف صاحب البيت فى كنس بقايا الدخان والفحم واكياس البرتقال وورق الكنافة . . وبعد أن انتهى صافح ابو حسن فى حرارة على الليلة الجميلة ، وعلى الصنف الجيد ، وعلى الحديث الممتع الظريف .

وأنتهز المحامى الفرصة ، فعلق على حديث الموظف قائلا :
ــ فعلا . . ليلة جميلة قوى حد عارف ايه اللى راح يحصل بكره ؟
وابتسم ابو حسن فى هدوء وقال :

ــ ولا راح يحصل حاجة ، ان كانوا ناس عاقلين صحيح راح يحصل زى ما قلنا ، وان كانوا مجانين بقى يحصل زى مايحصل ، احنا مش راح نخسر حاجة ، همه ح يخسروا قبلنا .

وتقدم أبو حسن صاحبيه نحو الخارج ، وقبل أن يصل الى الباب الخارجى التفت الى الثلاثة ، وقال مستدركا :

ــ نسيت حاجة ؟
وهتف الثلاثة . .
ــ ايه ؟!
ــ أطلب م الخاتم يمسح البلدية والضرايب . .
وارتفعت ضحكات الجميع ، وهم يتوغلون فى الشارع ويمضون فى الظلام .

شيخ الخفراء

كانت الليلة مظلمة وكئيبة ، وكانت العاصـــفة تزأر فى الخارج والمطر ينهمر غزيرا ·· وكانت نقطة البوليس التى تحتوينا تشهد يوما تاريخيا فى حياتها الطويلة · ففى الفناء الخارجى كان يصطف أكثر مـن مائة خفير مسلح ببنادق عتيقة استخدم بعضها فى الحرب العالمية الاولى ولـم يكن من بين هـؤلاء الخفراء من يبدو عليه الشباب والحماس ، كان أكثرهم يقطع بخطوات حثيثة نهاية العقد الخامس وكان يبدو عليهم جميعا انهـــم يؤدون واجبا ثقيلا ·

وكان المأمور يجلس أمامى يغالب النعاس بالدعك فى عينيه دائما . ومفتش البوليس يناقش مندوب الوزارة الذى حضر خصيصا من العاصمة ليشرف على الحملة . . فى فوائد الارانب ورغم أن المفتش استخدم كل براعته فى التمثيل وكل مواهبه الاخرى فى اقتناع مندوب الوزارة الذى كان يبدو رغم لباسه المـــدنى اعلى رتبة من المفتش ، بأن لحم الارانب يطيل العمر الى مائة عام . . الا انـــه لم يبد عليه الاقتناع أبدا . وظل متشبثا برأيه وهو أن لحم الارانب مفيد ولكنـــه لا يطيل العمر أبدا .

وكان المفتش يسوق الحجج والبراهين وهى كلها قاطعة ومانعـة وكان يعانى جهدا شديدا وهو يحكى ، جعل العرق يتصبب من جبهته رغم البرودة الشديدة · فقد كان المفتش حريصا على انتقاء الفاظ معينة لحديثه مع الضابط الكبير وكان أشد حرصا على استعراض بلاغته أمامه .

فكان يتعمد الحديث بالفصحى فى أغلب الاحيان .

ــ تعرف سعادتك .. لحم الارانب ليس الا ..

وكان عندما تروق له عبارة مثل « ليس الا » يظل يكررها اكثر من مــرة وهو سعيد بها غاية السعادة .

ــ ليس الا .. دواء للامراض .

وكان الضابط الكبير يرد عليه بألفاظ بسيطة وعادية ، ولم يكن يبدو عليــه أى اهتمام بشأن محدثه ، وكانت معارضته تبدو معارضة لشخص المتحدث أكثر منها معارضة لرأيه .

ــ يا راجل حرام عليك .. دواء ايه ؟

ــ زى ما بقول لسعادتك طيب ايه رأيك جدى عاش مائة عام وكان يأكــل لحم الارانب حتى وافاه الاجل المحتوم .. نعم الاجل المحتوم .

ــ مالهاش دعوة الارانب دا عمره ، ولكل أجل كتاب .

وبدا على المفتش الغم الشديد .. لا لان الضابط الكبير لم يقتنع ولكن لانه استشهد كلمة بليغة .. كان الاحرى به ان يستشهد هو بها ، ولكنه سرعان ما استرد مكانته ، وقال فى جهد شديد .

ــ نعم .. نعم لكل اجل كتاب دا صحيح وانما .. برضه .. وجعلنـــا لكل شىء سببا .. ولحم الارانب هنا هو السبب فى انه عاش مائة عام .

كانت أصواتهم مسموعة أول الامر ، ولكنها ما لبثت أن تلاشــــت حين تصاعدت الضجة من الخارج من فناء النقطة .

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل وكان أمامنـــا ساعة اخرى لنبدأ رحلتنا صوب الجبل الغربى لمطاردة عصابة « الخط » التى ذاعت انباؤها وشاعت واصبح لها سلطان فى الصعيد كله يفوق سلطان القانون .

وكنت أتعجل الزمن لنبدأ رحلتنا صوب الجبل ولتتاح لى أول تجــربة من نوعها فى حياتى . فخلال عملى الصحفى لم يعهد الى بعمل من هذا النوع على الاطلاق . وهاهى الظروف تهيىء لى فرصة ثمينة لاكون أول انسان يعلن على الناس نبأ هزيمة العصابة واستسلامها .

وكانت مناقشة المفتش ومندوب الوزارة قد أنتهت لا أدرى عند أى حـــد عندما غادرت مقعدى فى الداخل وخرجت الى الفناء لالقى نظرة على الخفراء الذين اختارهم مندوب الوزارة بنفسه ليكونوا افرادا فى فرقة الخلاص .

كان الخفراء يقفون تحت المطر وسط العاصفة .. ملابسهم قديمة وبعضها

ممزق . وأحذيتهم مثقوبة ووجوههم جامدة قاسية يرسم عليها سخط هائل . .
وشيخ الخفراء وحده كان يبدو عليه النشاط والحماس يلقى اليهم بتعليماته ، ثم
يسرع الى الداخل يهمس فى اذن المأمور بكلمة وينحنى للمفتش ويضرب تعظيم
سلام لمندوب الوزارة ويرن جرس التليفون فيرد عليه ويصيح مبتهجا ، المديرية
. . ويجرى شيخ الخفراء الى الفناء يختبر الاسلحة بنفسه ويلقى نظرة على
الساعة ثم يدور حول الخفراء ويهمس فى اذن البعض منهم ويشخط فى وجه
البعض . . زعق بصوت رهيب فتحرك الخفراء الى الخارج وخرج الضباط
الثلاثة الكبار يتقدمهم مندوب الوزارة فالمفتش فالمأمور ووقفوا يستعرضون
الخفراء وهم فى طريقهم الى الامام ولم تمض لحظات حتى تحرك طابور الخفراء
صوب الجبل الغربى .

كان رفيقى فى الرحلة الغربية فقيرا عجوزا فى الخامسة والخمسين من عمره
وكان قد قضى حياته فى تلك المنطقة الرهيبة وشهد معارك طاحنة بين اللصوص
ورجال الحكومة . وكان يعرف مسالك الجبل والطرق المؤدية اليه معرفة خبير
وكان يتحدث عن رجال العصابات وكأنه يعرفهم .

وكان شيخ الخفراء سمينا بعض الشىء أحمر الوجه منتفخ الاوداج
ذا شارب أصفر منفوش وكان فيما يبدو معتدا بقوته البدنية فخورا بتركيبه
الجسمانى وقد حرص عندما عرف أننى صحفى ان يذكر لى اسمه كاملا :

— زكريا حسن سليمان . . بس أوعى تنسانى لما تكتب .

وعندما أخبرته أننى سأبذل غاية جهدى لابراز الدور الذى سيقوم به ،
سألنى فى هدوء :

— دى أول مرة تطلع فى كبسة ؟

ولما اجبته بالايجاب قال وهو يضحك :

— بس اوعى تخاف خلى قلبك جامد .

كنا قد تركنا القرى وخرجنا الى الخلاء وكان لايزال أمامنا خمسة كيلومترات
لنصل الى الجبل وعن طريق المسالك الضيقة القذرة كان أمامنا أكثر من ساعة
لنصل الى هناك . وفجأة وقف شيخ الخفراء يلقى بتعليماته وشرح للخفراء
الخطة ثم وزع القوة الى قافلتين واحدة تتجه نحو الشمال والاخرى الى اليمين
وكنت من نصيب القافلة الاولى فانحرفنا ناحية الشمال فى طريق يبدو وكأنه
كان يوما ما مجرى نهر جفت المياه فيه ولما كانت الاوامر تمنع استخدام اية أنوار

أثناء زحفنا نحو الجبل فقد راح الخفير العجوز يتلمس طريقه فى الظلام وهـو يلعن كل شيء وسرحت انا فى هؤلاء الناس الذين يسكنون الجبل والسـلاح بين أيديهم ، واصابعهم على الزناد ، وعيونهم على الطريق يطلقون النار على كل حركة وعند كل اشارة ويعيش الواحد منهم وليس له مقر ويموت ولا تعرف له قبرا .

وانتزعنى من افكارى شيخ الخفراء ، اذ وكزنى بشدة فى جنبى ، وقال لى وهو يغمز بعينيه :

ــ انت خايف والا ايه ؟

ولما اجبته بالنفى قال فى غير مبالاة :

ــ دى عصابة ورق انا قلت للمأمور آخد الف جنيه واجبلك الخط نفسـه مربوط فى الحبل مارضيشى .

اثارنى حديثه .. فسألته مندهشا :

ــ وتقدر صحيح تجيبه فى حبل .

ــ الا اجيبه دنا معروف فى كل حته اسأل اى واحد : تعرف زكريا ؟ شوف بقولك ايه !

وبدا وهو يتكلم كأنه يقرر واقعا لا سبيل الى انكاره .. وكان حين يتحدث يهز كتفيه ويفرك شاربه الكث بأصابعه ويكح فى تحد وثقة وينفخ صدره العريض وهو يربت فوقه براحه يده واشعل زكريا سيجارة جذب منها نفسا عميقا ثـم قال وهو ينفث الدخان فى ضيق شديد :

ــ تعرف انا انفع فى حاجة واحدة بس ..

وسكت زكريا قليلا وجذب نفسا آخر اشد عمقا وقال وهو ينفث الدخان هذه المرة فى حلقات .

ــ أنا تسيبنى فى الجبل دا وتقوللى روح !

ــ طيب وتعمل ايه فى الجبل ؟

وقال فى استنكار بالغ :

ــ اعمل ايه .. مادام معايا المدفع بتاعى يبقى كل يوم أسلمك عصابة .

قال ذلك ثم خبط بيده عدة مرات على المدفع الذى كان يتأرجح فوق صدره ثم قال فى صوت خافت وكأنه يحدث نفسه :

ــ مادام معاك مدفعك ما فيش أى حاجة تقف قدامك ..

ثم نفخ فى ضيق وفى أسى وبدالى وكأنه أسد كاسر محبـــوس فى قفص من حديد وخيل الى وأنا ارقب أسارير وجهه ان الفرصة قد سنحت له مرة اخرى لينطلق فى الجبل ومادام معه مدفعه .. فلن يقف شيء أمامه .. ولا ادرى لماذا خطر لى أن أسأله سؤالا ساذجا اغضبه للغاية وجعله يزمجر من الاهـــانة التى الحقتها به :

ــ وطلعت الجبل قبل كده ؟

ــ أمال احنا بنحكى فى ايه من الصبح ؟ انا قضيت عمرى كله هناك . دى معلومات لازم تكتبها .. انا كنت اطلع الجبل دا فى القمر . حاكم انا ماطلعش غير فى القمر بس .. المامور عارف كده والوزارة عارفة كده .. واطلع انـــا ، المدفع على كتفى وبس شيبت المجرمين فى الجبل ..

ــ وقتلت كتير منهم .

ــ ياما انا ايام كنت الاقى فى سكتى خمس جثث تعرف بقى كنت ابعـــد عنها وانزل م الجبل .

ــ وتبعد عنها ليه ؟

ــ انا مذهبى كده ما دام مات يبقى الف رحمة .. وتعرف ايه الســـبب كان مزاجى امسكهم ع الحيا ونهار ماكنت امسك واحد كان يبقى يوم عيد ..

ــ ومسكت كتير يازكريا ..

ــ اسأل عنى بلاش اقولك انا احسن تقول كداب ، طيب تعرف ؟ انـــا مرة مسكت واد اسمه جابر ، لاتقوللى الخط ولا الفقى ، وكان واحد مجـــرم بصحيح ، كان مشيب المنطقة دى كلها . فى يوم وكان القمر بدر وخدت مدفعى وطلعت الجبل تعرف ايه اللى حصل ؟

دخلت عليه المغارة . ضرب اكتر من عشرين طلقة بتيت اقوم وانبطح على وشى .. حاكم دا فن .. كمان تنه يضرب لما المدفع بتاعه فرغ .. وعنهـــــا حلقتله شنبه واخدته ونزلت .

ــ وحلقتله ازاى ؟

ــ شديت الشعر بايدى ..

كان الخفير العجوز يختلس بين كل حين وآخر نظرة الى شيخ الخفـــراء وكانت نظرته تحمل معانى كثيرة لم استطع تحديدها وكنت اخمن احيانا انهـــا

نظرة اعجاب واكبار لان زكريا كان أحيانا يستشهد بالشاويش فى وقائع كثيرة فكان يهز راسه دائما موافقا على كل ما يقول .

كان الظلام حالكا للغاية والريح تعصف بشدة لاتزال ، والمطر حول المنطقة كلها وقد حولها الى بركة من الطين ، والخفير العجوز يبصق على الخط ويلعن الايام وهو يحاول جاهدا ان يخرج من الحفرة التى وقع فيها .

ووقفنا جميعا فى العراء .. شيخ الخفراء والخمسة عشر خفيرا الـذين كانوا يرتعدون من شدة البرد .. وبدأ زكريا يباشر سلطاته منذ تلك اللحظة .. فقد كان من البديهى انه وحده هو المسئول عن كل هؤلاء الناس الذين يلتفون حوله ..

وراح يتلفت هنا وهناك بعض الوقت قبل أن يسأل الخفير العجوز عن المكان الذى توجد فيه العصابة بالتحديد .. وأجاب الخفير على الفور وكأنـه يقرأ من كتاب مفتوح .. وبعثت اجابته موجة من الذعر فى صفوف الخفراء .. فهم يعلمون بتجربتهم الطويلة أن الخطر يحيط بهم من كل جانب ماداموا على بعد يسير من دير الملاك ، واقترب الخفراء بعضهم من البعض فى حلقة ضـيقة ووجوههم جميعا نحو الغرب وبنادقهم مشرعة فى ايديهم وكأنهم على أبـواب معركة ساخنة لا تنتظر الا أمرا من زكريا وفوجئت وأنا أنظر نحو الغرب مثلهم بشىء غريب ، شىء رهيب كالقبر ، يبدو فى الظلام تحدده ظلمة أكثف من الظلمة التى تلف الكون وهمست فى اذن احدهم أسأله عن هذا الشىء .. فأجاب بصوت خافت مرتعش .

ــ دا الدبل « الجبل » .

كانت المسافة التى تفصل بيننا وبين الجبل لا تزيد على الف متر ، وكـان معنى ذلك ببساطة أن طلقة ولو غير مقصودة يطلقها هارب فوق القمة لابـد وأن تقتل أحدنا فى الحال .. وقطع الصمت الذى يحيط بنا لغط الخفراء .. كل منهم يحاول أن يقترح شيئا لحل الموقف .. كانوا جميعا يتحدثون الا زكريا كان يقف صامتا ، والمدفع فى كتفه وعيناه الواسعتان نصف مغلقتين كأنه يحلم .. وكأن بين الحين والحين يدس اصبعه فى فمه يقرض أظفاره فى عصبية وقلـق تستدعيهما مسئوليته الكبرى كقائد عظيم .

وأخيرا سكت اللغط وارتفع صوت الخفير العجوز يقترح ان نظل فى اماكننا حتى نعثر على زملائنا الاخرين ، أو ننسحب فى هدوء نحو الشرق بعيدا عن الجبل

الغربى . . ولكن هذا الاقتراح لم يلق قبولا من زكريا وارتفع صوته لاول مـــرة يأمر الجميع بالتزام الصمت وانحنى على اذنى يهمس فيها ويده الغليظة تلتف حول كتفى :

ــ ايه رايك بقى ، انا راح أكبس على العصابة وامسكهم زى النسوان . . ولما لم يرتفع صوتى بشىء ما . . قال على الفور .

ــ بس تكنب بقى آه ، أهو دا وقتك بقى ، زكريا الرهيب فى الجبل . ولا أى حاجة ، بقى ، عاوزك تعمل موضوع كده يفتح النفس تعرف بعد كده الواحــد يمسك العمودية على طول .

وتركنى وتقدم الجميع بعد أن أمرهم بالتحرك فى اتجاه الجبل وامتثـــل الخفراء للامر ولكن صوت الخفير العجوز عاد يرتفع من جديد محذرا فى شىء من الغلظة .

واضـــاف :

نروح فين دلوقت فى الجبل واحنا فى الارض دول لو ضربونا بالطـــوب يغلبونا ، دا ليلة ايه المهببة دى .

ولكن زكريا كان يتقدم الخفير العجوز بمسافة لم تسمح له بأن يســـمع حرفا واحدا مما قال وبدأ الصمت يخيم من جديد على الصف الطويل من الرجال الذين راحوا يزحفون بحذر شديد نحو سفح الجبـل .. وفجأة توقف زكريا واستدار نحوهم وأمرهم بالانتشار على شكل حدوة وهتف مسرورا بعــد ذلك كأنه طفل صـــغير .

ــ أيوه . . حدوة دا تكتيك محسوبك زكريا تعرف ، لما يكون خمســـــن مجرم زى الخط . . لازم يسلموا . .

وعندما اصبحت الحدوة على احسن ماتكون ارتفع صوته من جديد يأمرهم بالتقدم ولكنه بقى هو فىمكانه لم يتزحزح شبرا وجذبنى منيدى لاكون الى جانبه وظل الخفير العجوز خلفنا فلم يكن مسلحا بشىء الا بعصا صغيرة .

وانتفخ زكريا كأنه روميل فى الصحراء، والتفت الى مزهوا كأنه ديكرومى سمين وقال :

ــ زكريا الرهيب فى الجبل ، ايه رايك فى العنوان ده ؟

ولم ينتظر حتى يسمع منى جوابا ، ويبدو أنه لم يكن ينتظر هذا الجواب . . فواصل حديثه على الفور :

ـــ لو أمسك الخط تفتكر يعملو لى ايه ؟ ياسلام دا الواحد كان يبقى أشهر واحد فى مصر ، ايه رايك البركة فيك انت .

وعندما انتهى من حديثه كان الخفراء قد اصبحوا على مسافة بعيدة ولـــم يعد من السهل الاتصال بهم عن طريق الكلام وجاة صوب زكريا مدفعه نحو الجبل وشد على الزناد .. وانطلقت الرصاصات تعربد فى الفضاء وصداهـــا الرهيب يجلجل فى انحاء الجبل واستدار نحوى فى كبرياء ملحوظة وقال فى غير مبالاه :

الهجوم بدأ ·· تقدر تكتب بقة !!

ولم يكد زكريا ينتهى من عبارته هذه حتى ضج الفضاء حولنـــــا بآلاف الرصاصات ونظر زكريا نحو الجبل وقد اتسعت عيناه أكثر وتغضنت جبهتـــه ثم لم يلبث ان عاد اليه الهدوء وقال فى سرور بالغ .

ـــ دا العيال بتوعنا ..

ثم التفت نحوى وقال :

ـــ تقدر تكتب تقول .. وكانت الطلقات تشق كبد الجبل الغربى ايـــــه رايك فى اسلوبى بقى أنا كنت غاوى الكتابة على فكرة وتعرف لو كتبت .. مين عـــارف ؟

وعندما حمى وطيس المعركة عن ذى قبل استدار مرة أخرى نحو الجبـــل ثم نظر الى الخفير العجوز الذى كان هو الاخر منهمكا فى تبين حقيقة الامــــر وبدا انه لم يعد يفهم شيئا مما يحيط به وانه يعلق اهمية كبرى على ما ســـوف ينطق به الخفير العجـــوز .

وتكلم الخفير أخيرا وقال فى هدوء بالغ :

ـــ دا مش رصاصنا دا رصاص مدافع .. العيال بتوعنا ماسكين بنادق .

وهتف زكريا فى ارتباك شـــديد :

ـ مدافع ·· مدافع ·· أنت متأكد ؟ أمال ايه ؟ نعمل ايه طيب ننسـحب ننسحب .

وارتفع صوته عاليا رهيبا :

ـــ ارجع ورا يا غفير .. ارجع ورا ..

ولكن صوته رغم ضخامته تلاشى فى الفضاء وعندما ارتفعت صرخـــة من مكان ليس بعيدا عنا هتف فى وجه الخفير وفى وجهى ··

ـ ننسحب احنا ..

ولم ينتظر حتى يسمع رأينا فى هذا الامر بل أسرع بالانسحاب وراح الخفير يلهث وهو يجرى خلفه وانطلقت أنا الاخر أعدو بأقصى قـــوة .. واختلطت أصـــوات الطلقات بصراخ الجنود بأصوات أعواد الذرة الصيفى الجافـة وهى تتكسر تحت اقدام الجميع ورسم الظلام والليل والخوف لوحة رهيبة لجو المعركة ، وكان الفزع قد استبد بنا .. وكان واضحا للغاية أن شيخ الخفراء هو أكثر الجميع فزعا وكان منظره وهو يجاهد ليعدو بأقصى سرعة يدعو الى الرثاء والى الضحك معا .. ورغم ضخامته فقد كان يبدو وهو يجرى كأنـــه عصفور مذعور فاجأه صياد قاس لا يرحم .. وعندما اكتشـــف ان المدفع الرشاش الذى يحمله على كتفه يعوقه عن السرعة المطلوبة . القى بالمدفع على الارض أمامه ولكنه ـ لسوء الحظ ـ داس على الزناد وهو يجرى فانطلقت رصاصة الى أعلى أصابته فى كتفه فسقط على الارض مضرجا بالدماء .

كان أنينه مزعجا ورهيبا وقاسيا للغاية ولكنه لم يلبث ان انكفأ على وجهه بلا حراك . وانبطحت على وجهى فوق الارض الى جانبه اتحسسه بيدى .. وكان الخفير قد لحق بنا فجلس على الارض عند رأسه يلعن كل شىء ويـــده تتحسس جبهة الملقى على الارض والخفراء الذين كانوا خلفنا بداوا يفدون الى المكان الذى وقع زكريا فيه واخذوا يلتفون حولنا صامتين لا يجرؤ احد منهــم على أن يشعل عود ثقاب واحد .. حتى لا نصبح هدفا لرصاص المجرمين الذى كان حتى هذه اللحظة يعوى حولنا فى كل اتجاه .

كان من المحتمل ان شيخ الخفراء قد مات فقد كان نبضه خافتا للغـــاية وثمة دم يسيل من كتفه ساخنا حارا وفمه ينفتح أحيانا بشهقات سريعةمتلاحقة وثمة خفير صغير كان يقف عند اقدام زكريا ينتحب فى حرقة بالغة وفى تأثرصادق وسيل الرصاص المنهمر قد توقف والليل اخذ يسحب ذيوله خلف الجبل وطيور الصباح الصغيرة راحت تقطع الفضاء فوق رؤوسنا فى اتجاه الحقول الدافئة ، وبدأ وجه زكريا على ضوء النهار الشاحب أصفر باهتا كالنهار نفسه وحملت الينا الريح صوت العربات الضخمة التى كانت لابد تبحث عنا خلال الظـــلام وصرخ الخفير الشاب الذى كان يقف منتحبا منذ لحظة مستنجدا ولـــم تمض لحظات حتى وصلت العربات الضخمة ، ونزل المأمور أولا نائما يغالب النعاس

وتبعه مندوب الوزارة ومفتش البوليس وانحنى المأمور يفحص شيخ الخفراء ثم رفع أصابعه الملطخة بالدم وتمتم فى انشراح .

ــ الحمد لله .. بســيطة ..

كانت الاصابة فعلا بسيطة اخترقت الرصاصة لحم الكتف ولكنها لم تصب العظام بسوء .. وانتزع احد الخفراء منديله المحلاوى الكبير من فوق راسه ولفه حول الجرح الذى كان لايزال ينزف دما .

وانطلقت عربة سريعة نحو المدينة لتحضر طبيبا على عجل ووقف مفتش البوليس بجوار شيخ الخفراء وجلس مندوب الوزارة على رفرف عربة وانتشر الخفراء حولهما فى كل مكان .

وهز المفتش راسه فى عصبية بالغة وقال لمندوب الوزارة :

ــ ستعرف أن هذا صحيح عندمـــا تجرب لحــــم الارانب ، كل ارانب وســـترى !

ولم يرد مندوب الوزارة .. كان يتثاءب فى خمول ويرعش ســـــاقيه فى عصبية بالغة .. وشيخ الخفراء الجريح يتمدد فوق بطانية الى جانب الترعة . والجبل الغربى يبدو خلفنا كقبر رهيب شيدته اجيال وعصور متعاقبة والخفير العجوز يشعل سيجارة ويبصق فوق الارض ويلعن كل شىء ثم ينظر الى شيخ الخفراء ويمصمص شفتيه فى أسى ..

المأمور

سيحضر المأمور الليلة وسيكون كل شيء على مايرام. وحضور البيه المأمور بنفسه الى قهوة الاشراف لزيـــارة المعلم غزال ليست بالشيء القليل ، ولكنه حدث له قيمة وسيكون له شان في مستقبل الايام . فالبيه المأمور لا ينتقل بسهولة الى اى انسان وهو في دائرة عمله لا ينتقل الى مخلوق ، بل انه يتمتع بنفوذ الملوك . وهو يستطيع ان يقول للشيء ــ اى شيء ــ جمـــاد . حيوان . بنى آدم .. كن فيكون !

ولقد تعرف المعلم غزال على البيه المأمور فى السجن . عندما كـــان المعلم غزال سجينا ، وكان البيه المأمور هو الحاكم العام خلف الأسوار .وفى اول لقاء بين المأمور والمعلم غزال احتد المأمور على المعلم فأهـــــانه ، وتكررت الاهـــــانات بعـد ذلك حتى بلغت الضرب . وكان قاســيا فاذا اعتدى بالضرب على أحد تحول الى وحش مفترس ، وكان أحيانا ينسى نفســه فيطبق بأصابعه على عنق السجين حتى يشرف على الموت وعندئذ يخلصه من المصير البشع ضباط السجن وعساكره . وبدأ من كثرة تردده على زنزانــة المعلم غزال انه يتعقبه ويتعمد اهانته . لذلك عمد المعلم غزال الى احناء رأسه أمام عاصفة المأمور حتى تمر ، كف عن الاستفزاز حتى ينجو بنفسه مـــن شر عظيم . ودرب نفسه على منافقة العساكر والضباط والمسجونين حتى لايعطى الفـرصة للمأمور للتنكيل به . ونجحت خطة المعلم غزال ، وابتعد المأمور عنه

شيئا فشيئا حتى نسيه تماما واصبح المعلم غزال مجرد سجين عادى لا شأن له بالادارة ولا بالمأمور ٠

وكان المعلم غزال وسيما ورقيقا وابن بلد مجدع حقيقى ، التف حـــــوله السجناء ، فرحين بهذا النموذج النادر الذى يندر وجوده فى مثل هذا المكان ٠ ففى السجن حيث يتقاتل الرجال من أجل قطعه جبن ملوثة بالتراب ، وحيـــث يفقد الرجل عينه من أجل عقب سيجارة ، وحيث الحياة كئيبة وفى أقصى درجات الانحطاط ٠ فى جو مثل هذا تصبح للاشياء التافهة قيمة عظيمة ٠ ويصبـــح الورق الملون وعلب الصفيح الفارغة والمزق المهلهلة من الثياب ، وبقايا علبـــة السجاير الفاخرة الطباعة من مقتنيات الشخص يحرص عليها أكثر من نفســه ويموت فى سبيلها كأنها الارض والعرض والاولاد ٠

ولكن المعلم غزال لم يسمح لجو السجن أن يأكله ، كان كريما ٠٠ ما يملكه ليس له ٠ نقوده يوزعها على الجميع ،وعلبة سجايره مفتوحة دائما ،والمأكولات، التى تصله من الخارج لا يذوقها فى اغلب الاحيان ولكنها للاحبة والصحـــاب فى عنبره وفى كل العنابر ٠ وأصبح المعلم غزال زعيما فى السجن رغم أنـــه لميدخل السجن منقبل، كلمتهعلى المسجونينأوامر ، وشفاعته لديهم حكم ، والسجان اذا اراد أن ينفذ أمرا استعان بالمعلمغزال ٠وأصبح المعلم غزالحبيب كل مسجون ، حتى الذين يخرجون افراجا الى دنيا الحرية ، كان المعلم غزال يزودهم بالنقود وأحيانا يعينهم فى أشغال يحصلون منها على لقمة العيش ٠

ولكن لم تكد تمر شهور على هذا السلام الذى ينعم به المعلم غزال ٠٠حتى أوقع نفسه فى شر أعماله ٠٠ وصلته هدية من أحد أصدقائه فى الخارج عشرة أقفاص خوخ معتبر ليس مثله فى الاسواق ، فترك خمسة أقفاص للمساجين، وأرسل خمسة أقفاص للبيه المأمور ٠ وسرعان ما استدعاه المأمور الىالمكتب، وكانت طريقة الاستدعاء تنبىء عن كيفية الاستقبال ٠ فقد جاء عسكرى غليظ الى الزنزانة وجر المعلم غزال من قفاه الى مكتب البيه المأمور ٠ وعلى الباب كانت جريمته تنتظره ٠ أقفاص الخوخ مرصوصة بعضها فوق بعض لم تمس ، وعسكرى المأمور واقف عند الباب مهندم وفى حالة انتباه ٠ وانتظر المعلم غزال عند الباب ساعات حتى فرغ البيه المأمور من مشاغله ، وعندما سمحوا لـــه بالدخول ، كان المأمور مجعوصا فى الكرسى الدوار وعصاه تنام أمامه فـوق المكتب وعيناه تقدحان شررا وملامحه كلها تنذر بالشر ٠

وقال المأمور وعيناه مثبتتان على وجه المعلم غزال :
ـ ايه الخوخ ده يامسجون ؟
وتصرف المعلم غزال بلباقة فقال وعيناه تتنقلان بين المكتب والجدار ٠
ـ هدية ياسعادة البيه ، وزعت نصفها على عنبر ٩ وارسلت نصفهـــا لسعادة البيه المأمور ليوزعها بمعرفته على بقية العنابر ٠٠ وكل سنة وسيادتك طيب ٠
وقال المأمور بعد أن اعتدل فى جلسته :
ـ يعنى باعتها للمساجين ؟
ـ نعم ٠

قالها بسرعة وبهدوء كأنما الرد لايحتمل التأويل ولا يقبل أى تفسير آخر ٠
وقال المأمور وهو ينهض من مكانه ليقترب من المعلم غزال :
ـ أنا افتكرت حاجة تانية يعنى ٠٠٠
ـ حاجة تانية ايه ياسعادة البيه ٠٠ استغفر الله ٠

ومد المأموريده فتناول عصاه٠ولوح فىوجهالمعلم غزال ،يأمرهبالانصراف وجرى المعلم غزال وهو يحمد الله الذى نجاه من براثن المأمور ، فقد كـــان المطب الذى وقع فيه فرصة المأمور لتمزيق لحم وجهه لو اراد !

بات السجن وسكانه فى شدة السرور للرزق الذى هبط عليهم من حيـــث لايعلمون ٠ وأصبح المعلم غزال أشهر مسجون بسبب هدية الخوخ التى وزعها البيه المأمور بنفسه حتى يتأكد من ان المساواة قد تحققت والعدل يأخذ مجراه ٠ ولم تمض أيام حتى استدعىالبيه المأمورالمعلم غزال واستقبلهبابتسامةعريضة وسمح له بالجلوس وقدم له سيجارة وطلب له واحد شاى فى كوب زجاج من نفس النوع الذى يشرب فيه البيه المأمور ٠

وسأله عن صنعته وعن تهمته فأجاب المعلم غزال اجابات سريعة بانه من ذوى الاملاك فى الجيزة وصاحب قهوة الاشراف ويحتكم على عدة ألوف مـــن الجنيهات وأربع سيارات تاكسى وانه ألفى ومبسوط والحمـــد لله ٠ ودردش المأمور مع المعلم غزال ،وكانت لهجته حلوةوضحكته صافيةوقلبه أبيضكاللبن الحليب ٠ ولاول مرة يعرف المعلم غزال ان البيه المأمور اسمه راشـــد وانه قضى فى السجون أربعين عاما طويلة ، وانه بدأ حياته من تحت السلاح ووصل

الى آخر ما يمكن لرجل مثله أن يصل اليه ، وانه رجل دوغرى وصل الى مكانه العالى بالصبروالمشى على الصراط المستقيم ٠

وتكررت المقابلات بين البيه المأمور والمعلم غزال وتوطدت الصلات بينهما اكثر ٠ واحيانا كثيرة كان البيه المأمور يسمح للمعلم غزال بالجلوس معه حتى بعد التمام ٠ وكان يتبحبح معه أكثر فيوصى العسكرى أن يترك بابه مفتوحا طول الليل ٠ وتحول السجن الى جنينة وأصبح المعلم غزال مأمور مساعد للسجن ، واصبحت سهراته وتعداته مع المأمور حديث كل المسجونين ، ولان المأمور القاسى المتجهم الذى لا يرحم أمه ، والذى كان يحكى ذكرياته للمعلم غزال فى زهو شديد ، وهو يشرح بالتفاصيل كيف كتم على انفاس السجين فقتله ، وكيف القى بآخر من آخر دور ، وكيف ضرب بالكرباج ولد قاتل شديد البأس حتى تضى عليه . ولكن هذه الحوادث كانت أيام الشباب وكان البيه المأمور لايزال شاويشا بعد ، قويا كالثور ، شديد البأس كعنترة ، وكان لا يستفزه الا القتلة والعيال المجدع فتوات زمان .

ـــ تعرف أنا فى يوم كنت فى سجن مصر ، الكلام ده كان قبل الحرب ، سنة ٣٥ يمكن ، وكان البيه المأمور انجليزى ، وجه السجن واد فتوة ضرب واحد بالروسية قتله . كان واد زى الحديد ، كانت بزازه طالعة من صدره زى بنت ١٤ كان يمشى فى السجن زى ما يكون فيل ماشى .. وكان فى السجن واد عسكرى زى الحيطة كان كل السجن بيخاف منه . لكن الواد الفتوة ده خلاه مسخة فى السجن . ضربه بضهر ايده على صدره خلاه طرش الدم .. تعرف عملت ايه ؟ .

وكان المأمور يسكت عند هذا الحد من القصة .. ثم يزوم كأنه ذئب ، ويهز راسه هزات متتابعة رتيبة ويقول فى صوت خفيض :

ـــ الغرض .. أيام ..

كان المأمور مفتونا بقوته ، شديد الاعجاب ببنيانه المتين . والحق أنه كان رجلا من طراز غريب . كانت عظام ذراعه عريضة كأنها جريدة نخل .. وصدره اعرض من المكتب الذى يجلس عليه ، وشاربه مفتول بقوة كأنه جناح صقر وسمانة رجله منفوخة كأنها كرة قدم . وصوته يجلجل كأنه زئير أسد ٠ وكان اذا سأل أحدا من معاونيه لايتوقع جوابا ، كان يسأل ويجيب فى الوقت نفسه ، وكانت أسئلته أوامر ، وأجوبته أوامر ، واشاراته وايماءاته

كلها قوانين ومراسيم . وكان المعلم غزال اذا جلس معه لا يعلق ولا يجيب ، كان يكتفى بالابتسام ويهز راسه بين الحين والحين . .

والحق أن المعلم غزال أحب البيه المأمور حبا لا مزيد عليه . نحن مخطئون لاننا نحكم على الناس من الظاهر ، ولو أننا تمهلنا فى اصدار الاحكام على الناس وغصنا فى أعماقهم لتبين لنا العكس . وهاهو البيه المأمور خير شاهد على صدق نظرية المعلم غزال . لقد كرهه فى البداية ، وصدق مايقال عنه فى الزنازين ، وآمن بكلام المساجين بلا روية ، وانقاد فى الطريق الخاطىء بلا وعى. هؤلاء المساجين قطعا غشاشين . ولو لم يكونوا كذلك لما كانوا هنا فى السجن . . والبيه المأمور معذور عندما يقسو . الناس هنا يستحقون القسوة بعضهم مجرم حتى النخاع ، وحتى الطيبين منهم يتحولون داخل السجن الى ذئاب . ولولا عصا المأمور وقسوته لانقلب الامر هنا الى فوضى ، ولاصبح السجن غابة من الذئاب والفهود .

فى الشهور التى شهدت الصداقة المتينة بين المأمور والمعلم غزال ، تحول المعلم غزال شيئا فشيئا ، فأصبح لا يخفى اشمئزازه من تصرفات المساجين ، بل واصبح يدافع أحيانا عن تصرفات المأمور .
وهمس المساجين بحقيقة العلاقة بين البيه المأمور والمعلم غزال ، وانتقل الهمس من زنزانة الى اخرى ومن عنبر الى آخر ، وبدات الجفوة بين المساجين والمعلم غزال تتسع ، ولكن المعلم غزال لم ينتبه الى هذا التغيير على الاطلاق . فلم يكن لديه الوقت للتفكير فى هذا الامر . النهار بطوله عند المأمور ، وعندما يعود من المكتب يكون المساجين داخل الزنازين . . وخلال تلك الايام عاد المعلم غزال الى حياته الاولى ، أكل مرة ملوخية بالارانب مع البيه المأمور . وسمح له بطبق طرشى بلدى من سيدنا الحسين كان المعلم غزال يتمناه .

وذات مغربية والمعلم غزال يتأهب للخروج من مكتب المأمور الى الزنزانة قال المأمور وهو ينفخ صدره ويشفط كمية كبيرة من الهواء :
ـــ المساجين بيسالوا ع الخوخ يا معلم غزال .
وقال المعلم غزال :
ـــ انا تحت أمرك يا سعادة البيه . .
وقال المأمور وهو يهز عصاه :

ـ الف شكر يامعلم ، عندك زيارة باكر انشاء الله ، ابعت الخوخ على هـذا العنوان .

جلس المعلم غزال فى الزنزانة طول الليل يتفرس العنوان المكتوب علـى الورقة التى دسها المأمور فى يده لحظة خروجه من المكتب « ١٠ شارع كمـال صدقى بالدقى » ولم ينم المعلم غزال حتى أشرق الصباح . وكان اسمه فى مقدمة كشف الزيارة ، ووقف من خلف الاسلاك يتحدث مع زائريه باضطراب ، ثم دس لهم الورقة من خلال الثقوب وقال وكأنه يقرأ من كشف مكتوب :

ــ عشر صناديق خوخ ، وديكين رومى وصفيحة سمن بلـدى معتبرة وخروف سمين وكام جوز فراخ فيومى .

وعندما انتهت الزيارة عاد الى زنزانته واغلق على نفسه البـاب ونام ، وعشرة ايام طويلة مضت بعد ذلك وهو يعانى من الاضطراب ، النوم اصـبح أعز عليه من الافراج . واصبح قليل الاكل شديد الانطواء ، حتى حارس الليل الشاويش شاهين لم يعد يجد متعة فى الحديث اليه من خلال ثقب الباب . والبيه المأمور لم يعد يستدعيه ولم يعد يسأل فيه ، وطافت الظنون به وعذبتـه اى عـذاب !

لابد أن أهله تهاونوا فى ارسال الهدية ، لابد أنهم ظنوا الامر كله مزاحـا ، أو ربما ضاعت منهم الورقة التى تحمل العنوان . ولكن نفس المعلم غـزال أصابها الاطمئنان ذات صباح ، كان فى حوش السجن يدور مع السـجناء فى الطابور ، وكان البيه المأمور يقف كالفهد على باب المكتب ، عصـاه فى يده ، ونظارته السوداء على عينيه . وعندما لمح المعلم غزال لوح له بالعصا فتقـدم المعلم غزال نحوه فى اضطراب . وعندما اقترب منه قال المأمور فى اقتضاب :

ــ متشكرين . .

ولم يزد حرفا ، وعاد المعلم غزال الى الطابور ، ولكنه عـاد منشرح الصدر قرير العين فقد وصلت الهدية بحمد الله الى بيت المأمور .

ولكن هذه المسألة لم تمر ببساطة ، ففى السجن كل شىء ينكشف بعد حين هدية المعلم غزال اصبحت حديث السجن كله . حتى السجانة اشتركوا مـع المساجين فى الهمس والتأليف . وانتقل الهمس الى الضباط ، وانتقل من الضباط الى المأمور . واصبح السجانة أكثر ضراوة واشد قسوة على المعلـم غزال ، واذا كان المعلم غزال يدفع رشاوى فليس أحق بها من السجانة الفقراء . . .

واحتمل المعلم غزال الاذى واحتمل الاهمال . فهو على استعداد للمــوت ولا يخسر البيه المأمور .

ولكن سلوك المأمور بعد ذلك كان غريبا وامره كان عجيبــا .. ازدادت الجفوة بينه وبين المعلم غزال .. حتى حمايته لم يعد يبسطها عليه ، ذات صباح كبس المأمور على الزنازين فى حملة تفتيش ، وعندما فتح السجان زنزانة المعلم غزال وقف المعلم « تمام » وكبست العساكر على الزنزانة وفتشوها ، وعثروا على ممنوعات كثيرة ، امواس حلاقة ، وابور سبرتو ، زجاجة جاز ، وامتدت ايدى العساكر تداعب قفا المعلم غزال ، كل ذلك جرى والبيــــه المأمور واقف كالصقر على باب الزنزانة يباشر العملية بهمة ويتفرج وكأنه لا علاقة له بالمعلم غزال ، وعندما انتهى التفتيش والضرب شدوه من قفاه على التأديب ، وغاب هناك ثلاثة أسابيع .
وخلال الاسابيع الثلاثة لم يسأل عنه احد ، لم يرسل له مسجون سيجارة ولم تصله حتة حلاوة ، ولا كوباية شاى . وجلس يفكر فى هذا الانقلاب الــذى حدث له فى السجن . فى البداية كانت زنزانته دائما عامرة بالمساجين ، يزورونه فى الصباح وفى الظهيرة . وكان بعضهم يقوم عنه بالعمل ، يغسل له الزنزانة ، ويسخن له الطعام ، ويعد له الشاى ، وكانوا يجلسون فى حلقة حوله يغنون له ويرقصون . ومرض مرة فسرقوا له الدواء من مستشفى السجن ، وناموا الى جواره مخالفين الاوامر حتى لا يبقى وحيدا فى الليل ؟ ما الذى غير السجناءوجعل قلوبهم تقسو عليه ؟

صحيح انه لاحظ منذ بدأت علاقته تتوطد بالمأمور نفورا من جانب السجناء ولكن هذا النفور لم يكن حادا مكشوفا ولكنه استطاع ان يحسه على اية حال . كانوا اذا جلس معهم لا يتكلمون الا بقدر ولا يعلقون على الاشياء الا باتزان ، وتحولت ضحكاتهم معه الى شىء أجوف بلا رنين ، وحتى السلام يلقونه عليــه بصفة رسمية خاليا من الود والصفاء . ومع ذلك لم يعر الامر اهتماما فى البداية وعندما تطورت الامور بعد ذلك الى عداء حقيقى لم يهتم على الاطلاق ، فهــــو على اية حال ليس من صنف هؤلاء الناس . فهم مجرمون اعتادوا حياة الاجرام وهم فى السجن ربما يتمتعون بحياة اطيب من التى كانوا يحيونها خارج الاسوار وهو اذا صادق المأمور فليس فى الامر ما يحرج . فقد كان له فى الخارج اصدقاء كثيرون من هذا الطراز الممتاز . والسجن بالنسبة له ليس مستقرا كما هــــو

بالنسبة للاخرين . ولكنه جسر كتب عليه أن يعبره بسبب جريمة لم تكن على انبال ، فقد كانت خناقة تقوم عشرات مثلها كل يوم ، ولكنها تطورت الى تماسك بالايدى وضرب بالاقلام . وهو عندما هوى بكف يده على وجه صبى القهوة بيومى لم يكن يخطر على باله ان الامر سيتطور الى هذا المدى البعيد ، فقد هوى بيومى ميتا . ولا حول ولا قوة الا بالله ، مصيبة وقعت على راسه بسبب عيون الناس التى لا ترحم ، وهو من اجل ذلك فى السجن وان كان الامر كله لن يزيد على ثلاث سنوات .

على اية حال لقد مضت الاسابيع الثلاثة بطيئة مريرة ثم عاد الى الزنزانة ورغم أن عودة كل مسجون من التأديب الى الزنزانة تعتبر حدثا داخل السجن الا ان عودته مرت دون احتفال ، فأغلق باب الزنزانة على نفسه وقاطع الجميع المساجين والحراس .. ويوما بعد يوم اعتاد حياته الجديدة ، ووجد متعه فى السجن الجديد الذى شيده داخل السجن . واصبح يطبق اللوائح على نفسه بدقة ولا دقة السجان ، فلا امواس حلاقة ، ولا وابور سبرتو ولا زجاجة جاز . وحتى السجاير اقلع عن تدخينها والشاى كف عن شربه وراح يجتر ايامه فى السجن عازفا عن كل شىء حتى عن طابور الصباح .. ثم قرر ان يطلق لحيته وأصبح يقضى الليل قائما يصلى ويذكر ربه بصوت عال أقلق راحة المساجين فى الليل . وعندما ترامت الانباء الى البيه المأمور عما اصاب المعلم غزال استدعاه ذا تصباح . وعندما وصلته الدعوة لم يفرح بها كعهده من قبل . خرج مع العسكرى يتمتم باسم الله حتى وصل الى هناك .. ودهش المأمور لمنظره واستفسر عن سر اطلاق اللحية والهداية التى حلت عليه فجأة وبلا سابق انذار . وقال المعلم غزال وهو يخفض بصره الى الارض :

— مفيش حاجة يا سعادة البيه .

— مفيش حاجة ازاى ، انت عامل احتجاج والا ايه ..

— ولا احتجاج ولا حاجة يا سعادة البيه .

— امال اشمعنى الدروشة ما حطتش عليك الا من يوم مارحت التأديب ؟ كنت فاهم ايه انت ؟ أنك اشتريت السجن يعنى ؛ والا عشان ..

ولم يتم المأمور العبارة ؛ انهال بيده السمينة القوية على وجه المعلم غزال فطوح به على الارض . ثم ركله بقدمه ركلة قوية القت به خارج المكتب ؛ ثم

استدعى العسكرى الحلاق وامره بأن يزيل لحية « الشيخ غزال » وان يعيده مرة أخرى الى التأديب حتى يعود عقله الى راسه من جديد .

وقضى شهرا فى زنزانة التأديب يفكر فيما حدث من المأمور ولماذا حدث ؟ لقد كان صديقه فترة طويلة وكان بينهما عمار . ومن اجله خاصم السجن كلــه وقاطع المساجين كلهم ، وارسل اليه فى البيت بما طلبه واكثر . مسلك غريب لم يفهم مغزاه وموقف يحتاج الى عشرة انبياء لكى يتولوا عنه عملية التفسير .

وذات صباح دق عليه باب الزنزانة طارق وامتدت له يد بعلبة سجاير ، ولكنه رفضها برفق . وعندما امتدت فى اليوم التالى يد اخرى ببرطمان مــــربى ردها فى عنف . ثم وقف يصرخ فى الزنزانة كالمجنون .

ــ كلكو شمتانين فيه ، شمتانين فيه ، يامجرمين ياولاد الكلب .

وجذب صراخه العســـاكر فأشبعوه ضربا حتى هدأ ثم انقلب على جنبه ونام . ثم جاء الفرج بعد ذلك ، وجاءه الافراج ، وخرج من باب الســـجن فى حراسة مشددة الى الدنيا الواسعة حيث لا يوجد وحوش مثل هؤلاء المساجين والسجانة ايضا من نفس طينة المساجين ، وحوش فى ملابس رسمية .. ولكن البيه المأمور سيظل صديقه رغم كل شىء . وهذه الليلة ستكون آخر مزاج .. فسيحضر البيه المأمور ، وسيعرف مقام المعلم غزال فى دنيا الحرية ، ربما اخطأ فهم هذه الحقيقة خلف الأسوار . وستكون وليمة ولا عزومة فى بلاط الرشيد، وسيحضر كل الخلان ليروا البيه المأمور بنفسه جالسا مع المعلم غزال وقـــد يحاول المأمور الاعتذار عما بدر منه .

ولكن المعلم غزال لن يقبل أى اعتذار ولن يعطيه الفرصة لذلك فما فــات قد مات . والمهم اللحظة التى نحن فيها . وهو اذا كان مأمورا الا ان المعلم غزال رجل الفى وله شنة ورنة وله سلطان فى الجيزة يفوق سلطان البيه المأمور فى الليمان . والاضواء باهرة والدنيا حر والمعازيم تتحرك اشباحها على الجدران ولكن هناك صمت مريع ، لا أحد يتكلم معه ، لا أحد يتحدث اليه ، كأنما المعازيم مساجين تعقبوه من الليمان الى الحياة .

وصرخ المعلم غزال صرخة مدوية ثم سقط على الارض مغشيا عليه وقد اطبق الظلام على كل شىء . لم يكن المسكين يدرك أنه غادر السجن منذ شهور طويلة الى مستشفى المجاذيب .



العبقرى

ابدا ... ليس فهمى عبيد كالاخرين !
فالحياة ليست وظيفة ومواعيد مضبوطة وزوجـــة تنام فى حضنها طول الليل وفلوس معلومة والاولاد تزهق الشيطان وتقصر العمر ! الحياة مخ وتفكير واختــراع وحرب لاتنتهى وقفزفوق كل العوائق واجتياز لكل الحواجز والسباحة بعزم من حديد مع التيار احيانا وضد التيـار احيانا .. ولكى تبلغ الغاية لابد من الصبر ومضغ الشوك اذا اقتضى الامر ، المهم ان يصنع المخلوق شيئا عظيمــا والا فانه لم يخلق على الاطلاق .

ولذلك عندما خرج فهمى عبيد من مدرسة الصنايع قبل ان يحصـل منهـا على شهادة ، وقف فى دكان والده الحاج عبيد وفى يده مروحة من ريش الفراخ يهش بها الذباب من على وجه الزبون ثم يمد يده بعد الحلاقة ويقبض بهـا فى صمت على القرش صاغ اذا كان الزبون ثريا ، وعلى قرش تعريفة اذا كـان الزبون من الحتة ، وعلى الهواء لذا كان الزبون خاوى الوفاض مثل رأس الحاج عبيد أبوه !

واذا كان ثمة مثل حى للتناقض فى الوجود فليس ادل على هـذا المثل من الحاج عبيد وابنه . فمنذ أربعين عاما والحاج عبيد فى هذا الدكان ، شـــاخت جدرانه وطقطق بياضه ، انخلع بلاطه ، وتقوس بابه فلم يعد ينغلق ولا ينفتـح الا بعد مصارعة عنيفة تستغرق ساعات كل صباح وكل مساء .. ومـع ذلك

فالحاج عبيد مبسوط فرحان . وهو يحمد ربه على نعمائه ، ويتمنى لو استمر الحال على هذا المنوال الى ان يلقى ربه فى هدوء . . ولكن الولد فهمى لايعشق هذا الطراز من الحياة . وابوه الحاج عبيد ميت من زمان ، وهذا الدكان قبره . وهؤلاء الزبائن كأنهم زوار هذا القبر المهجور ، وعام بعد عام يتناقص عـــددهم باستمرار ، وسيأتى يوم قريب لا يجد فيه الحاج عبيد ما ياكله وسيموت مكانه وقد يتحول الى طعام للقطط والكلاب .

ولكن فهمى عبيد لن يترك اباه يتردى فى تلك النهاية . سيصارع من اجـــل أن يطفو على السطح ، وسيكسب آلاف الجنيهات . فهو يحس احساســـــا عميقا نابعا من اعماق نفسه انه خلق لكى يكون فوق القمة ، وانه ولد ومعه كل ادوات النجاح والوصول الى المكان الذى يريد . وذات صباح اختفى فهمى من الدكان ، طاف فى شوارع السويس يبحث عن عمل جديد . ولكن البحث قـــاده فى النهاية الى دكان حلاق . . صحيح انظف من دكان ابيه وصحيح أن الحى هنا افخر واغنى والشارع هنا انظف والمع والزباين هنا اغنى واوجه وعطر يفـــوح من داخل المحل ، ومراوح فى السقف ومرايات على الحيطان واســـطوات فى ملابس دكاترة وزجاجات اشكال على الوان كانه صيدلية ، وهو لا يهش عـــلى الناس هنا بمروحة من ريش الفراخ ولكن مروحته هنا من ريش النعام واصابعه تمتد للزبون لتقبض احيانا على نص افرنك واحيانا على شلن كامل ولـــــكن المصيبة أن ما يحصل عليه هنا اقل مما كان يحصل عليه عند ابيه . . لقد كان فى دكان ابيه هو الاوحد وكل الاموال السائلة هناك تصب فى جيبه ، ولكن هنـــا الامر يختلف جميع الذين يعملون هنا يشتركون فى البقشيش الاسطوات يدخلون القسمة براجل وانصاف الاسطوات يدخلون القسمة بنصف راجل والصـــبيان يدخلون القسمة بربع راجل ، حصيلته آخر النهار نص فـــرنك لا يزيد وهجر الدكان وعاد لدكانة ابيه وفى المساء كان يجلس وحيدا فى ميناء السويس ينظر فى اسى شديد الى السفن المارة من بعيد ، ويحلم بسفينة من هذه السفن الكبيرة تضربها الرياح فتجنح الى الساحل ، وتأخذه الى الشاطىء الاخـــر البعيد . . ولكن سفينة واحدة لم تقترب من الشاطىء ، وجنية واحدة لم تظهر من اعمـــاق الماء لتعشقه وتخطفه لتحقق له ما يريد ، سنوات طويلة مضت وفهمى عبيـــد أصبح فى العشرين والأسوار التى منحوله تزداد ارتفاعا . ولكنه رغمذلككان مطمئنا الى انه سيحطم هذه الاسوار او يتسلقها يوما ما . . وكان فهمى على

حق ، انفجرت الحرب العالمية فجأة ، وتدفق على السويس خلق كثيرون واجناس شتى ، واصبح فى كل ركن كامب يضيق بالجنود ، ومخزن يكتظ بكل شيء ، والفلوس تتلاطم فى ايدى الناس .. كما تتلاطم امواج البحر عند رصيف ميناء بور توفيق ، واشتغل فهمي بوابا على كامب ، فترة ليست طويلة ولكنها اتاحت له مبلغا من المال بدا حياته كمقاول معتمد للجيش .. والجيش الانجليزى حمار ليس فيه ربط ولا زبط ، الشاويش الانجليزى يتسلم مائة بيضة ويوقع على الف ويأخذ الف رغيف ويمضى على عشرة آلاف ، والفلوس تجرى الان بين يديه كما تجرى سيارات الانجليز على طريق المعاهدة . نظرية فهمي اذن صحيحة والحياة مخ وتفكير واختراع ، وكل شيء ممكن وكل شيء يجوز ، ولكن اصدقاء الصبا الذين نجحوا فى مدرسة الصنايع لايزالون يجلسون على المقهى يلعبون الطاولة كل مساء ، وابوه لا يزال فى الدكان ، وصبيان الحلاق الكبير لايزالون يهشون الذباب بمراوح من ريش النعام .. ومضى فهمي يمتص حياته حتى النخاع . والفلوس التى لا تنزه صاحبها ليس لها لزوم .. والحياة مخ وتفكير ولكنها ايضا متعة وانبساط ..وليس امتع فى الحياة من كازينو بديعة .والبنات هناك ماركات كسيارات الركوب ، وكل واحدة لها شكل وكل واحدة لها لون . والدنيا ايضا حظوظ ، وحظ فهمي مع قدرية ، وكل واحد برزقه ورزق قدرية وفير .. وقدرية حلوة وصغيرة وفمها دائما يضحك ، ودمها خفيف كأنها سمكة بلطية . ولو كان فهمي من النوع الذى يتزوج لكانت قدرية زوجته ، ولكنه لا يتزوج ولا يرتبط بأحد . ولكى تنجح لابد أن تكون وحدك ، لكى ترفرف كالعصفور فلا تربط عنقك بحجر ثقيل يمنعك عن الطيران . ولكن الشيطان شاطر ، وقدرية حملت ، وداخت وداخ معها فهمي لتسقط حملها دون جدوى ، كأنها حملت فى حجر يأبى ان يتدحرج من بطنها ، كأنه قرد يقبض على مصارينها بأظافر من حديد . كارثة صحيح . ولكن الفلوس كفيلة بحل كل الكوارث ، المولود بنت الخالق الناطق شبه أبوها وفى نعومة امها .. وفهمي مهما كان الامر ليس نذلا ، تزوج قدرية بورقة ، وكتب البنت الصغيرة باسمه ، وسماها سعاد ، فقد جاءت وهو فى قمة سعده . ثم طلق الأم ومنحها مبلغا من المال وبشرط أن تحتفظ بسعاد ، وافترقا رسميا وان ظلت الصلة قائمة بينهما كالمعتاد وفجأة .. هوى نبأ كالصاعقة سحق قلب فهمي وهد قواه .. فقد توقفت الحرب نجأة ، ولم يعد هناك مزيد من الفلوس .. المعسكرات اقفرت والمخازن جفت ، والدنيا تشقلبت حالها كأن القيامة على الابواب ، وعاد فهمي الى شوارع

السويس يتسكع أول النهار ، ويقضى آخره عند دكان الحاج عبيد ، ولكنــه لم يعد يمسك بالمروحة الساعات الطويلة يقضيها جالسا على كرسى قش أمام الدكان ، يحملق فى الشارع فى ذهول ، ويمد يده آخر الليل يتناول من أبيه ثمن الدخان . والرجل العجوز لم يسأله أين كان ولماذا جاء ؟ كان يسمع أن ابنــه فى رغد من العيش وكان يفرح لهذا كثيرا ، ثم رآه فجأة ذات صباح على بــاب الدكان . وأدرك أن ابنه صادفه سوء الحظ ، وأن الحياة هذا شأنها منذ الازل تصفو حينا ، وتتجهم حينا ،والعاقل من لايغره الثراء ولا يفزعه الفقر .

وهاهى السنوات تمضى وفهمى مكانه على باب الدكان ، ليس معه من أيام العز الا بطاقة قيمة .. فهمى عبيد مقاول ومتعهد .. أين هى العهدة وأين هى المقاولة ؟ لم يعد هناك شىء الا الدكان والقروش القليلة التى يدسها أبوه فى يده كل مساء .. ولكن هاهى الايام تبتسم من جديد ، الحكومة الغت المعاهدة ... وفى السويس طلبة يطلقون النار على الانجليز ، وعمال يؤلفون كتائب ، وصياع يحملون السلاح ، وغشاشون انتهزوا فرصة المعركة وارتدوا ملابس الميدان وليس أعظم من فهمى يعرف معسكرات الانجليز ومخابئهم فى القناة ، ليس أعظم من فهمى مستشارا لكتيبة نصفها صياع ونصفها نصابين . وفى تلك الايــــام التقيت بفهمى فى السويس ، فى مقر كتيبة الفداء ، وكان فهمى وقتئذ مستشارا يضع الخطط التى لم تنفذ قط ، ويتولى الحرب التى لم تبدأ على الاطلاق .

وذات مساء كان فهمى يجلس مطرقا فى مقر الكتيبة ، حزينا صامتا مهموما ينكش أسنانه المسوسة بعود كبريت التقطه من الارض . وعندما ســألته عن سر همومه قال فى هدوء شديد :

ــ أبدا أنا بس بفكر فى المستقبل ..

ــ الكتيبة مش عندها سلاح وذخيرة ؟

ــ وأنا مالى ومال الكتيبة ماتندعق ، أنا قصدى ....

ــ قصــدك ايه ؟

ــ قصدى مستقبلى ..

ــ المستقبل بتاع ربنا يا فهمى ..

ــ أى نعم .. لكن برضه ....

وكان الدم قد سال من أسنانه فألقى بعود الكبريت غاضبا ، وقال وهــو يمسح الدم بأصابعه :

ــ افرض انا قدرت اطلع الانجليز من القناة ، الحكومة تدينى مليون جنيه ؟
ــ انت هتطلعهم لوحدك ؟
ــ بقول يعنى .
ــ ياسيدى طلعهم وهمه يدوك عشرة مليون ..
ــ تفتكر ...
ــ طبعــا .

وصمت فهمى قليلا ، وبدا كانه يفكر بعمق فى موضوع يقلقه ، ثم استأذن وانصرف وعاد بعد أيام ومعه مشروع كامل أطلعنى عليه .

ــ مفيش حل غير كده ، خلينى بس اقابل رئيس الوزراء ، وانا اكلمه ، همه يدونى العشرة مليون جنيه وماحدش له دعوة . انا هاشترى قنبلــة ذرية بسبعة مليون جنيه أرميها ع الانجليز فى القناة وانا الهف الباقى .

وعندما افهمته ان مشروعه خرافى ولا يمكن تحقيقه ، قال فى ضجر :

ــ انت مالك ، خلينى اقابل رئيس الوزارة ومالكش دعوة .

كان فهمى يعتقد اننى صاحب نفوذ ، وان نفوذى يمتد الى حد اســــتدعاء رئيس الوزراء فى اى وقت يشاء واى مكان يريد ، ولذلك بدا له فى الايام التى تلت الحديث حول المشروع اننى اراوغه واننى حاقد عليه وخطر له أحيانا اننى اضغط عليه كى أساومه . وذات مساء كنت فى مقر الكتيبة وحدى حين دخــل فهمى ومعه كراس من النوع الذى يستعمله تلاميذ المدارس وفى هذا الكراس كــل تفاصيل المشروع من أول السفر لامريكا ، والاتصال بوزير الحــربية الامريكية وشراء القنبلة الذرية ، حتى الفندق الذى سينزل فيه لم ينس فهمى ذكره .

وعندما سألته متهكما :

ــ واشمعنى فندق والدرف استوريا .

رد فهمى مرتبكا ..

ــ بلاش .. اى فندق على كيفك ..

وبعد أن انتهى من شرح مشروعه بالتفصيل قال وهو يضغط على فخــذه بأصابعه :

ــ وعلى العموم آهى لقمة ناكلها سوا ..

ــ يعنى ايه يا فهمى مش فاهم ؟ .

ـ ولا حاجة .. ربنا هيسهلنا بثلاثة مليون .. انت تاخد نص مليون وانا الباقى ·· بس انت تخلينى اقابل رئيس الوزارة ·

ورغم هذا العرض السخى من فهمى الا اننى لم اتحرك خطوة واحدة فى طريق اللقاء المنتظر بين فهمى ورئيس الوزارة · واذ انتابه اليأس منى حمل فهمى كراسته وراح يطوف بها على دور الصحف عارضا مشروعه على المسئولين فيها متوهما انه سيحدث هزة ليس لها مثيل فى التاريخ .

واصيب فهمى بخيبة أمل شديدة لاعراض دور الصحف عن المشروع ... وعاد الى السويس والحزن يملأ قلبه واستقال من وظيفته الشرفية كمستشار لكتيبة الفداء .. وعاد الى دكانه يجلس امامه طول النهار لاعنا هذا البلد الغبي الذى لا يريد أن يستقل ..

وخلال الايام التى أعقبت استقالته من الكتيبة ازدادت ثورته على كل شىء وعندما التقينا صدفة فى الطريق ، قال وهو يشيح بيده فى وجهى :
ـ وحياة ربنا لو الانجليز دخلت السويس لاخدهم بالحضن .. عشان دى بلد تستاهل الحرق . وعندما دعوته للعودة الى مكسانه فى الكتيبة قال وهو ينتفض من شدة الغيظ :
ـ يا عم بلا كتيبة بلا زفت .. هى دى كتايب دى .. دا نصب .. دول عالم كلهم حرامية .
ـ طيب انت مش كنت مستشار عندهم .
ـ يا عم مستشار ايه وبتاع ايه .. ع العموم أنا استفدت م التجربة ... أنا هاعمل كتاب أكشف فيه حقيقة الكتايب دى للراى العام .
وصمت فهمى قليلا ثم قال :
ـ بس أنت بقى تشوف لى ناشر يطبع لى الكتاب ده وعلى فكرة .. هم بيدفعوا كام ..
ـ ميت جنيه .

وبدت الدهشة على وجه فهمى وقال وهو ينظر نحوى نظرات متسائلة :
ـ ميت جنيه .. ميت جنيه أيه .. دنا فاهم بيدفعوا ميت الف .. خمسين الف .

ـ حيلك حيلك ·· الكتاب كله مايبيعش الف نسخة يا فهمى ·

— مين قال لك كده . . كتاب زى ده ما يبيعش اقل من مليون نسخة . . . انا هاقول فيه اسرار خطيرة جدا . . بس انت شوف لى ناشر وانا هتكلم معاه .

ومرت أيام طويلة بعد ذلك ولم تجمعنى الصدفة بفهمى . . وكدت انسى أمره فى غمار الاحداث التى وقعت بعد ذلك . . خيم الظلام على منطقة القناة ذات مساء والانباء تتناثر هنا وهناك أن حريقا رهيبا مروعا اكل القاهرة وان الرصاص يئز فى الفضاء والجثث بالاكوام فى الشوارع واللصوص يخطفون البضائع من المحلات ورجال البوليس يخطفون الرجال من البيوت وان الامر عاد الى الانجليز من جديد . وفى الصباح تحققت الاشاعات . . كبس البوليس فى السويس على البيوت وخطف الرجال والسلاح . . ولفظت المعركة انفاسها واختفى من الميدان الفدائيون واللصوص معا ، واضطررت الى السفر خلسة فى الليل من السويس الى القاهرة تاركا ورائى اشلاء معركة كانت حية نابضة حتى الامس .

وران على مصر فترة من الظلام أسود من قرن الغروب . وذات صباح انقلبت مصر راسا على عقب ، تحرك الجيش وقامت الثورة وعادت الالسنة تلوك معركة القناة من جديد ، وعادت الاقلام تخوض فى بحرها ، وذات مساء جاءنى فهمى عبيد الى الجريدة وصافحنى بحرارة وجلس صامتا يحتسى فنجان الشاى ويلقى نظرات خاطفة على صفحات كراس قديم يحمله .. وعندما سألته عن الاحوال أجابنى فى سرور بأن الاحوال عال وكل شىء على ما يرام وهمس فى اذنى بأن لديه مشروعا سيحدث هزة فى العالم ليس لها مثيل ، وقلت له مازحا :

— اياك مشروع القنبلة الذرية . .

— لا أبدا . . انا كاتب مذكرات هتعمل هزة . . أسرار معركة القناة . .

وأطلعنى على الكراسة التى معه . كانت الكراسة تحوى فصولا شيقة بلا جدال عن أسرار كتيبة الفداء ، كيف تكونت ، كيف حاربت ، كيف انتصرت ، التكتيك الذى عليه فى المعارك الطاحنة . كيف عاملت الاسرى الانجليز الذين وقعوا فى قبضتها ، كيف استشهد ابطالها فردا بعد الاخر ، وكيف انفتحت لهم أوسع ابواب التاريخ . وقائع مذهلة لم يحدث شىء منها على الاطلاق . . وكان يمكن لفهمى ان يطلع أحدا غيرى عليها . فربما اقتنع .

نظرت الى فهمى نظرة طويلة وقلت وانا الوح بالكراسة فى يدى :

ــ كلام ايه الفارغ ده يا فهمى .. بقى كتيبة الفداء اللى كانوا كلهم حرامية عاملهم ابطال .. ومعارك ايه ياراجل انت .. بقى بذمتك حصلت معارك .

ــ ما حصلش .. لكن الجو عاوز كده .. وع العموم دى هتعمل هزة .. المهم انشرها مسلسلة فى الجريدة .. بس بشرط تنشروا صورتى وتكتبوا تحتها « فهمى عبيد مستشار الكتيبة » وتدفعوا لنا الف جنيه .

وقلت لفهمى انه لا يمكن نشر مثل هذه المذكرات الكاذبة ، لان معركة القناة حدثت منذ أشهر قليلة ماضية ، وجميع القراء عاصروها وعرفوا احداثها ولا يمكن نشر مثل هذه المذكرات الا فى القرون القادمة فقد تجد من يصدقها ..

وبان القرف على وجه فهمى وخطف الكراسة من يدى وقال فى صوت خفيض :

ــ لا منك ولا كفاية شرك .. وع العموم بكره نشوف .. انا هانشرها ..

وقلت لفهمى وأنا أهدىء من ثورته :

ــ انت اشتغلت والا لسه ..

ــ لا .. ما باشتغلش ..

ــ طب ما تشتغل ..

ــ ايدى على كتفك ..

ــ تعالى وانا اشغلك بكره ..

ــ فين ؟

ــ فى الحكومة .. انا اعرف وزير الشئون الاجتماعية وهقوله انك انت كنت من عمال القناة ويشغلوك على طول ..

ــ بكام .

ــ عشرين جنيه أول تعيين .

ــ عشرين جنيه .. واعمل بيهم ايه دول .. اشرب بيهم سجاير ..

ــ أحسن من مفيش ..

ــ لا .. مفيش احسن .. وع العموم انا كنت بكسب العشرين جنيه دول فى دقيقة ..

ــ امتى الكلام ده ؟

ــ ايام ما كنت متعهد فى الجيش الانجليزى .
ــ طب دى ايام كان لها ظروف وراحت يا فهمى ..
ــ مفيش حاجة اسمها راحت .. الجايات اكثر من الريحات .. سلام عليكم .

وانصرف فهمى غاضبا ، ولم اره بعد ذلك .. قاطعنى تماما ، وكنت انا اتحسس أخباره كلما سافرت الى السويس ، كانت أخباره دائما لا تسر ... ومرت خمس سنوات طويلة ثم جاء فهمى لكنه لم يكن فهمى الذى اعرفه ازداد نحولا وشحوبا وتساقط شعر رأسه وانحنى ظهره وبدا بلحيته النابتة وقميصه المتسخ كأنه عائد للتو من رحلة فى الصحراء ، ورحبت به كثيرا ، وجلسنا نتسامر ، وكان يشاركنى فى الحديث بنكت بايخه ، وضحكات فاترة ، وفجأة اعتدل فى جلسته وقال فى اهتمام شديد :

ــ انا جيلك فى مشروع رهيبجدا .. البلد بناعتنا دى مش فاهمة أى حاجة عمالة تعمل مصانع .. وتصلح فى ارض ، ودى حاجات مانجبش فلوس ... انا عندى مشروع يكسب دهب .. نشترى كام ناقلة بترول .. تعرف الناقلة بتاخد كام فى الرحلة الواحدة .. ميت الف جنيه عملة صعبة والقافلة كلها بمليون جنيه .. يعنى عشر رحلات يجيبوا حقها .. والباقى يبقى مكسب .. وانا بصراحة عاوز اعمل المشروع ده .. نعمل اسهم .. والسهم بألف جنيه .. ونشترى ناقلة وانا ابقى المدير بتاعها .. والسهم ده هيكسب الف جنيه فى بحر سنة وانا آخد سهم وآخد مرتب .. اعمل ميتين وخمسين جنيه لنفسى فى الشهر .. لما تكسب قوى .. نجيب واحدة تانية .. وكمان واحدة .. وكمان واحدة ..

ولم اشأ أن أصدم فهمى فى أحلامه فأثنيت على المشروع ثناء عظيما ، وأبديت اعجابى الشديد بعقليته الاقتصادية الرائعة وتمنيت له النجاح وغادرنى فهمى تلك الليلة مسرورا وعاد مرة أخرى بعد شهر ولكن بمشروع جديد .

ــ تعرف السمك بتاع البحر الاحمر ..
ــ ماله ..
ــ بيتباع فى بيروت الكيلو بجنيه .. يعنى احنا نشترى لنش تجارى فيه

ثلاجة ونصطاد سمك من البحر الاحمر ونسافر ونبيعه فى بيروت تعرف نبيـــع بكام فى الرحلة الواحدة ٠٠ بعشر تلاف جنيه واحنا مش هنكلف كتير ٠٠ هنجيب كام واد صيادم السويس نديهم على قفاهم ٠٠ وكل واحد ياخذ له جنيه فى اليوم وهم اللى يصطادواويسوقوا اللنش ٠٠واحنا نقعد زى البهوات ٠٠ نسافر بيروت ٠٠ نبيع ونرجع ٠٠

ــ مشروع عظيم خالص . .
ــ يعنى عاجبك . .
ــ قـــــوى . .

وصافحنى فهمى بحرارة وانصرف مبتهجا . . وعاد مرة اخرى بعد أسابيع ولكن بمشروع جديد . .

ــ تعرف المينا بتاع السويس . .
ــ ايــوه . .
ــ فيه كنوز بملايين الجنيهات . . ايام الحرب غرق فى المينا دى ييجى ميت سفينة . . ولـــه غارقانين لحد الوقت . . احنا نعمل شركة لانتشـــال السفن الغارقة . . ومش محتاجين حاجة . . نجيب كام واد غطاس م السويس نديهم على قفاهم ونطلع السفن دى ٠٠ هتلاقى كل حاجة ٠٠ دهب هتـــلاقى ٠٠ فلوس هتلاقى . . حديد هتبيع . . مكاتب راديوهات . . سراير . كل حاجـــة تعرف تكسب كام العملية دى ٠٠ الف جنيه كل يوم يعنى ثلاثين الف جنيـــه فى الشهر ٠٠ ايه رأيك فى المشروع ده ٠٠

ــ عظيم جـــدا . .
ــ اهو المشروع ده . . متوقف عليك انت . .
ــ ازاى بقى . .
ــ نجيب تصريح م الحكومة . .
ــ طيب ان شاء الله ٠٠
ــ صحيح . .
ــ باذن اللـــه .
ــ طب سلام عليكم . .

وصافحنى فهمى مسرورا وانصرف . . ونسيته تماما ونسيت مشروعـــه حتى هبط على ذات مساء فتذكرت ، وجلست معه افكر فى طريقة مناسبـــــة

للاعتذار ولكنه لم يترك لى فرصة للحديث . بادرنى على الفور بمشروع جديد .

ــ اهو ده مشروع بقى .. مفيش زيه ..

ــ مشروع ايه يا فهمى ..

ــ شركة النور للسياحة .

ــ هنعمل شركة سياحة يعنى .

ــ آه .. بس جديدة .. بقى فيه سفن بتيجى م الشرق الاقصى وتبات فى السويس وتقوم الصبح تروح على بورسعيد وبتقعد اتناشر ساعة فى القنال بدل الركاب بتوع المراكب دى ما يزهقوا احنا ناخدهم فى عربيات نفرجهم ع القاهرة والاثار ونبيتهم هنا ونطلعهم على بورسعيد ياخدوا المركب بتاعتهم من هناك .. كل سائح يدفع خمسة جنيه عملة صعبة كل يوم ناخد خمسين سائح فى خمسة بميتين وخمسين جنيه .. يعنى سبعة تلاف وخمسميت جنيه فى الشهر عملة صعبة ومش هنكلف حاجة .. بس عاوزين عشر عربيات مرسيدس ونجيب كام عيل سواق م السويس نديهم على تفاهم وواحد ترجمان نرميله جنيه فى اليوم والا حاجة وكان الله بالسر عليم .. ايه رايك ..

ــ مشروع عظيم قــوى .

ــ صــحيح ..

ــ أيوه صحيح ..

ــ طب شد حيلك بقى معانا .

وصافحنى فهمى مسرورا وانصرف .. وغاب هذه المرة طويلا .. حتى خيل الى انه نفذ فعلا مشروعه واستراح ولكنه عاد بعد ذلك باشهر طويلة وقد ازداد نحوله وازداد سعاله وبدا عجوزا أكبر من عمره بعشر سنوات ، وبدت عيناه مجهدتين كأنه لم ينم منذ فترة طويلة ، وقميصه متآكل الاكمام وحذاؤه مضروب ومبطوح ، وكالح اللون ، وكان معه مشروع جديد .

ــ عارف السرديا .

ــ لا مش عــارف ..

ــ دا نوع م الحيوانات البحرية فى البحر الاحمر .. لذيذ قوى انما الناس الذوات مابيردوش ياكلوه عشان شكله وسخ والبياعين بيقدموه بطريقــــة وسخة انما احنا لو قدمناه بطريقة نضيفة .. نقدر نبيع منه مليون علبة كــل

اسبوع .. ومش محتاجين حاجة .. نجيب كام عيل صياد م السويس نديهم على تفاهم وجاوزين شوية علبكرتون ووادموظف يتصل بالمحلات واللوكاندات الكبيرة وكان الله بالسر عليم .. تعرف فيها مكسب قد ايه .. عشر تلاف جنيه كل شـــهر .

وانا بدات المشروع فعلا ..

وانتزع من لفافة كانت في يده علبة كرتون صغيرة وقال وهو يقدمها لي :

— اهو الصنف اهه .. ابقى دوقه وقوللى رايك و ع العموم انا فت على جروبى ولاباس النهاردة ، وطلب كل واحد عشرين دستة .. وفـكر انت في المشروع ده واحنا هنعمل عمل كبير باذن الله .

وترك فهمي العلبة وانصرف ، كان في العلبة خليط من شرائح لحم لاتستطيع ان تحدد أصلها ، لها رائحة خبيثة كأنها رائحة فار معفن ميت منذ عشرة أيام ، كالحة السواد كأنها جلد فيل مفروم ، والقيت بالعلبة في صفيحة الزبالة ونسيت فهمي ومشروعه . ولكنه سرعان ما عاد وفي هذه المرة كان بالقميص والبنطلون فقط رغم أن البرد في الخارج لا يحتمل ، وجلس امامي مقوستا كأنه عجينـــة التوت بفعل خباز ماهر ، قال وهو شديد الانكسار .

— ما حدش رضي ياخد م العلب .. مفيش حد بيقدر في البلد دى ..

وقلت لفهمي لتهدئته :

— ماهو انت لازم تشوف شغلة ثابتة وبعدين تفكر في المشاريع دى .. انت عارف الناس اللي اشتغلوا ايام التنال بياخدوا كام الوقت .. خمسين جنيــه وستين جنيه .. يعني انت لو كنت طاوعتني واشتغلت وقاطعني فهمي بمنتهى الغضـــب .

— ياراجل بلاش فقر .. الواحد يهج م البلد دى احسن و ع العموم انـــا عندى مشروع تاني .. بس مش هاكشفه دلوقت سلام عليكم .

ومضى فهمي سريعا واختفى هذه المرة ، انقطعت عني اخباره فلم اعـــد اعرف عنه شيئا ، وخيل الى انه نفذ مشروعه وطفش من الســـويس خلسة على ظهر مركب متجولة ، واحيانا كان يطوف بخاطرى انه مات جوعا بعد ان فقد الرجل الوحيد في هذا العالم الذى كان يعطف عليه ، ابوه .. الاسطى عبيد . صاحب محل الحلاقة .. ولكن ظنوني خابت كلها فجاة .. وقد رايت فهمي ذات

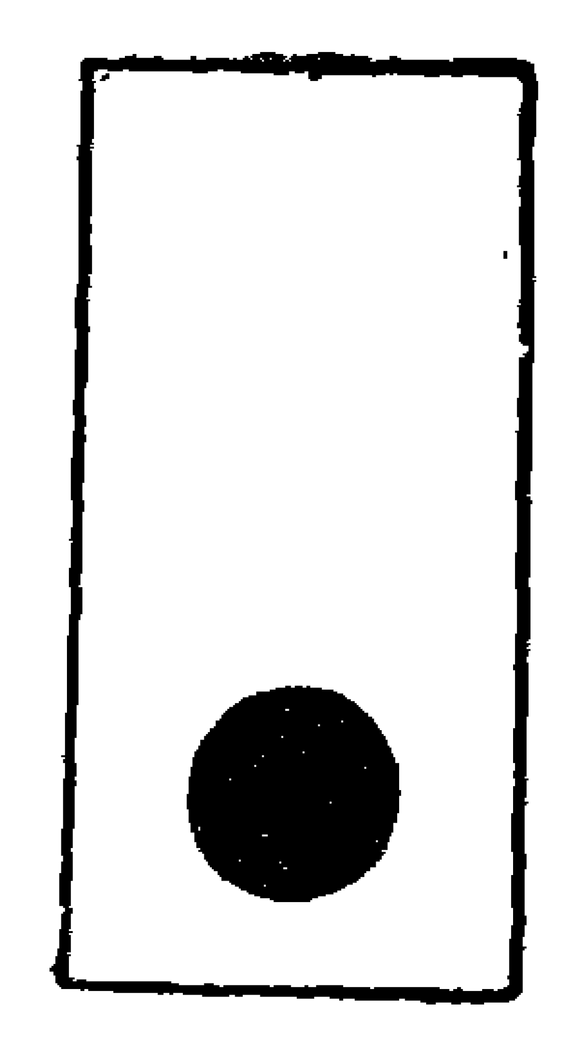
صباح متورد الخدين شديد الاناقة على عينيه نظارة مذهبة يقود عربة فارهة وعندما رآنى ركن عربته برشاقة واقبل نحوى يضمنى اليه بحرارة ، ولكنه رغم التورد والثراء كان يبدو شديد القلق ، حديثه مضطرب وافكار شاردة وانصرف سريعاً وقد اتفق معى على لقاء ، ولكنه لم يعد واستفزنى منه هذا التصرف الغريب فرحت أبحث عن السر الذى نقل فهمى هذا الانتقال المفاجىء السريع .. وسرعان ما اكتشفت السر .. هل تتذكرون قدرية .. البنت الرقاصة التى عاشرها أيام العز ، والتى انجب منها طفلة اسمها سعاد ثم هجرها بعد ذلك وانشغل فى همومه واحلامه .

كانت هى الاخرى تسير مع فهمى فى خط واحد انتهت الحرب ولفظتها الملاهى ولكنها وجدت لنفسها مكانا فى الافراح والليالى الملاح ترقص شبه عارية كل ليلة أمام جمهور من الصبية ، والعجائز وتتلقى بصدرها وهى تتثنى أوراقا صغيرة ملونة من فئة العشرة قروش واحيانا من فئة الربع جنيه ... ولكنها استطاعت من هذه الاوراق الصغيرة ان تجمع ثروة وان تقيم منزلا ... واعتزلت الرقص لتتفرغ لمهنة أخرى اسهل اداء واوفر مالا تحولت الراقصة القديمة الى قوادة واصبحت تشرف على العشرات من راقصات الحرب القدامى .

ونجحت قدرية نجاحا منقطع النظير ولكنها لم تهدأ فى البحث عن زوج وجربت كثيرين وفشلت ثم التقت مصادفة بفهمى فى الطريق ، كانت هى فى عربتها الفارهة وهو فى هيئته الزرية وذقنه النابتة وكراسة مشاريعه ، وعندما دفن نفسه الى جوار قدرية فى السيارة أحس براحة شديدة ربما لاول مرة منذ أعوام طويلة وبات تلك الليلة معها فى فيلتها الانيقة ولم يخرج منها بعد ذلك عاد زوجا لقدرية واصبحت كل مشاريعها تدار باسمه وان كان هو نفسه لا يعرف عنها شيئا ولكنه على أية حال استراح للحياة الجديدة ، واسترحت انا الاخر من فهمى فلم يعد يزورنى اذ يبدو انه لم يعد فى حاجة الى مشورتى او لم يعد لديه مشروعات جديدة .



السماء السوداء



سبعة أعوام طويلة ، والمعلم محفوظ بلا شغلانة ، صحيح انه لايجيد صنعة ولكنه خبير فى الحياة .. والسنوات السبع الماضية قضاها كلها على مقهى الامير بالقلعة يتفرس فى وجوه الناس ويدقق النظر فى ملامحهم وصحيح أيضا أنه قضى فترة فى فجر صباه فى دكان نجار ولكنه لم يفهم من سر الحرفة شيئا .. حادث واحد فقط كان يذكره دواما وهو جالس على المقهى كل مساء جعله سعيدا رغم البطالة والفشل .

فقد كان محفوظ ــ ولم يكن قد اصبح معلما بعد ــ ينشر جذع شجرة بلوط ضخمة ، وفجأة بعد ان انشق الجذع الى نصفين راى بعينيه ــ هكذا يزعم ــ دودة طويلة رفيعة وبجوارها خبز وماء .. وكان دائما يذكر القصة ليدعم بها رأيه ، وهو ان الله لاينسى احداً ، حتى الدودة الصغيرة الحقيرةفى جــذع الشجرة !

ولكن لماذا لم يرزقه الله كما فعل مع الدودة داخل الشجرة .. فهذا يرجع لحكمة يعلمها الله وحده ، ولم يجهد المعلم محفوظ نفسه ابدا فى تفهم هذه الحكمة أو معرفة دوافعها .. المهم ان حكمة الله شاءت أن تقع الحــرب فجاة .. وبدأ الصراع رهيبا فى أوروبا ، واتخذ هذا الصراع الرهيب له فى مصر مظهرا بسيطا عبارة عن مكتب صغير فى شبرا يديره ضباط انجليز ويقبل عمـــالا من مصر وبأجور خيالية .

وخطف المعلم محفوظ رجله الى مكتب شـبرا ووقف سـاعة تحت الشمس ضمن طابور طويل من الرجال ، خيل اليه فى بادىء الامر انه لـن ينتهى .. ولكن شاءت كلمة الله الا ينصرم النهار الا وقد استطاع أن يقيـد اسمه .. وعندما سأله الضابط الانجليزى الذى يتكلم عربية ركيكة عن مهنته اجابه دون وعى ·· نجار ·· هو نفسه لم يدر بعد ان غادرالمكتب ، لماذااختار هذه المهنة بالذات ·

وجاءه الخطاب على عجل ليتسلم العمـل ، نجـار فى معسـكرات العباسية واجره جنيه فى اليوم ..

شغلة عظيمة وربح وفير .. والسبب الحرب ! بارك الله فى الحرب ·· لو أنها وقعت منذ سبعة اعوام مضت لما تذوق المعلم محفوظ مرارةالبطالة ونظرات الناس الشامتة ، ولكنها حكمة الله شاءت ثم عدلت مشيئتها ·· وقد آن الاوان لكى يعمل المعلم محفوظ ويربح مثل بقية خلق الله ·

ومضت أيام الاسـبوع الاول رتيبة والمعلم محفوظ يرسم بسـذاجة خطوط المستقبل .. انه يستطيع أن يوفر مبلغا من المال وان يفتح ورشة .. او يفتح مقهى ، يضمن له معاشا ثابتا .. عندما تقضى مشيئة الله بانتهـاء الحـرب .

ولكن مضى شهر ، ثم مضى عام ، ثم عامان .. والمعلم محفوظ لـم يدخر قرشا .. وعرفت قدماه الطريق الى البارات والملاهى ودور الرقص – الى الحياة الصاخبة الحافلة التى حرم منها طويلا .. واصـبح للمعلم محفوظ احتياجات لم يكن فى حاجة اليها من قبل . والجنيه لم يعد يكفيه .. ولسانه الذى اخذ « يرطن » بكلمات انجليزية أصـبح قادرا على التفـاهم اكثـر من ذى قبـل .

ووقع المعلم محفوظ فى مشكلة جديدة ، ولكنها سرعان ما اندثرت .. هكذا قضت مشيئة الله !

انتقلت الحرب الى الصحراء الغربية .. ولم تعـد أوروبا تشهد أى نوع من الصراع ، فقد انطوت كلها مستسلمة .. وعبر الالمان البحر الـى تونس ليخوضوا الصراع على رمال صحراء افريقيا الميتة ..

وجاء الفرج على المعلم محفوظ عندما ساومه الانجليز ليذهب الـى

طبرق .. ومضاعفة الاجر مرتين ، ولم يناقش المعلم محفوظ بل ركب اللورى مع « شحنة » من الرجال ومضى بهم جميعا الى طبرق .. ومضت ايام طويلة وهو محبوس كالفأر داخل المدينة يعمل ويقبض ويدخر كثيرا فليس امامه مجال للانفاق .. وعاد من جديد يفكر فى أمر الورشة ، أو المقهى ، والاستقرار الذى ينشده عندما تقضى مشيئة الله بانتهاء الحرب وينتهى معها كل هذا الثراء .. ولكن تفكيره انقطع فجأة ، فقد استيقظ ذات صباح فاذا بالانجليز هجروا المدينة وقوم جدد يحتلون مرافقها ويحاصرونها بأسنة الحراب .. وامروه بخلع ملابسه وسلموه زيا جديدا ، بنطلونا ازرق وقميصا من نفس القماش واللون .. ولطشوا منه النقود التى ادخرها ، ثم علم بعد ذلك كله انه يتعامل هذه المرة مع جنس آخر .. مع الالمان ..

وامروه أن يعمل ، وعمل طويلا وبجهد اكبر من الجهد الذى كان يقوم به عند الانجليز ، والسبب ان الالمان اكتشفوا السر الذى لم يكتشفه الانجليز طوال أعوام ثلاثة ، وهو ان المعلم محفوظ ليس نجارا ولكنه يصلح — وهو القوى كالثور — عتالا يحمل البضائع والذخائر على رصيف السكة الحديد . ومر المعلم محفوظ بمحنة .. ولكنها علمته اشياء كثيرة . فالانجليز لا يأكلون عرق الناس ، بينما الالمان يفعلون هذا !! لم يكن المعلم محفوظ قد اكتشف بعد .. انه وقع اسيرا !!

حتى بعد أن اكتشف ذلك لم يستطع أن يجد تفسيرا لعدم منحه اجره عن العمل الذى يقوم به .. انه ليس جنديا حتى ياخذوه أسيرا .. كان يعمل عند الانجليز ، والان يعمل عند الالمان ، ولكن فرق كبير بين العمل هنا والعمل هناك .. لو أن هؤلاء الالمان فكوا اسره والحقوه بعمل ونقدوه اجره .. اذن لبقى معهم الى الابد .. فهو لايعتزم الفرار .. انه فقط يبحث عن عمل .. ولكن هؤلاء الالمان الذين يصرخون دائما لايفهمون حقيقة موقفه .. لقد وجدوه مع الانجليز فحسبوه معهم .. وهو ليس كذلك على الاطلاق ! .

ولم يكن هناك سبيل للتفاهم مع الالمان .. حتى لو ان هناك سبيلا فلا فائدة ترجى من التفاهم .. واستسلم المعلم محفوظ لمصيره ولم يعد يفكر فى شىء على الاطلاق حتى ولا فى المبلغ الذى لطشوه .

شىء واحد اقلقه .. أين بقية زملائه الذين كانوا معه فى طبرق قبل

الغزو ؟ هل استطاعوا الفرار مع الانجليز ؟ أم قتلوا فى المعركة ؟ أم انهم يعملون مع الالمان ولكن فى مكان آخر ؟ وهد الارهاق الشديد كيانه ، واستبد به فنسى كل شىء ماعداه .. أصبح همه كله ان يطيع الأوامر فلا يضربه الالمان .. فقد تلقى درسا رهيبا عندما سولت له نفسه ان يسأل الحارس مرة عما اذا كانوا سينقدونه أجره بعد الحرب ، ويومها ضربه الجندى بمؤخرة البندقية على رأسه ففقد وعيه لساعات . ولم يغضبه فى المسألة كلها الا ان الجندى الذى ضربه لايحتمل لكمة واحدة من قبضة المعلم محفوظ الفولاذية ... فقط لو كان بغير سلاح !

وسرعان ما دارت الايام .. واستيقظ ذات صباح على صوت طلقات تأتى من كل اتجاه .. وأزيز طائرات يكاد يصم الآذان ، ورائحة حرائق تشتعل فى كل مكان .. واحس بأن الارض تميد به وأنه يفقد بالتدريج توازنه ثم السيطرة على نفسه ، ثم وعيه ..

وعندما استيقظ بعد ذلك بأيام كان على سرير فى مستشفى طبرق وبلا ذراع ! واكتشف ان الانجليز قد عادوا الى المدينة وان الالمان هجروها ، ومعهم ذراعه « وعرقه » لمدة شهور قضاها يحمل كل شىء كالثور على رقبه على رصيف السكة الحديد ..

ومضت أيام طويلة وهو راقد على سريره فى المستشفى .. والعنبر الذى يرقد فيه يعج بالجنود الجرحى .. ملفوفين فى الضمادات .. حتى عيونهم نفسها مغلقة تحت اللفافات ، وكثيرا ما سمع صراخا فى جوف الليل ، ثم حركة غريبة وكم شاهد رجلا ممددا على « نقالة » يدفعها انجليزى خارج العنبر ، ووجه الرجل يختفى تحت ملاءة بيضاء .. وكان المعلم محفوظ يرفع اصبعه دائما الى أعلى ويرتل الشهادتين على روح الميت رغم انه انجليزى ، فهو على اية حال غريب فى هذه الصحراء ..

وتم شفاء المعلم محفوظ بعد وقت قصير .. وسلمه الانجليز ملابس جديدة ومائة جنيه ثمن ذراعه المبتورة .. وطلبوا منه ان يعود ...فلم تعد الحرب فى حاجة اليه بعد أن فقد أهم ما تحتاجه الحرب فيه !!

ولم ينس المعلم محفوظ ان يعد الجنيهات المائة قبل ان يغادر طبرق .. ثم « لفع » الشوال الضخم الذى دس فيه بنطلونى جيش .. وباكوات

شاى .. وعدة زجاجات فارغة .. وخرج من طبرق على قدميه .. وحذاؤه الذى كان فى قدمى جندى من قبل ، يضرب فى الرمل فى طريقه الى ربوة موسى حيث تنتظره العربة هنــاك .

وعندما انحدر المعلم محفوظ ناحية الربوة قاطعا المنحنى الضيق الذى يفصل طبرق عن الطريق الرئيسى .. لفت نظره أن كل شىء قــد تغير فــى المكان .. كان الطريق عندما قطعه أول مرة تزينه أشجار السرو العالية .. ومعالم الطريق الدالة عليه .. لقد أصبح الطريق مهجورا ولا أثــر لشجرة واحدة .. وثمة فجوات عميقة على الطريق من أثر القنابل تبدو كأنها مقــابر مهجورة نبشتها الكلاب والذئاب .

وعلى امتداد صفحة الصحراء المحيطة بالطريق كان كل شىء يبــــدو بشعا رهيبا .. عربات مقلوبة وهياكل دبابات محترقة وعظـــام نخرة أكل الدود ما عليها .. وبقايا جثث ممزقة وخوذات جنود من جميع الاجســـام ، استحال لونها الذى كان اصفر الى لون كالح أشبه بلون المياه الراكــدة .. والجو يعبق برائحة خبيثة .. ودود كثير يزحف فوق الرمال ، تترقـــه جثث القتلى فعاد يأكل منها . ووقف المعلم محفوظ برهة ينظر الى كل اتجاه ، الاف الجثث مطروحة فى الصحراء . وكأنها فى انتظار نفير رهيب سيدوى صوته فجأة فى الافق لترتعش من جديد وقد دبت فيها الحيـــاة !! وبين الجثث كان هناك عدد منها يعرف أصحابها جيدا .. فقد عاشوا معه فترة طويلة داخل طبرق . ظن يوما انهم هربوا من الانجليز .. او يعملون مع الالمان فى مكان بعيد .. كانت بقايا ملابسهم تدل عليهم .. واصطرعت بأذنه أصوات مبهمة بشعة أشبه بنعيق قطيع من البوم فى ليل بهيم ..

وعندما رفع بصره الى أعلى رأى السماء وقد اسود لونها تماما . كانت هناك مظلة من الغربان .. ملايين من الغربان لايعرف من أين جاءت ولا كيف جاءت ، تصفق بأجنحتها فى الجو .. وهى هابطة نحــو الأرض لتلتقط مــن الجيف المنتشرة على الرمال قطعا ثم تعود الى التحليق من جــديد .

واستبد الرعب بنفس المعلم محفوظ .. وامتلأت نفسه مرارة .. وود لو يستطيع أن يبصق على الالمان والانجليز وسائر الناس .. واختلس نظرة الى كم جلبابه وقد تدلى الى جواره بلا ذراع ، و « لفع » الشـــوال الضخم على كتفيه ومضى مسرعا على الطريق نحو ربوة موسى .

وتساءل المعلم محفوظ بينه وبين نفسه وهو يحث الخطى عــــــلى الرمال : ترى ما هى الحكمة فى نشوب الحرب بين الناس ، ثم ينتهى الجميع الى مجرد عظام ؟ واجاب على سؤاله بنفسه : قـد تكون الحكمـة من وراء الحرب هى اطعام هذه الملايين من الغربان !!

ومصمص المعلم محفوظ شــفتيه فى أسى عميــق وهو يسرع الخطى صاعدا نحو الربوة ·· وتذكر فى تلــك اللحظة الدودة الرفيعة الطويلة فى جذع الشجرة وأمامها الخبز والماء !!

وعندما تكور حول نفسه بجوار الشوال فى العربة اللورى ، اختلس النظر نحو السماء ·· كانت لاتزال ســوداء ·· بلون ملايين الغــربان التى راحت تصفق باجنحتها وهى تهبط نحو الارض لتلتقط بمخالبها نتفا من الجيف المنتشرة على صفحة الصحــراء !!

واعظ الليمان

كانت الشمس تلهب رمـــال الصحـــراء العريضـــة المحيطة بالليمان . ولم يكن هناك شجرة واحدة على بعد عدة أميال من مكان السجن .. ولا ثمة طيور شاردة فى الجو ، ولا بئر ماء .. ولا أثر اطلاقا للحيـــاة ، لم يكن هناك سوى عدة قبور مهجورة نبشتها الكلاب والذئاب وصقور الجو الجائعة . وكان الطريق من المدينة الـــى السجن طويلا مرهقا ، والعربة الوحيدة التى صادفهـــا واعظ السجن لتنقله الى هناك ، عربة نقل تستعمل فى نقل اللحوم مـــرة كل أســـبوع الى هؤلاء الذين لفظتهم الحيـــاة بعيدا عنهـــا .

كان الواعظ بدينا قصير القامة ، أحمر الوجه ، يبدو للوهلة الاولـــى كأنه من عهد الريف الاثرياء . وكان حديث التخـــــرج ، وكانت وظيفة واعظ السجن .. هى أول عمل يقوم به فى الحيـــاة .

جلس الواعظ بجوار السائق يفكر فيما عساه سيقوله فى صباح الغـــد للمذنبين من نزلاء الليمان . وتذكر وهو جالس بجوار السائق ، والعربة تهزه هزا عنيفا ــ كل خطب الوعظ التى حفظها عن ظهر قلب ، خطبة رمضـــــان المعظم ، وفيها الحث على الصوم ومغالبة النفس ، وخطبة الحج .. وفيهـــا المناسك جميعا ، وخطبة رجب وفيها النهى عن زيارة المقابر و ... و .. !!

وابتسم الواعظ فى سرور ، انه لم يزل يحفظ هذا كله ، وفى جعبته عدد لا بأس به من الآيات والاحاديث ..

واستقر فى مقعده مطمئنا الى النجاح الذى سيصادفه غدا عندما يقف امام حشد المذنبين ليعظهم ويرشدهم الى العمل الطيب الذى يرفعه الله الى سمواته • ودس يده فى جيبه فأخرج منديله الكبير ، وجفف به عرقه الذى ظل يسيل من فوق جبهته فملأ عينيه حتى تعذرت الرؤية عليه . وكان الارهاق الشديد قد نال منه خلال الرحلة فأغمض عينيه وراح فى نوم عميق .

وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى ، كانت الشمس قد توسطت الافق ، وحجارة السجن الصماء تكاد تنصهر من شدة الحرارة ، وكان قد قضى ليلته غارقا فى نوم عميق انساه طول الرحلة ، ووعورة الطريق . وعندما فرغ من صلاته جلس يتناول افطاره ، وكان شهيا لذيذا وبكميات ضخمة ودهش لوجود مثل هذه الاصناف اللذيذة والكميات الكبيرة داخل الليمان .. لابد انهم سعداء هؤلاء النزلاء ، وهو نفسه عندما كان خارج هذه الجدران — فى عالم الحرية — أيام أن كان طالبا فى الازهر .. لم يكن يستطيع الحصول على هذه الكميات ولا هذه الاصناف ! •

لم يفكر طويلا فى هذا الامر الذى بدا غريبا فى نظره .. وراح اثناء تناوله الطعام يفكر فى الخطبة التى اعدها .. والتى يرجو من أعماقه أن تحوز رضاء مأمور الليمان ، وتجشأ الشيخ عبد الحميد — وهذا اسمه — وهو يخطو أمام الحارس فى طريقه إلى مكتب المأمور .. ليتعرف اليه ، اذ لم تكن أمامه الفرصة ليقوم بهذا العمل فى مساء الامس عندما هبط السجن فى عربة اللحوم .

وكان غريبا عليه ايضا هذا الذى صادفه فى شخص المأمور ، فقد كان رجلا بدينا تدل ملامحه الغليظة على الطيبة والهدوء . وكان فوق هذا وذاك مطلعا على كتب النحو والبلاغة ، وآراء الشراح القدامى والمحدثين . وبعد أن انتهى الحديث بينهما حول الفقه والدين . اتخذ المأمور سمت الحاكم وقال مخاطبا الواعظ بعد أن اصلح رباط عنقه :

— اننا هنا اسرة واحدة . وانا طيب جدا ، مادام النظام هنا على اكمل وجه . والرجل الذى يعمل داخل السجن ، هو فى الحقيقة مسجون بملابس عادية ، وستحب مهنتك جدا مادمت مخلصا لها ، مقبلا عليها ، وارى من واجبى أن اخبرك ان زميلك الذى حللت انت مكانه ظل معنا هنا لمدة

طويلة . كان فيها مثالا للكفاية والاخلاص . ولكنه فجأة نسي أصول مهنتـــه فأخذ يتدخل فيما لايعنيه . واصبح هو سببا قويا فى تمرد المذنبين على الاوامر فقد كان يتدخل دائما فى طريقة معاملة السجانين للمسجونين . ولكنه نـــال جزاءه . فقد نقل من هنا الى جهة نائية . فانا لااحب شيئا قدر حبى للنظام . واضحى فى سبيل تدعيمه باقرب المقربين الى .

تصبب العرق على وجه الشيخ عبد الحميد وهو يستمع الى قصـــة الواعظ الذى سبقه . وجف حلقه تماما عندما انهى المامور قصته بخبر نقله ، واستعاذ برب العباد من شر الشيطان الرجيم ، ودعا الله سرا أن يوفقه فى عمله . فيعمل آمنا مستقرا ويجمع قدرا من المال ليشترى به قطعة أرض على « حرف » الترعة كما فعل الشيخ رشيد ، والشيخ سلمان ابنـــا قريته ... وزميلا الدراسة .. !

وعندما انتهت المقابلة خرج الشيخ عبد الحميد من مكتب المامور وهـــو يتمتم باسم الله ، والحارس يخطو امامه فى الردهـــة الضيقة الطويلة ليقوده الى الفناء الواسع حيث ينتظره المذنبون منذ ساعة ليستمعوا الى موعظته . وعندما اطل على الفنـــــاء كان الحر لايزال شـــديدا ، ورأى اكثر من الف مسجون يجلسون القرفصاء على الرمال فى مواجهة منصة صنعت خصيصـــا لتقى الواعظ من حرارة الصيف فى تلك المنطقة الجافة الحارقة . وحـــول الجالسين اصطفت فرقة من الجنود المسلحين ، وقد صوبوا اسلحتهم الـــى القطيع البائس . وكان اللغط يدور شديدا بين الجالسين وكأنهم فى معـــركة كلامية حادة . ولكنها سرعان ما هدأت تماما عندما اقترب الواعظ من الجمع المحتشد ، وتركزت كل النظرات عليه ... حتى نظرات الحراس ، واحس الشيخ عبد الحميد باهميته البالغة ربما للمـــرة الاولى ، فتحسس جبتـــه ، واصلح من وضـــــع العمـــامة . وثبت بصره بالارض وهو يصعد السلالم الخشبية المؤدية الى المنصة . والقى نظرة شاملة على كل من حوله . ثـــم رفع صوته بالتحية وبدأ يلقى موعظته فى صوت رتيب ونبرات حلوة . ولكن هبت الاصوات من جانب الجالسين :

ــ هس ياجدع انت وهـــوه
ــ اللي يحب النبى يسكت
ــ خلونا نسمع الكلام المفيد

ويبدو أن أحدا منهم لم يكن يحب الاستماع الى الكلام المفيد ، فقد ظلت الضوضاء تتصاعد من حوله ، وكأنه يعظ فى سوق . ولم يثنه هذا عن التوقف . فقد كان الموقف يحتاج الى شجاعة ... وهو شجاع ، نواصل حديثه اليهم :

ــ ايها الناس ... امرنا الله باتباع طريق الخير .. والبعد عن طريق المعصية ، ومن يعمل منكم مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . نهانا الله عن الخمر .. فلا نقربها .. وعن الميسر فلا نمارسه ، حكمة سماوية ... للبعد عن الخطيئة التى يزينها الشيطان ، انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . فالخمر تهدم الصحة وتمحو الشخصية . والميسر يهدم بيوتكم الآمنة ويجركم الى الدين والخراب ، فاتقوا الله يامعشر المسلمين تنالوا رضاءه !!

وتوقف الشيخ عبد الحميد عن مواصلة حديثه ريثما يجفف عرقه الذى سال من جبينه على عينيه . واحس ارهاقا شديدا .. وصعوبة فى التنفس لابد انه اجاد واحسن والا .. لماذا كل هذا الاستغراق حتى لقد نسى نفسه والقى الشيخ عبد الحميد نظرة على من حوله ليرى وقع حديثه فى نفوس السامعين .. لم يكن هناك من ينظر اليه ، المذنبون يتجادلون فى ضجة ... ربما من اجل عملية بيع وشراء . ولفائف تبغ كثيرة تنتقل من يد الى يد ، واوراق لامعة شفافة تتناولها الايدى لتسلمها الى اخرى . والحراس مستندون الى فوهات بنادقهم ، وعيونهم مغلقة فى أغفاءة لذيذة . وارتبك الشيخ عبد الحميد ولم يدر ماذا يفعل ، انه واثق تماما انه اجاد اختيار موضوع الموعظة ، وصوته جميل حسن ، فلماذا اذن لايستمع اليه هؤلاء الجهلاء !!

وعاد الشيخ عبد الحميد مواصلا حديثه ، وفى هذه المرة بصوت أشد :

ــ أيها الناس ، ان الله يأمركم بالزكاة .. ففى اموالكم حق للسائل والمحروم . فلا تكنزوا ثرواتكم فتجنوا حسرة الدنيا ... وعذاب الآخرة ، ولا تبذروا فى أموالكم ، فقد نهى الله عن التبذير ... ان المبذرين اخوان الشيطان . فعلى كل منكم ان يطهر ماله بالزكاة .

وتوقف الشيخ عبد الحميد قليلا ريثما يلتقط أنفاسه ، وعاد من جـــديد ينظر الى الجمع المحتشد امامه ! كان الجميع مشـغولين عنه وعـن حديثه بما يبدو أنه اهم من ذلك . عمليات بيع وشراء على الطريقة التى كانت سائدة يوما ما قبل أن تختـــرع النقـــود . والحراس فى نفس الاغفـــــاءة اللذيذة ، واستبدت الدهشة بالشيخ عبد الحميد كيف لم يستطع التأثـــير على هـــؤلاء الناس .. وقد نجح من قبل فى السيطرة على اهل قريته عنـــدما كان يخطب فيهم الجمعة خلال زياراته المتعددة لهم فى فصل الصيف .. وكان لم يـــزل طالبا .. والان وهو يعمل كواعظ رسمى لايستطيع أن يلفت اليه نظر هؤلاء المذنبين . واشتد ارتباك الشيخ عبد الحميد .. وهو لايدرى تماما ماذا يجب عليه أن يعمل . هل ينسحب ويمشى ؟ ولكن هذه قد تحسب عليه . اذن هـــل يصرخ فيهم أن انتبهوا أيها الكافـــرون ؟ ... أم ... وقبل ان يمضى فـــى تفكيره للعثور على حل لهذه المشكلة . انتبه على صوت اجش يرتفع صائحا :

ـــ انتبـــــــــــاه .

وعلى الاثر ظهر المأمور وبجانبه كبـــار الضـــباط . وعدد كبـــير من الحراس ، مقبلين جميعا فى موكب مهيب نحـــو منصـــة الشـــيخ . وانتفض الحراس فى وقت واحد وقد طار النوم من عيونهم . وصمت المذنبون وكأنهم جثث فى مقبرة . وانتفض الشيخ عبد الحميد هو الاخر ، فقد اخذته روعـــة الموكب المهيب . واختلطت فى ذهنه جميع المواعظ التى حفظها عن ظهر قلب طول حياته الماضية . وارتفع صوته من جديد ، وكان المأمور قد اتخذ لـــــه مكانا على مقربة من الحشد الكبير .

ـــ أيها الناس ، كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ... « وكل عمل ابن آدم لنفسه الا الصيام فهو لى وانا أجزى به » والصيام دواء لمرض التخمة ، ولاشعاركم بما يلقاه المحرومون من اخوانكم فى الانســـانية ، فتعطفون عليهم ، وتحسنون اليهم ، وترزقونهم مما رزقكم الله .

وتوقف الشيخ عبد الحميد قليلا . كان الصمت لايزال مخيما عـــــلى الجميـــع ، وهم ينصتون فى هـــــدوء ويمصمصون شفاههم فى « طرقعات » مسموعة ، وعيونهم تختلس النظرات الى الناحية التى وقف فيهـــا المأمور . وكان يبدو عليهم التأثر الشديد لما يقوله ورضى الشيخ عبد الحميد عن نفسه

كثيرا ، وراح يربت بيده على صدره العريض وكأنه افئدتهم قد تفتحت للتوجيه الحكيم الصائب · لقد آمن افراد هذا القطيع أخيراً ، امنوا بالصلاة والصيام والزكاة ·· والحج الى بيت الله لمن استطاع اليه سبيلا وغشيت عيناه سحابة من أثر الرضاء وعاد الى حديثه يلقيه فى عزم وقوة وعيناه لاترى شيئا امامه سوى الاستقرار الذى سيلقاه فى عمله ·· وقطعة الارض التى سيشتريها بجوار الترعة · ولم لا ؟ وقد ران الصمت على الجميع واستطاع أن يغزو قلوبهم بالايمان ؟!

إلى طما

أخيرا جاء القطار ونهض هريدى عبد العال من مكانه على الرصيف ، ورفع الشوال الهائل الذى يحوى كل ما معه من هدايا لاسرته القابعـــة فى زاوية مهجورة من زوايا الصعيد . وقذف به داخل القطار ، ورفـــع ذيل جلبابه بين أسنانه وأمسك بنافذة القطار وراح يجرى معه ، وسقطت فردة حذائه الممزق تحت العجلات وخطر له أن يترك القطار ليجرى خلف (الفردة) ولكنه طرد هذا الخاطر بعد أن وجد نفسه فجأة وبطريقة ما داخل القطار ، والشوال الضخم بين يديه يحاول عبثا أن يجد له ولنفسه مكانا بين مئات من أمثاله افترشوا أرضية العربة المظلمة وراحوا يتحـــدثون ويهرشون غير ملقين بالا الى من يدوسون فوقهم بالاقدام .

ووجـد هريدى لنفسه مكانا وسـط هـذا الزحام وفتـح الشوال ليرى بنفسه ان الهدايا لم تمس . ولكن الغضب استبد بـــه عندما اكتشـف ان زر الشمام قد اصيب بضربة فى جنبه وان كيس السكر قد انفرط ، وزجاجة المزيج قد سالت فلطخت كل شىء . وطوى هريدى الشوال ووضعه تحت جنبه عندما بدأ القطار يتحرك نحو الصعيد . وخطر له ان ينام ، فان امامه اكثر من عشر ساعات حتى يصل القطار الى طما ، ومن هناك سوف يركب الجلزونة الى ميت الحلاجى ، وبعدها يستطيع السير على قدميه الى حيث يشاء .

ولكن حديث المسافرين وهرشهم ونداءات باعة القازوزة واللب والبيض والسميط وكذلك الهدايا التى فى الشوال ، والجنيهات العشرين التى فى جيبه ، كل ذلك طرد النوم عن عينيه ، نظل ساهرا يرقب أعمدة التلغراف وهى تجرى مسرعة فى الطريق المضاد وكأنها أطفال مذعورةتجرى مهرولة فىطلبالامان·

وغاب هريدى تماما عن كل ما حوله ، وتذكر اليوم الذى جاء فيه الى القاهرة ، أول مرة ، حدث هذا منذ عـام . كان الوقت ظهرا والمكان محطة مصر ، والزحام علىاشده وعربات كثيرة فىعدد جميع الحلزونات التىتمرعلى ميت الحلاجى فى عام كامل .. تجرى فى كل الاتجاهات ومركبات حديدية تحدث ضجيجا يصم الاذان وباعة شمام وبطيخ وورق ، وخلق كثيرون أكثر من كـل الذين يسكنون الصعيد ، ورائحة غير ذكية والناس مجهدون صفر الوجوه ، مرضى جميعا بالسعال ولكنهم فى ملابس نظيفة واحذية جديدة ومع بعضهم نساء بيض جميلات · ونظر هريدى الى قدميه العاريتين المتورمتين وجلبابه الممزق ، وتذكر صابحة زوجته ، وتمنى لو كان له حذاء وامسك فى يده بورقة مطوية وسار فى الطريق ·

وقبل أن يقطع مسافة طويلة استوقف افنديا كان يعبر الميدان مثله ، وابرز له الورقة المطوية فالقى الافندى نظرة عليها ثم اشار عليه أن يمضى الى الامام ثم الى اليمين ثم الى الشـمال ثم .. أشـياء كثيرة معقدة لم يفهم هريدى منها حرفا ، حتى الورقة التى تحمل العنوان لم يحصل عليها هريدى فقد اخذها الافندى وجرى فجاة وباقصى سرعة خلف حلزونة ضـخمة كانت تجرى مسرعة ولم يلبث أن أصبح الافندى داخلها ، وغابت العربة مع العنوان عـن الانظار ·

وهكذا عثر هريدى على الشيخ احمد مروان متعهد الانفار بعد أربعة أيام ، قضى ثلاثة منها فى قسم الموسكى .. ولم يدر هريدى السبب فى هذا ، كما انه لم يدر ايضا السبب فى انهم تركوه ، المهم أنهم عندما اخذوه سالوه عن اسمه ومقر اقامته وصناعته ، وكان هريدى صادقا فلم يذكر سوى انه يملك جسما قويا كالثور يستطيع أن يهدم به حائطا ، أو يجر به حلزونة ، أو يصرع به رجلا من رجال المدينة الصفر الوجوه .

واهتز القطار فجأة ، وكانت الهزة قوية أيقظت هريدى من أحلامه ودفعت

بكثير من الجالسين الى الوقوف ليروا من النوافذ حقيقة الامر ، وهتف بعضهم تصليح .. فيه تصليح فى السكة ..

وهتف البعض الآخر :

ـ يامستعجل عطلك الله .

ثم خيم الهدوء من جديد .. وتوقف القطار قليلا قبل ان يسير وعـــاد هريدى يذكر تلك الأيام منذ عام كيف انه ظل عاطلا بلا عمل عدة اسابيع . ثم اخذه المعلم مروان ليعمل فى عمارة ، وكان العمل سهلا ، يحمل على كتفـــه خمسين طوبة ويصعد بها على سقالة وثبا كالبهلوانات الى الدور الخامس ثم يعود ، وعند كل مساء كانوا ينقدونه ريالا كاملا وصرف هريدى الريال فى اليوم الاول ، وفى اليوم الثانى وبقية أيام الاسبوع وعندما اخذ يقتصد توقف العمل فى العمارة ،ولم يعد البناء فى حاجة الى مزيد من الطوب .وهكذا مضت اسابيع اخرى وهو بلا عمل واحيانا بلا طعام ، اما المأوى فمضمون ، فى الساحة التى يملكهـــا المعلم مروان فى حضــــن الجبل عند الدراسة ، وهكذا عرف هريدى الدراسة والازهر والعباسية أيضا حيث كان يعمل فى العمارة ، وعرف كثيرا من بلدياته فى المقهى التى يجتمعون بها كل مساء يدخنون المعســـل ويشربون اقداح الشاى الاسود .. ويلعبون الطاولة واحيانا يأكلون العيش القمح مع الفول ودخل هريدى فى عمل جديد وخرج منه الى عمل آخر ، وفى كل يوم تنشق الارض عن عماره ضخمة ، ثم تنتهى لتقوم بجوارها او فى حى آخر بعيد عمارة مثلها وهريدى يحمل الطوب على كتفه ويغنى وهو يتأرجح عـلى السقالة ويشرب اكواب الشاى فى فترة الغداء ، وينام فى الليل على الرملة ، كم هى باردة لذيذة فى الليالى الحارة اعظم بكثير من الارض الســــاخنة الصلبة التى كان يفترشها فى الصعيد .

وتنهد هريدى في عمق ، وهو يسترجع فى ذاكرته تلك الليالى البعيدة . وارتجف بدنه كله عندما تذكر .. كيف خطر له ذات مساء وهو جالس على الرمل أن يترك زوجته واسرته الى الابد وأن يخلص رقبته من تلك العلاقة التى تجعله يدور مجهدا حول نفسه ، كالثور الكبير .. وتذكر كيف استـبد به هذا الخاطر حتى اقلقه ، وكيف استقر رايه ذات مساء ، وهو يجلس وحيدا على الرملة واصابعه تعبث فى بطن الكثيب البارد على الا يعود الى الصعيد ،أف لهذه الحياة التى يعيشها الناس هناك ، حيث الظلام والنساء اللاتى فى شكل

غربان الجو ، والعيس الذى ينافس الطوب ، أمـــا هو ففى مصر ٠٠ أم المدائن كلها .. هنا الفول المدمس بكثرة والعيش لين يبتلعه الناس بسهولة ، وشوارع نظيفة ونقود ، الناس هنا يختلفون عن الناس في قريته بهادة ، وفى ميت الحلاجى وفى طما ٠٠ هنا الناس يبـدون أكثر بهجـة واشـد نظافة واصواتهم اكثر رقة وجيوبهم عامرة ٠

وعجب هريدى ليلتها لان الناس هنا اشد غفلة من الذين هناك ، انهم هنا يقطعون الوقت فيما لا فائدة فيه ، انهم يذهبون الى الخلاء والى الملاهى والى النهر . وهو لايعرف طعما لهذا كله ، ولو ان الناس هنا أصحاب فطنة حقا لقضوا الوقت كله فى الاكل ؟ الاكل هنا متوفر والناس لايعرفون قيمته ، ولو ان كل هذه الكميات الضخمة من الفول والطعميـــة والباذنجان المخلل فى الصعيد لأتى الناس عليها فى لحظة ، ولكنه أحيانا يرى أصحاب الدكاكين وهم يلقون ببعض فضلات هذه الاشياء فى الطريق .

واهتز القطار من جديد ، وتمهل فى سيره قليلا ووقف بعض الركاب ووقع البعض الاخر ، وجرى بعضهم نحو النافذة ، وهتفوا ٠ المنيا وداس النازلون والصاعدون على الجالسين ، وتململ رجل كان يفترش الارض بجوار هريدى وابدى تبرمه من هذا الحذاء الضخم القذر الذى انحشر فى فمه ، وصـــاح رجل عجوز كان يتمدد تحت كرسى : ـ استحملوا بعض يا خـلايق ٠ دى كلها ساعتين والعمر كله يومين ٠

ومصمص بعض الجالسين شفاههم فى اعجاب ، وهتف أحدهم :
ـ ربنا يفوتها على خير .

وتحرك القطار مـن جـــديد فى طريقه الى أســـيوط ، وعاد هريدى الى ذكرياته فى مصر ، الى هذا الخاطر الغريب الذى اســـتبد به بعض الوقت فى ضرورة هجر اسرته وزوجته ، والصعيد كله ، ثم تذكر ماحدث بعد ذلك . وكان قد بدد كل ما اقتصده ، ولماذا يقتصد ٠ انه الآن ينوى ان يفعل ذلـك ٠ ولكن خاطرا ملحا ظل يطرق خلايا مخه بانتظام وفى قسوة شديدة وجوع مسعور نحو المرأة يأكل كيانه ويكاد يحيله الى شعلة

وهمس ليلتها فى اذن بلال ، الصعيدى الزنجى الذى جاء الى مصر منذ خمسة أعوام ، همس له برغبته الجنونية ، انه لم يكن يحس هذا الاحساس

من قبل فى الصعيد ، ربما لان زوجته كانت فى شكل الغراب ، عجفاء مثل عود الحطب ، وربما هـو الطعام اللذيذ الذى حـرك فى نفسه هـذا الغـول الرهيب وقاده بلال فى ذلك الصباح الى الجبل بجوار المشرحة ، حيث بعض النساء الممتلئات الملطخات الوجوهبكل مافى الوجود من هوان . وفى وجوههن بثور غريبه ، ومن ملابسهن تفوح رائحة غريبه ، ولكنهن اجمل بكثير من التى تنتظره فى بهاده مع نصف دستة من الاطفال .

ولن ينسى هريدى ماحدث ، ضربه بعض الرجال ضربا مبرحا حتى كادوا يقتلونه وسلبوا منه الريال الذى كان معه ، ومع انـــه قوى فى حجم الثور والآخرين ضعاف كالذباب ، الا انهم كانوا يتحركون بسرعة عجيبة ، ويضربونه فى وجهه وعلى رأسه فى مهارة وكأنها طبقا لخطة وكان يود لو يمسك بأحدهم ولكنهم لم يمكنوه وعندما تركوه لم يستطع أن يفتح عينيه . وعندما فتح عينيه وجد نفسه داخل حلقة من الجنود السود مثل بلال وفى ايديهم كرابيج .

واهتز القطار فجأة ، وقام بعض الناس ووقع البعض الآخر ، ورفـــع هريدى يده يتحسس قفاه وظهره ، صحيح ان الالم زال ولكن آثار الضرب المبرح بالكرابيج مازالت فى مكانها هناك وكأنها حدثت بالامس .

وابتسم هريدى فى خبث شديد ومضى وقت طويل قبل أن يسير القطار ، وسأل هريدى جاره عن الساعة ، وسأل الجار رجلا آخر .
وسأل الجار الآخر جارا آخر ، ثم جاء الجواب من بعيد ، من رجل كان يجلس فى آخر العربة .

وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل والحر يكتم الانفاس ، ورائحة الرجال مختلطة برائحة الشمام برائحة البطيخ برائحة المزيج . وعادهريدى يهرش فى قفاه وفى ظهره ؟ وفى رأسه تتلاطم الافكار والذكريات متزاحمة يأخذ بعضها برقاب بعض ، والمشاهد تترى امامه كأعمدة التلغراف التى تجـــرى مذعورة على الطريق المضاد والتى أخفاها الظلام عن عينيه .

وعاد هريدى يذكر كيف نام فى الساحة عشرة ايام بعد . . « العلقة » لم يستطع ان يبرحها ، وكيف طرد عن نفسه خاطر الانفصال عن اسرته وزوجته وعن الصعيد ، ثم عاد الى العمل من جديد ، من عمارة الى اخرى حتى جاءه

المعلم ذات يوم وقاده الى معلم آخر · فسلمه لرجل نظيف لا يبدو مثل الآخرين قالوا له انه مهندس وان عمله سيكون بعد ذلك الحفر في الرمال دون ان يحمل طوبا أو يتسلق عمائر ·· شيء لا فائدة فيه ولكنه سيتقاضى أجرا كبيرا ·· ثلاثين قرشا في اليوم ، وسيعمل بلا انقطاع .

وفي جوف الصحراء بعد الهرم راح يضرب الفأس في جوف الارض .. عمل مريح ، وفيه نوع من الاستقرار وهؤلاء البلهاء يدفعون الاجر ، وهو لايفهم معنى لكل هذا العمل التافه ، الحفر في الرمال .. ربما جاءه الحظ الذى اصاب بعض الناس من قبل · أن بعض الناس في المدينة لا يعملون شيئا ويتقاضون أجرا كبيرا . والافندى الذى يعمل معه يجلس فقط على الكرسى خلف مكتب كبير وفي الظل لايحفر الارض ولا يحمل الطوب ، ورغم ذلك فيبدو انه يتقاضى اجرا كبيرا لانه يدخن السجائر في علبة ، ويشرب الشاى والقهوة ويدفع أحيانا بقشيشا سخيا لهؤلاء الذين يحفرون ، والمعلم مروان مقاول الأنفار انه لايفعل شيئا هو الآخر ، الاالجلوس على المقهى ولعب الطاولة وتدخين المعسل، ومع ذلك فهو يتقاضى اجرا كبيرا ، اتاح له ان يبنى عمارة في مصر ، ويشترى عشرة افدنه في طما ويتزوج اربع نساء .. انه الحظ لابد اذن قد هبط عليه هو الآخر ، والا ؟ فما معنى كل هذا النعيم الذى يرفل فيه .. الحفر في الرمال خمس ساعات والاجر ثلاثون قرشا ولا توجد هنا بطالة كما هو الحال في شغل العمارات ويبدو انها لن تكون ·· لان الصحراء عريضة طويلة ، والحفر فيها يستغرق الدهر كله ··

وتذكر هريدى كيف مرت الشهور رتيبة هينة حتى حدث شيء عجيب ·· منذ اسبوع واحد وكان هريدى يضرب الفأس في الرمل في بطء ممل فليست هناك رقابة، الافندى في المنزل والريس في القهوة ، والصحراء لن تتصدع اذا تأخر العمل فيها قليلا او سار فيها في بطء شديد ، وعاد هريدى الى الضرب بالفأس في باطن الصحراء ، ثم مضى وحده يسرع في العمل ويرفع الفأس الى أعلى في نشاط ويضرب في الارض بقسوة ، لايدرى لماذا ؟ ربما لانه تذكر زوجته وامه التي تركها تموت في الصعيد ولكنه توقف فجأة عن العمل فقد غاصت الفأس في الرمل . وعبثا حاول أن ينزعها دون جدوى واستطاع اخيرا عندما استعان ببعض الرجال . وخلف الفأس في الارض فجوة كبيرة مظلمة سوداء كقلب المعلم مروان ، وانحنى هريدى ينظر داخلها في بلاهة ثم قفز من شدة الرعب .. كان

هناك شيء أشبه بالمحجرة ، وجثث كثيرة ممددة وكأنها نائمة وأواني طبـــخ واشياء أخرى كثيرة من بينها ارغفة خبز تبدو تماما مثل خبز الصعيد .

وامتقع لون هريدى وهو يفكر فى هذا الامر ان هـــــذا الذى يراه لابد مقبرة هائلة ، وهؤلاء موتى منذ زمن بعيد . . تذكر كلمات الشـــيخ الدسوقى واعظ القرية التى يرددها فى المسجد كل يوم جمعة ، وهى ان الارض تخفى تحتها جثث ملايين الخلق منذ يأجوجومأجوج .

وهريدى لايدرى متى كان يأجوج ومأجوج هذا ، ولكن لابد أنهم ظهروا منذ زمن بعيد يضرب فى بطن التاريخ الى غور سحيق .

واصفر لون هريدى عندمـــــا خطر له انه ربما كان هؤلاء القوم مـن « المساخيط » الذين سخطهم الله لضلالهم .

وتذكر ثانية كلمات الشيخ دسوقى حيث كان يقول ان الله كان يسخط القوم الظالمين ، وانه سيسخط العالم قريبا بكل ما فيه ومـن فيه ، اذن كـان الشيخ دسوقى يقصد ان العالم كله سيتحـول الى شىء من هذا القبيل وخطر له ايضا ان هؤلاء القوم ربما يمتون الى الافندى المهندس بصلة قـــرابة ، وان الغرض من حفر الصحراء كان هو العثور عليهم . المهم ان هريدى انتهى من هذه الخواطر جميعا بأن صاح وبلا وعى :

ــ يارجاله ، يارجاله ، يارجاله . .

وهرع الرجالة اليه وتوقف العمل فى كل مكان الا عند هريدى . ونزل هريدى من الفتحة الى الداخل ، كانت الرائحة عفنة قوية . والناس ينامون فى هدوء تبدو على وجوههم راحة السنين الطويلة .

ونظر هريدى اليهم فى اشفاق وذعر . . وفى حسد ايضا . . صحيح ان الدسوقى كان صادقا حينما كان يقول : لاتأتى الراحة الا مع الموت .. وراح هريدى يذرع ارض الحجرة المظلمة بحثا عن شىء ، لم يكن هناك سوى احجار فى احجام مختلفة . .

وفجأة عثر على شىء لامع لابد انه كنز ، وعندما وضعه فى جيبه ، كانت الفتحة قد اتسعت أكثر ، واصبح فى وسع الرجال ان يروه .

وجاء الريس بعد ساعة ، وجاء المهندس بعد ساعات ، وتوقف العمل فى ذلك المساء ، ونام هريدى بجوار الفتحة تحت الحراسة ، كانت المنطقة قد تحولت كلها الى نهار بفعل الانوار التى جلبها المهندس ، والمكان كله طوقه الجند المسلحون ، واغتم هريدى لهذه النهاية السيئة ، لابد أن هذا الذى عثر عليه كنز تملكه الحكومة ، أو مقبرة تضم رفات احد اجداد رجال الحكومة .

وسهر هريدى الليل بطوله يفكر فى الاقوال التى سيدلى بها ، انه لايقصد هذا العمل على الاطلاق .. والافندى المهندس هو الذى أمره بذلك وعندالفجر سقط هريدى نائما من الاعياء . وعندما جاء الصباح أيقظوه ، وقادوه الى خيمة نصبها الجند بسرعة ، ودس يده فى جيبه وأخرج القطعة الصفراء والقى بها فى الرمل وداس عليها بقدميه .

ودخل هريدى الى الخيمة .. كان هناك ضابط صغير السن ،والافندى المهندس وافندية مثله .. بعضهم يلتقط مناظر ، وبعضهم يدون شيئا على ورقة ، لابد انهم رجال النيابة .. وهم هريدى أن ينحنى على حذاء المهندس يستعطفه ويستحلفه بكل مقدس ان يتركه ، ولكن صوتا رتيبا هادئا جاءه من الخلف من الضابط الجالس فى الخيمة :

ـ انت اللى دخلت مقبرة فرعون فى الاول ؟

ـ أنا مظلوم والله العظيم يابيه

ولم يلتفت الضابط الى الاستعطاف وسأله :

ـ كانت الساعة كام .

ـ والله العظيم مظلوم يابيه ، احنا ناس غلابة مامعناش ساعات .

وضحك الناس الجالسون ، لابد انهم يسخرون منه ، وهكذا الناس يضحكون دائما من كل ما يصيب الآخرين من شرور ، وانتهى التحقيق بسرعة وخرج من الخيمة دون ان يمسه أذى ، وبجوار الفتحه قضى هريدى خمسة ايام طوال مسح خلالها كل الصحراء المحيطة بالمقبرة ، بحثا عن القطعة الصفراء التى ألقى بها ، واول أمس نقدوه الاجر كاملا ومكافأة عشرة جنيهات وقالوا له اذهب اذا شئت .. هؤلاء البلهاء .

وذهب هريدى وهو لايصدق ، واشترى الشماعوأقة الارز وكيس السكر وعاد الى طما وهاهو القطار يقف فيها الآن والنازلون والصاعدون لن بدوسوا عليه .. أنه سينزل معهم وسيدوس هو أيضا على الآخرين ..

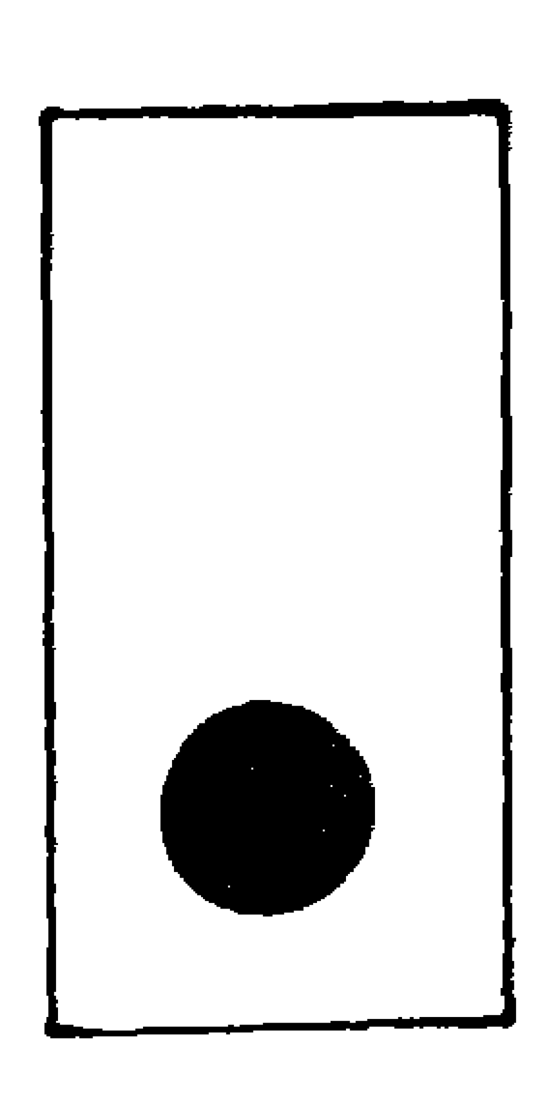
وتحسس هريدى الجنيهات العشرين التى فى جيبه . وفتح الشوال من جديد ليرى مافيه كان كل شىء مكانه ، حتى نسخة الجريدة التى تحمل صورته عند الفتحة والتى اشتراها بقرش صاغ لتتفرج عليها زوجته وكل الرجال فى بهـــادة .

وهبط هريدى الى الرصيف ، وقبل أن يترك الرصـــيف كان القطار قد تحرك .. ونظر هريدى الى قدميه كانتا عـــاريتين تماما ، لقد نسى « الفردة » الثانية داخل القطار ، اما الفردة الاولى فقد سقطت منه تحت العجلات عند بداية الرحلة .

وخطر له ان يجرى وراء القطار لياتى بالفردة ولكن القطار كان قـــد اختفى مع « الفردة » فى الظلام .. ورفع هريدى الشـــوال على كتفه ، وعلى تراب الارض الطيبة غاص هريدى باصابع قدميه الضخمتين .. ومضى مسرعا فى الطريق الى .. طما !



المرحوم



توقف العمل تماما في القرية فقد مات الشيخ فراج عند الفجر ، وعمت القرية فرحة شديدة لم تشهدها من قبل .

وعند الدرب الذى ينتهى الى المرحوم جلس الشيوخ على الارض فى حلقات يدخنون ، ويسألون عن اسعار القمح وعن موعد تدفق المياه فى الترعة ، ويثرثرون حول سن الشيخ فراج وهل حضر هوجة عرابى أم انه كان طفلا لايدرك شيئا .

وراح بعضهم يسرد فى حماسة قصص أحداث بعيدة له ، وللشيخ فراج عندما كان كل منهما فتى فى ربيع العمر ، وعلى مقربة من الشيوخ جلس الفتيان فرحين بالفرار من عناء العمل فى الحقول وراح كل منهم يقص مغامرة حديث بينه وبين الشيخ فراج عندما حاول سرقة ثمار الجوافة التى كان يملكها المرحوم عند الجسر ، وكيف ضربهم الشيخ فراج بعصا التوت الرفيعة وكان فى جسم كل فتى من ابناء القرية آثار من عصا المرحوم .

وانتشر الاطفال الصغار يلعبون فى الساحة الواسعة التى سيقام فيها « الصوان » فى الليل والبشر يغمر نفوسهم ؛ لان مساء ذلك اليوم لن يكون كئيبا مثل الليالى السالفة ، فستشع أنوار « الكلوبات » وسيمتد نورها فى

الساحة وسيلعبون حتى الفجر دون أن يزجرهم أحد فسـيكون الجميع فى المأتم حتى الصباح .

وكان الاطفال يرددون وهم يدورون حول أنفسهم لحنا سـاذجا أشبه بالنواح :

ـ حانسهر بالليل ، وناكل لحمة على روح المرحوم .

وكان يسـكتهم أحيانا عن ترديد اللحن مرور شـيخ عجوز مخترقا الحوش فى طريقه الى بيت المرحوم حيث يجلس الرجال فى انتظار تشييع الجنازة فيزجرهم بصوت غاضب وهو يلوح لهم بعصاه :

ـ ماتسكتوا ، جاتكم داهية ..

وكانت النسوة العجائز يجلسن فوق أسطح المنازل المجاورة لبيت المرحوم يروين فى أسى بالغ قصة الساعات الاخيرة لموت الشيخ فراج وكيف انـه سأل عن فلان .. وفلان وتنبأ بنهايته قبل ان تأتى النهاية بساعات .

وعند باب البيت كان الابن الاكبر للمرحوم يقف والحزن يبدو عليه ، وان كانت الفرحة تغمر كيانه فى حقيقة الامر ، فقد كان أبوه يملك طاقما كاملا من الملابس الجوخ والشاهى ، وكان يستعملها فى المناسبات الخاصة وقد جاءت المناسبة الخاصة ليستعملها الابن .

وكانت فرحته تمتد الى سبب آخر ، هو أن زواجه بمحاسن بنت شـيخ البلد كان مؤجلا لحين شفاء الوالد أو وفـاته ، ولقد أصبح الطريق الآن مفتوحا الى هنائه بعد أن تداركت أباه رحمة الله .

وكان الجو يسوده بعض الفتور فقد كان الجميع فى انتظار حضـور نجل الشيخ فراج الذى يعمل موظفا فى مصر ، وقد مرت ساعات طويلة قبل أن يحضـر .

وعندما حضر تم تشييع الجنازة فى دقائق ، وحمل النعش أربعـة ، شيخ البلد ، ومحمد الخفير النظامى ، وعبد السميع الاخرس ونجله الكبير ، فقد أصر على أن يحمل أباه حتى القبر .

وعندما جاء الظهر كان الرجال قد عادوا من المقـابر ، وتم اعداد

« الصيوان » وجاء المقرئون من البندر ، وجلس الناس يستمعون الى ترتيل آيات الذكر الحكيم ثم خيم الصمت على الجميع عندما حان موعد الغداء ، والتفوا فى حلقات يأكلون حتى شبعوا ، وكان الغداء ثريدا ولحم ضأن ، فقد كان المرحوم يملك قطيعا صغيرا من الخرفان وكان يرفض بشدة أن يذبح احدها ، فقد كانت تربية الخراف هواية عند المرحوم ٠

ولم تنقطع الثرثرة خلال الاكل فقد همس محمد الخفير وسط الشلة التى كان يجلس بينها ضاحكا :

ـ الله يرحمه كان نفسه فيها ٠

وعندما انتهى الجميع من الغداء ارتشفوا القهوة على عجل ودسوا أصابعهم فى صناديق الدخان فالتقط كل منهم لفافة ، وغادروا الصيوان مسرعين الى منازلهم ٠ وبقى البعض داخل الصيوان مضطجعين وهم يدخنون فى لذة وأصابع أرجلهم تتحسس وبر السجادة الفاقعة الالوان التى فرشت على الارض ٠

وزحف المساء على القرية وهى تموج فى النور ، وصوت المقرىء يلعلع فى أنحاء القرية ، وأبناء الكفور المجاورة يفدون جماعات ليشتروا اللعب وباعة الحلاوة « الغزل » يحتشدون حول الصيوان والابن الكبير فى طاقم الملابس الجوخ يستقبل الناس والابن الصغير الذى يعمل فى مصر يطوف عليهم بعلب السجائر كلما دخل الصيوان فوج جديد ٠

وجلس الشيوخ يرتشفون أقداح القهوة ، ويدسون شيئا لزجا أسود اللون فى أفواههم ويسألون الحاج وهدان فى الحاح أن يمزج لهم القهوة بالعنبر الذى يحمله ٠

وجلس الشبان عند باب الصيوان يختلسون النظرات نحو فتيات القرية عند مرورهن نحو بيت المرحوم أو عودتهن من هناك ٠

ومرت ساعات الليل على « القرية » سريعة شأنها شأن ليالى العيد والمقرئون يتبارون فى التجويد ، والفلاحون يمصمصون مع أبناء القرية المحظوظين شفاههم عجبا واستحسانا ، وفجأة سرت همهمة بين الجميع أشاعت اللغط فى أنحاء المكان عندما حمل محمد الخفير اليهم نبأ هز أعصابهم هزا ، خلاصته أن العشاء لن يقدم لوفود المعزين اكتفاء بما قدم فى الغداء ٠

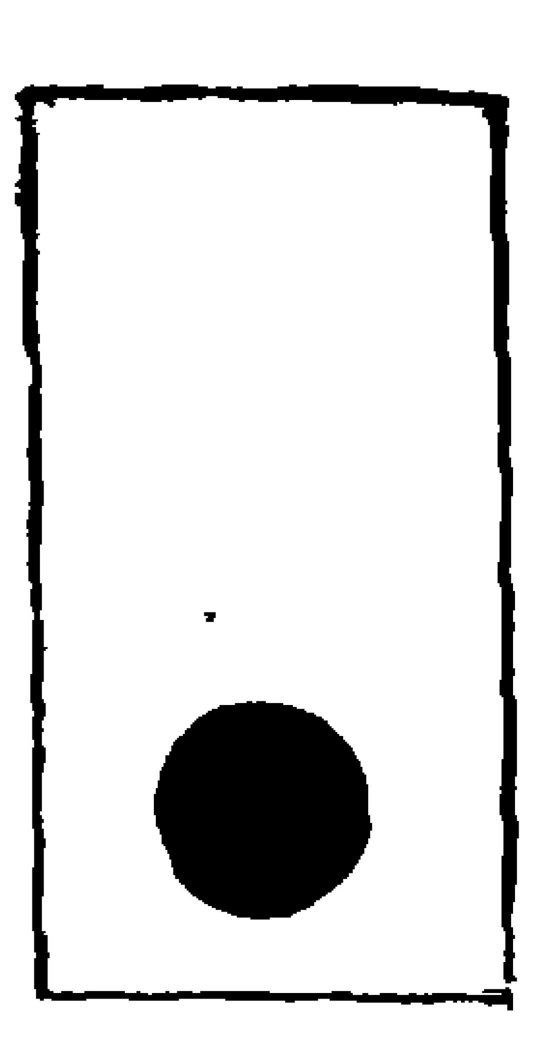
وأصيب الجميع بخيبة أمل شديدة ، وجلس الشيوخ ساهمين بعد أن اتوا على ما معهم من الشيء اللزج الاسود اللون ، وتسلل الشبان جماعات ليسيروا على الجسر فى الهواء الندى ، وهد التعب كيان المقرئين فخفتت أصواتهم ، وافتقدت الرنين الحلو الذى كان لها فى أول الليل ·· ولم يلبث الشيوخ أن تسللوا هم الاخرون وقد هاجمهم النعاس ، ولم يعد هناك غير المقرئين ، وبعض الذين فضلوا النوم على السجادة ذات الالوان فناموا حيث هم حتى الصباح ، وظل الاطفال يمرحون على ضوء المصابيح حتى نبلت هى الاخرى وأظلم المكان فعادوا الى دورهم من جديد ·

ولف الظلام الكئيب القرية وعاد نباح الكلاب يسمع آتيا من بعيد عبر المزارع والحقول ولم يلبث الفجر أن أشرق عليها وعادت الابواب تفتح محدثة صريرا أشبه بصوت عربة يجرها ثور على طريق حجرى وخرج الشبان بهراواتهم نحو الحقول ، والشيوخ على الحمير فى طريقهم الى البندر ، والاطفال يسحبون البهائم نحو الترعة ·

وعادت التعاسة من جديد تحتل قلب كل منهم ·

شىء واحد أعاد الامل الى قلوب أهل القرية ، فقد رأوا عند الكوبرى القديم المتآكل ـ الذى يفصل القرية عن بقية الكون ـ حمدان بن الشيخ عبد الرحيم يسرع الخطى فى طريقه نحو البندر لاحضار الطبيب ، فقد دهمت النوبة أباه ، وتذكر الناس فى القرية أن الشيخ عبد الرحيم مريض منذ أمد بعيد وأنه لن يعمر طويلا ، وستمضى على القرية أيام قليلة حتى يهبط عليها يوم اخر فيه حركة ·· وترفيه ·

البولوبيف



بعد التل الكبير بعدة كيلو مترات ، ترقد قرية المحسمة نليلة بين التلال ، فتبدو منازلها المتداعيـــة الى جـــوار سلسلة التلال الرهيبة وكأنها عابد صينى يركع فى فناء معبد بوذى قديم .

واهل المحسمة لا يعرفون أن لقريتهم شـــأنا عظيما . ولم يســـمعوا أن البلاغات البريطانية التى صدرت من جانب القيادة فى فايد خلالَ معركة القنال قد ذكرت اسم قريتهم اكثر من مرة ، ولم يسمعوا كذلك بـــأن محمـــد حسنين وسعدى كامل اللذين قتـــلا خلال المعركة قـــد صـــدرت بأســـمائهم وقصص استشهادهم ملاحق خاصة من صحف مصر .

لم يسمع اهل المحسمة شيء من هذا . فهم لا يقرأون صحفا ، والراديو الوحيد فى قريتهم فى دكان الشيخ عبد القادر ، وهو رجل لا يحب الليل ويعتقـــد ان دوره فى الحياة يتوقف عندما تغيب الشمس .. ولكنهم رغم هـــذا الجهـــل المطبق بأهمية قريتهم وذيوع صيتها ، كانوا يعلمون حقيقة واحدة تمس القرية من بعيد .. خلاصتها ان الانجليز يستخدمون الجبل القريب من القرية لاحراق بقايا الاطعمة . كانوا جميعا يعلمون السر .. وكانوا جميعـــا يتوجهـــون تحت جنح الظلام الى سفح الجبل ، ينبشون الارض بأظفارهم . بحثـــا عن شيء من الطعام لم تصل اليه النار . وكانوا دائما يجدون، وكانوا دائما يتعجبون لبلاهة هؤلاء الناس .. الانجليز . ولو انهم وزعوا هذه الاطعمة على ســـكان قريـــة المحسمة .. مثلا . لنال الانجليز ثواب الدنيا والآخرة ! ولكن ، هكذا شـــأن الاقوياء .. والانجليز على الاقل أقوى من أهل المحسمة .

المهم ان اهل القرية كانوا يعلمون انه فى ساعة معينة من ساعات النهار تقبل عربة او اكثر ، من عربات الجيش البريطانى فتعبر الكوبرى الخشبى على ترعة الاسماعيلية ثم تنحرف يمينا نحو القرية ، ومن هناك الى سفح الجبل ، حيث تتم عملية احراق الاطعمة على مشهد من اهل المحسمة ،واحيانا كانت العربات تتأخر قليلا عن موعدها ، واحيانا ايضا كانت تأتى مبكرة ، ورأى أهل القرية زيادة فى الاحتياط اختيار واحد منهم كل يوم ليقف على رأس الكوبرى المتهالك ، يرقب عربات الانجليز وهى فى طريقها اليهم ، وألف الناس فى المحسمة ان يستمعوا الى صراخ « الديدبان » يعلنهم فيه بنبأ ظهور العربات على الطريق ·

وفى ذلك الصباح السعيد هتف الديدبان :

ــ العربية جايه . .

فهرع الناس صوب الكوبرى يشهدون المنظر بأنفسهم ، وعندما رأوها سعدوا بمرآها ، فقد حدث أن انقطع ورود العربات سبعة أيام كاملة .

ولم تكن عربة واحدة ، كانوا ثلاثا . . وعندما أصبحوا فوق الكوبرى تماما سمع أهل المحسمة صوتا كالرعد ، فقد تهشم الكوبرى وسقطت عربتان فى الترعة واستدارت الثالثة عائدة بأقصى سرعة ناحية المعسكرات .

ولم ينتظر أهل المحسمة شيئا ، فقد خلعوا ملابسهم جميعا والقوا بانفسهم فى الترعة . وانتشلوا السائقين . . وراح كل منهم يجمع علب الصفيح التى تطفو على سطح الماء ، ويغوص فى الاعماق لينتزع من طين الترعة العلب الضخمة التى استعصت على التيار . وعاد أهل القرية الى منازلهم يحمل كل منهم مجموعة من علب الصفيح . . تحوى لحما محفوظا لم تمسه النار من قريب أو بعيد .

مجانين هؤلاء الانجليز . . هكذا قال أهل المحسمة وهم يلتهمون فى شراهة غذاءهم من محتويات العلب الصفيح ولو كان هذا هو الطعام الفاسد . . اين اذن هو الطعام الصالح ؟

لابد أنها حيلة انجليزية ــ هكذا قال أحدهم ــ ولابد أن الكبار الانجليز يتعمدون احراق هذه المأكولات ، حتى لا يصاب الجنود بالتخمة . وأكد هذا الذى قال ــ قوله بحكايات طويلة عن خدع الانجليز . . فقد سبق له أن عمل عندهم فترة خلال الحرب .

المهم ان قرية المحسمة سعدت ذلك اليوم وابتهج اهلها .. فقد حشوا بطونهم بما زنته خمسة اطنان من اللحم اللذيذ السهل المضغ وهى كمية كبيرة لم تكن تحلم القريه أن تستهلكها ولو بعد جيل .

رجل واحد شهد القصة من البداية ولكنه لم ينل شيئا . فقد كان عبد المقصود يجلس تحت الشجرة عند الكوبرى عندما سقطت العربة ، وكان هناك عندما اندفع سكان القرية كالسيل المنهمر صوب الترعة . وكان هناك عندما خرجوا جميعا من الماء منطلقين بأقصى قوتهم مندفعين كأنهم فى يوم الحشر الى منازلهم . كان هناك ، ورأى كل شىء . ولكنه لم يأخذ شيئا . فعبد المقصود بلا ساقين ، وصرخاته لم تستطع الوصول الى احد وقت الصراع الرهيب حول اقتناص اكبر عدد ممكن من الصناديق العائمة . ورغم ذلك فقد توسل عبد المقصود لطوب الارض فى المحسمة ان يعطيه احد ، ولو علبه ليرى ما بداخلها . ولكن لم يرض احد منهم .

ان المسألة مسألة رزق وهو نفسه كان هناك . ولابد أنه كان مكتوبا عليه الا يأخذ شيئا . ان لكل منا نصيبه فى الحياة ، وسيأخذ كل منا نصيبه . هكذا قال الذين راحوا يفلسفون الامر لعبد المقصود .

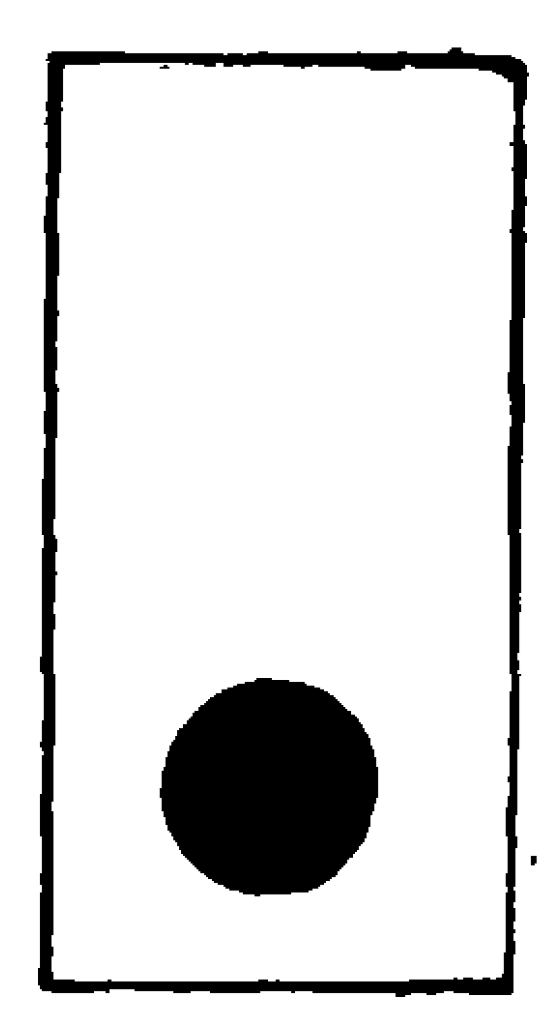
كانت الشمس قد بدأت تختفى خلف قمم التلال المحيطة بالقرية ، عندما وصل عبد المقصود الى مكانه بجوار الترعة . وكان الجنود الانجليز قد أوشكوا على الانتهاء من ترميم الكوبرى . حين راح عبد المقصود يفكر فى الامر مليا ، وعيناه تبحثان فى قلق فوق سطح الماء عن شىء من حمولة الصباح .. ولكن صرخة اليمة قطعت عليه تفكيره . ولم تنقطع الصرخة ، بل تبعتها صرخات ، وشاهد عبد المقصود اشباحا تهرول وسط القرية ، واشباحا تسقط على الارض . والصراخ يعلو وينتشر . وكأنما شب حريق هائل فى أنحاء القرية .

وزحف عبد المقصود من مكانه نحو قلب القرية مستفسرا عن حقيقة الامر وكان هناك حريق .. ولكن فى بطون أهل القرية . فقد احس كل منهم فجأة بخناجر حادة تمزق احشاءه . وارتمى كل منهم يفرغ ما فى جوفه من طعام . وخرج بعضهم يجرى كالمجنون فى أنحاء القرية بحثا عن شىء لا يدركه . ولم تمض ساعات حتى كانت قافلة من العربات تجرى على الطريق بسرعة نحو القرية ، ولكنها كانت عربات من نوع جديد . وكانت أجراسها تدق دقات منتظمة رهيبة . وعندما وصلت راح الرجال الذين كانوا بداخلها يحملون اهل

القرية على نقالات الى جوفها . وعبد المقصود يشهد كل ذلك عن كثب ، فهو الوحيد الذى لم يشعر بألم . وان كانت امعاؤه تلتوى من الجوع ورنت كلمة « تسمم » فى اذنه فى الوقت الذى شاهد فيه رجال الاسعاف يحملون معهم ما تبقى من علب اللحوم المفتوحة والمقفلة . علب كثيرة تكفى لاطعام قبيلة . ولكن من اين جاء التسمم لاهل القرية . هل جاءهم من العلب ؟ لا يمكن ، ان عبد المقصود يذكر جيدا أن اهل القرية يأكلون هذا الطعام منذ أن عسكر الانجليز الى جوارهم فلم يصبهم التسمم يوما ، لابد انه المغص أصابهم من جراء مياه الترعة الباردة فى هذا الوقت من الشتاء .

وزحف عبد المقصود نحو الحائط ليفسح الطريق لعربات الاسعاف التى انطلقت مسرعة وسقطت علبة كبيرة من العربة الاخيرة . . علبة كاملة لم تفتحْ بعد ، تدحرجت على الطريق ، واستقرت الى جوار عبد المقصود ، ومد يده فالتقطها . وراح يقلبها بين يديه يتفحص جوانبها . ثم زحف من جديد على أرض الشارع فى طريقه الى مكانه المعهود عند جسر الترعة . وعندما وصل الى هناك كان الظلام قد بدأ ينشر أرديته على القرية وعلى التلال المحيطة بها. والجنود الانجليز قد اوشكوا على ترميم الكوبرى . واسند ظهره الى جذع الشجرة العجوز . . وابصر قافلة عربات الاسعاف تنطلق أمام عينيه من بعيد نحو التل الكبير . . واضواؤها تبدو خافتة . ورنت فى اذنه « قرقرة » بطنه الخاوية كأنها صرخات أهل القرية . ومد يده فالتقط حجرا دق به العلبة فأحدث بها ثغرة واسعة . وغاص بأصابعه الخمسة فى جوفها . وراح عبد المقصود يمضغ اللحم الطرى فى لذة فائقة . واحس بالراحة تسرى فى كيانه ، وبالسعادة تغمر نفسه . والقى عبدالمقصود بالعلبة الفارغة ، وتنهد بارتياح عميق . وتدحرج راسه الكبير على صدره البارز العظام . وراح عبد المقصود فى نوم عميق .

مادام هناك نساء



نفخ الشاويش عبد الرحيم من شدة الضجر ورفع يده الى فمه فمسح شفتيه ، ثم أمال طربوشه الى الخلف قليلا ، ووضع البندقية بين ساقيه وأخرج منديله المحلاوى فجفف به عرقه الذى يتساقط من جبهته العريضة على غضون وجهه الكالح البارز العظام ·· ثم اعتدل الشاويش فى وقفته فأصبح مثل شجرة عجوز يابسة ثابتة فى الارض ·· وتلفت فى أنحاء العربة الاخيرة من قطار بور سعيد ·

كانت العربة مزدحمة ، حارة مزعجة ، ورغم أن النوافذ كانت مغلقة الا أنها كانت تبدو وكأنها تحمل مع الركاب شحنة من التراب !

ونظر الشاويش عبد الرحيم الى نفسه من تحت الى فوق ، ومن فوق الى تحت ، كانت البدلة « الميرى » كالحة مثل وجهه ، والحزام نازل قليلا عن المستوى اللائق ، والبنطلون أيضا نازل أكثر من اللازم على الحذاء ، والحذاء مغبر مجروح فى أكثر من موضع ، وحتى الرباط مفكوك ، وزوج الكلبشات مازال فى يده ، كان منذ برهة فى يدى مجرم رهيب سلمه فى القسم فى القاهرة قبل أن يعود الى مقر عمله فى محافظة بور سعيد ·

وتذكر الشاويش عبد الرحيم منظر المجرم والكلبشات فى يديه ، وقفاه العريض الغليظ فى أصابعه هو النحيلة المدببة كأنها رجلا دجاجة هزيلة ·
وتذكر منظره وهو ساهم أبدا ، مطرق الى الارض فى ذهول على

الدوام · ولكن سرعان ما طرد الشاويش صورة المجرم والكلبشات والنظرة الساهمة الحزينة عن خاطره وعاد من جديد ينظر حوله فى أنحاء العـــربة والقطار يجرى به مسرعا كالقدر فى طريقه الى بنها ·

وحدث الشاويش نفسه فى أسى ·· هؤلاء الجالســـون فى بلاهة ·· انهم لا يتعبون مثله ومع ذلك ينظرون اليه نظرات يحمل بعضها معنى الشماتة لانه واقف « زنهار » مع أنهم يعرفون أنه شاويش وأنه فى مهمة رسمية لان البندقية فى يده والكلبشات مع استمارة السفر فى يده الاخرى ·

وعاد عبد الرحيم يجفف عرقه المتساقط حافرا لنفسه فى تجاعيـــد وجهه النحيل قنوات ·

واهتز فى وقفته وكأنه سيسقط والقطار يتأرجح وكأنه يجرى على غير قضبان ، ولم يفكر الشاويش ، فتقدم على الفور الى ثلاثة كانوا محشـــورين على مقعد مخصص لراكبين ، وبلهجة آمرة تحمل كل الضجر الذى يحسه ·· ووجه الحديث اليهم جميعا :

ـ فســح يا جدع انت وهوه ···

وأفسح الثلاثة سريعا للشاويش وسقط الثالث الذى كان يجلس عند الحرف فوق الارض ·

وهكذا وجد عبد الرحيم نفسه جالسا على الكرسى والطربوش عـــلى ركبته ويده على المنديل تمسح شعر رأسه الاشيب المبلل بالعرق ، وأطـرق عبد الرحيم فترة يستعيد فيها قواه ، ثم رفع رأسه فى تثاقل وتمتم فى سرعة يشوبهـــا الضـــجر :

ـ لامؤاخذة يا رجاله ···

ولم يجبه أحد من الجالسين ·· ويبدو أنه لم يكن ينتظـر جوابا ·· فضرب يده فى جيبه الخلفى وأخرج علبة سجائر من الصفيح الانجليزى ، وأخرج منها سيجارة رخيصة وضعها بين شفتيه وأشعلها من رجل يجلس أمامه على الارض بين المقعدين وراح يجذب أنفاسا عميقة ·

وسادت فترة صمت قبل أن يتكلم الشاويش عبد الرحيم :

ـ فاضل أد ايه على بنها ؟

وجاء الجواب من خلفه :
ـ مابقاش فاضل ٠٠٠

ثم خيم الصمت من جديد ٠٠ ولكن هذا الصمت لم يتعوده الشاويش عبد الرحيم ، والرحلة طويلة ، وهو فى حاجة الى أن يتكلم ـ أى كلام ـ ومع أى أحـــد ٠

ولكن كيف السبيل ؟ والذين من حوله يبدو أنهم من هواة الصـــمت البليغ ، وفكر الشاويش عبد الرحيم برهة ثم نظر الى الذين حوله ٠٠ رجـــل فى ملابس بلدية عجوز طحنته السنون وأكلت معها نور عينيه ، وفلاح يبدو أنه لا يعرف شيئا ، والرجل الثالث الذى كان على المقعد قبـــل أن يجلس الشاويش فقد آثر الصمت فجلس على الارض بجوار الكرسى ٠

وعلى المقعد الامامى كان هناك أفندى يبدو أنه متكبر وخواجه مـن الاروام ، ورجل فى ملابس متسخة وتحت قدميه صقيحة تحدث ضجيجـــا كلما اهتز القطار ٠

ونظر الشاويش الى الرجل المتسخ وراق له أن يتحدث اليه ، فهـــو وحده الذى يبدو فى حاجة الى الحديث ٠٠ وهو أيضا الذى يستطيـــع أن يتحدث اليه دون أن يخشى منه صدا ٠

وبلهجة باردة قال الشاويش للرجل المتسخ متسائلا :
ـ بتشتغل ايه ؟

وانتفض الرجل مذعورا ، وأدار رأسه الصـــغير الحليق كقطعة بطاطا مسلوقة فى كل اتجاه ، ثم أجاب أخيرا بعد أن تأكد انه هو المقصود بالسؤال وان السؤال قد يكون للتحرى :
ـ فى الخـــردة ٠٠٠

وفتح الشاويش عبد الرحيم فمه فى دهشة بلهاء وهز رأسه قبـل أن يقـــول :

ـ فى مصر ٠٠ والا فى الاسماعيلية ؟
ـ فى مصر باذن الله ٠٠٠ انما باشترى الخردة من الاسماعيلية ٠
وعاد الشاويش عبد الرحيم يقول :
ـ من الكنوبة ؟ (جمع كامب) ٠

وابتسم تاجر الخردة فى اطمئنان ودهشة لمعلــومات الشــاويش الواسعة ··· وأجاب :

ـ أيوه ···

ولكن الحديث انتهى عند هذا الحد ·· وفكر الشاويش فى موضـــوع اخر للحديث ، غير أن تاجر الخردة فاجأه بقوله :

ـ أنا واخواتى ···

وانفرجت أسارير الشاويش عبد الرحيم عن ابتسامة هادئة كـــانت عابرة بوجهه الكادح المنهوك وقال فى هدوء شديد :

ـ واخواتك معـــاك ؟

ـ أيوه ··· ستة ··· وعايشين مع بعض ·

ـ ربنـــا يخـــلى ···

وهز الشاويش عبد الرحيم رأسه فى غير عنف وكأن فكرة رائعة قـــد لمعت فى ذهنه ··· ثم قال :

ـ تعرف ! العيلة اللى زى دى ، مايفرقهاش الا الحريم ·

وعلى الفور نطق الرجل العجـوز الجـــالس الى جوار الشـــاويش عبـــد الرحيـــم :

ـ قطعت الحريم وأيامها ، هم اللى جايبين الكافية للعالم ·

وهتف الشاويش عبد الرحيم مؤمنا على حديثه :

ـ اسم الله عليك ··· هم سبب الفساد والبلاوى ··· انمَا الراجل « الجدع » صحيح هو اللى يعرف يدق مراته على راسها ··· تعـرف ··· أنا كان عندى حريم فى البيت ··· على الطلاق من دراعى ماكانوا يبصوا من شباك ولا من باب ·· ماعندناش مسخره أبدا ·

وهتف تاجر الخردة :

ـ ونعم الرجال ··· مفيش كلام ·

وخيم الصمت من جديد ، وتناول الشاويش عبد الرحيم عود كبريت من الخشب وراح يحفر به أسنانه السوداء التى نخرها السوس ، ولكنـــه سرعان ما قذف بعود الكبريت الى الارض وقد ظهر الغضب على وجهه بعـد أن سال الدم من فمه ولطخ شفتيه ، ونظر الرجل ذو الملابس القــــذرة الى الشاويش فى ألم مفتعل ، وفى وجهه يبدو الرياء الشديد والرغبة فى النفاق ،

وهز الشاويش عبد الرحيم رأسه فى غضب وعصبية ومصمص شفتيه أسفا قبل أن يقول :

ـ تعرف ٠٠٠ كبريت اليومين دول سم !

وظهرت الدهشة على وجه تاجر الخردة وتساءل مستنكرا قول الشاويش :

ـ سم ٠٠٠ ؟!

ـ أيوه سم ٠٠٠ تعرف كبريت زمان كان فيه البركة ٠٠٠ يا سلام !

وهز تاجر الخردة رأسه مؤمنا على رأى الشاويش وهتف مسرورا :

ـ كلام حلو ٠٠٠ الكبريت بتاع اليومين دول شغل بره ، كل شغل بره سم !

وكان القطار قد دخل محطة بنها وأخذ الناس يستعدون للنزول ، ورغم أن عدد النازلين كان كثيرا الا أن الزحام ظل على أشده والضجة الهائلة تمزق ما تبقى من أعصاب الناس ، وظهر على الافندى الجالس أمام الشاويش الضيق الشديد بسبب الزحام ، وكان الشاويش منهمكا فى تجفيف عرقه بمنديله المحلاوى العريض عندما لمح على أسارير الافندى هذا الضيق الشديد فمال بجسمه الى الامام وقال للافندى بهمس مسموع وكأنه يدلى اليه بسر خطير :

ـ تعرف الزحمة دى من ايه ؟

ولم يجب الافندى ، فواصل الشاويش حديثه قائلا :

ـ من الانجليز !

ـ انجليز ؟!

هتف بها الافندى فى دهشة ، اذ لم يكن فى العربة انجليزى واحد ، وابتسم الشاويش فى خبث من يعرف الاسرار جميعا ، وقال بنفس الصوت الخافت المسموع :

ـ أنا مسكت داورية سبع سنين عند الكنوبة ٠٠ تعرف الانجليز دى ، ربنا غضبان عليها ٠

وهتف بائع الخردة مسرورا :

ـ الله اكبر ٠٠٠ يا سلام ٠٠ كلام زى الشهد ٠

وقال الشاويش عبد الرحيم فى كبرياء :

ـ أمال ··· وتعرف غضبان عليهم ليه ؟! هناك الست زى الراجل ؛ والراجل ده ولا حاجه !!

وعاد الرجل العجوز الذى طحنته السنون ينصت فى اهتمام بالغ ثم أخرج علبة نشوق أخذ منها حفنة بين أصابعه وراح يعطس بشدة ·· وأخرج الافندى منديله ووضعه على فمه وقد أدار وجهه إلى الناحية الاخـــرى ، ولم يترك الشاويش هذه الفرصة تمر دون أن يتحدث فقال للافندى :

ـ والله مافيه حاجه بتحوش المرض أبدا ، ده كله أمر ربنا ، تعرف أيام الكوليرا ، كنت آكل بلح من غير غسيل ، ولا اتحقنت ولا حاجه ، دى الحقن بتجيب العيـــا !!

وضحك الشاويش عبد الرحيم ضحكة هزيلة قبـــــل أن يستطرد فى الحـــديث :

ـ تعرف أيام الكوليرا دى بقيت أقول اياك تمسح صنف النسا من على وجه الارض ، كان العالم صحيح يرتاح ·

ـ مضبوط والله ··· كلام زى الشهد ·

هكذا صاح بائع الخردة وهو يناول الشاويش سيجارة رخيصة مـــن سجائره ، وبعد أن أشعلها له صاح من جديد :

ـ ده الستات دول لعنـــــة ···

وعقب الشاويش قائلا :

ـ تعرف ··· مش كله !

ـ أيوه ··· مش كله ··· مضبوط !

ـ اسألنى أنا ··· حاكم أنا لفيت الاربعتاشر مديرية ، مديرية مديرية ، فيه ستات تمام ، تصلى وتصوم وتعرف ربنا مضبوط ، انما دى واحدة فى الالف ، ويمكن فى المليون !

ـ مضبوط ··· فى المليون ، ده أنا كنت أعرف واحده ســت بتضرب جوزها بالشبشب !

ـ تعرف ايه ··· هو انت شفت حاجه ، بقولك اســألنى انا ، ده ياما ناس من النوع ده ، أمال هو غضب ربنا ده من شويه ··· ده سيدنا الخضر قال عليكم بالنسا هم أصل الفساد ·

وظهرت النشوة على وجه بائع الخردة وهتف فى ارتياح :
ـ ياسلام ··· ونعم يا عم ·
وعاد الشاويش يقول :
ـ أمال ، دى حاجات مثبوتة كلها بس فين اللى يقرا واللى يسمع ·
وقال بائع الخردة فى زهو :
ـ مضبوط ··· أهو ياما ناس بيقروا ويكتبوا ، انما فين النـاس اللى تعرف الكلام المفيد ده !

وقال الشاويش عبد الرحيم :
ـ الكلام ده وغيره ، ياما فيه كلام زى الشهد ، انما طول صنف الحريم ده ما هو فى العالم مافيش فايده ·
وكان القطار قد غادر « منيا القمح » فى طريقه الى « أبو حماد » ·· وأخرج الشاويش ساعته الضخمة من جيب سترته ومسحها بمنديله ثم هز رأسه فى اعجاب :
ـ يا سلام ··· سواق « جدع » صحيح ·
وهتف بائع الخردة :
ـ من بختنـــا ···
ونظر الشاويش عبد الرحيم اليه نظرة كبرياء وقال فى زهو شديد :
ـ تعرف ··· أهو اللى زى ده تلقاه بعيد عن صنف النسا ، أنا أيام ماكنت متجوز بصراحة يعنى كنت مش ملتفت لعملى ، دلوقت مابونش ·
ومال تاجر الخردة الى الامام وهمس للشاويش وكأنه يلقى اليه بسر رهيب :
ـ أمال الست فين دلوقت ؟!
وتنهد الشاويش عبد الرحيم فى أسى عميق :

ـ ياه ··· تعيش انت ··· كانت صاحبة عيا ، وربنا افتكرها مـن عشرين سنة ، ومن يومها والله ··· صمت عن صنف الحريم ده ··· مـن خمستاشر سنة جيت أجوز تانى ، بنت جماعة من بلدنا ، قعدوا يتمحكـوا المهر ايه ··· والعفش ايه ··· والسكن ايه ، حلفت يا شيخ بيت طـلاق من دراعى ماتجوز ، قلت يعنى حاجيب ايه ، أهى تهمة ··· ومن يومها ·
ـ عين العقل ، ونعم الرجال ، أنا راخر وحياتك دلوقت بتـاع أربعين

سنة سن انما مافكرتش فى جواز من أى حرمة ، حاكم أنا ساكن مع أمى ، واحده ست عجوزه تصلى الوقت بوقته وست أخوات. ، ولامؤاخذه عايشين كلنا فى مطرحين ، هاتجوز اوديها فين ؟ كفاية الواحد يدوب يعرف يجيب لقمة العيش وبس ٠

ـ ريحت نفسك والله من الخوته وعدم الراحة ، تقطع الحريم وأيامها ٠

وكان القطار قد بدأ يزحف ببطء نحو رصيف محطة أبو خحاد ، وعندما توقف تماما كان الازدحام الشديد قد خف بعض الشىء ٠

وصعد بعض الناس الى العربة ، عامل وافندى وبائع كازوزة وافندى وامرأة ٠٠٠ امرأة جميلة مشرقة مثل الصباح الجميل ، وهدأ الركن الـذى كان يجلس فيه الشاويش عبد الرحيم والافندى والخواجة ، هدأ تماما ، وقد تسمرت عيون الشاويش وبائع الخردة على الحسن الصارخ الملفـــوف فى الغلالة الرقيقة السمراء ، التقت عينا الشاويش عبد الرحيم بعينى بائع الخردة ٠٠٠ كان الاخير يلعق شفتيه ولعابه يسيل من جانب فمه المفتوح ٠

ومضت فترة صمت قصيرة قبل أن ينهض الشاويش واقفا ليصـلح من هندامه ، وعيناه لا تبتعدان عن المـــرأة التى وقفت فى ركن قريب ٠٠٠ وأصلح الشاويش عبد الرحيم من الحزام ، ورفع البنطلون الى الحد اللائق ، وثبت ياقته المنشاة وأحكم تثبيت زراير الجاكتة ، وأخرج منديله المحلاوى الذى كان يمسح به عينيه منذ برهة فبلله بلعابه وانحنى حتى الارض فمسح الحذاء فى همة قبل أن يعتدل واقفـــا من جديد ٠٠٠ ومر بائع غازوزة ، فاصطدم بالسيدة فاحتجت ، وثار الشاويش ثورة عنيفة :

ـ انت يعنى عميت ٠٠٠ مش شايف الست ، صحيح ناس مافيش عندكم دم ، عالم ايه الزلط دى !

ـ كلام مضبوط ٠٠ ناس مايختشوش ، وتقدم الشاويش خطوتين الى الامام وفى يده البندقية والكلبشات على الكرسى وابتسم للسيدة فى حياء :

ـ اتفضـــلى يا ست ٠

وفى حياء مصطنع ودلال ظاهر قالت السيدة :

ـ اتفضل انت ٠٠٠ كتر خيرك ٠

وابتسم الشاويش فى خبث قبل أن يقول :

ـ ده واجب يا ست ٠٠ اتفضلى انت من الزحمة ٠

و « تفضلت » السيدة وجلست ودار حوار طويل قبـــل أن يعـــرف الشاويش انها فى طريقها الى أختها فى شارع الثلاثينى بالاسماعيلية ٠٠ وانها ستمر من نفس الطريق الذى سيمر به وانه أيضا سيقوم بمهمة توصيلها الى المكان الذى تريد ٠

وعندما وقف القطار في محطة الاسماعيلية خرج الشاويش ومعـــه السيدة ، فعبرا الكوبرى معا وخرجا من الباب العمومي الى الميدان الفسيح ثم توقف الشاويش فجاة ولم تنتبه السيدة الا والشاويش يجـــار باعلى صوته : جاى ٠٠ جاى ٠٠ جاى ٠٠ ثم جرى بأقصى سرعة الى داخل المحطة ، كانت خاوية هادئة الا من بعض الباعة والحمالين ، والقطار الذى كان هناك منذ لحظة تركها فى الطريق الى بور سعيد ، وزوج الكلبشات قد نسيـــه الشاويش داخل العربة ومعهما « أورنيك » تسليم المجرم في محافظة مصر ، وتاجر الخردة اختفى هو الآخر عن الانظار ٠



مولد الشيخ حمزة

عندما عبر محمود الدسوقى كوبرى شبرا البلد كانت الشمس قد أخذت تعلو فى الافق باعثة حرارتها القوية الشديدة فى يوم من أيام شهر أغسطس القائظة ، وكان التعب قد استبد به تماما رغم انه لم يكن قد قطع من الرحلة الطويلة التى فرضتها عليه الظـــروف الا شوطا قصيرا ٠ فهو منذ الصباح الباكر يلهث متعجلا على الطريق قاطعا المسافة من صحراء العباسية حيث مقام الشيخ حمزة فى طريقـــه الى قريتـــه بهنـــاى بالمنوفية ٠

ورغم انقضاء كل هذه الساعات الطوال الا أنه لم يقطع شيئا يذكر ولم تزل امامه ساعات اخرى طويلة مملة فى مثل هذا القيظ الرهيب ٠ وبسمل محمود الدسوقى وهو يرفع ذيل جلبابه الاسود الكشميرى ليغطى به رأسه وخطا نحو اليمين محتميا بظل الاشجار الطويلة البائسة التى تعرت من اوراقها قبـــل الاوان ٠

وعاد محمود يذكر وهو يحث الخطى على الطريق ما حدث له بالامس ٠٠ الامس !!؟ ياله من يوم رهيب مر عليه وكأنه عام رغم وجوده على بعـــد امتار قليلة من ضريح سيدى حمزة صاحب المعجزات والكرامات التى تدوى كالطبل فى انحاء المنوفية ، وابتسم محمود الدسوقى رغم الاعياء الشـــديد فانفرجت ابتسامتهعن فم واسعمهجور ٠ ولثةخربها الداء وسنة واحدة متآكلة

تقف وحدها فى الفم الواسع العريض كأنها شاهد قبر فى صحراء مجهولـــه الحدود ..

ورفع محمود يده يجفف عرقه بذيل جلبابه دون ان يبعده عن رأسه ثم دس يده فى طيات ملابسه الداخلية حتى لامست ظهره المحدودب واخذ يهرش فى حركة منتظمة وبصوت رتيب مسموع ، وازاح ذيل جلبابه قليلا الى الخلف من رأسه ورفع عينه الى السماء وحملق فى قرص الشمس التى بدت كطاقـــة جهنم ..

واستعاذ محمود من جهنم ومن قرص الشمس ، ثم جال ببصره فى الفضاء الواسع العريض ، كان للهواء لزجا جافا راسبا فى كثافة على مقربة من سطح الارض ، وثمة طيور تطير شاردة نحو الشمال فى بطء ممل ، ثم غض بصره نحو الارض ونفخ فى شدة ، وزام فى اسف عميق ، وراح يتذكر وهو يتدحرج على الطريق الجاف المغبر الطويل ما حدث له .. منذ الصباح الباكر لاول امس .. وهو نائم كالكلب بجوار الفرن « ومباركة » زوجته تعد له « طرحة » العيش القمح ، والخروف بجوار الفرن ليحمل كل هذا فى الصباح للشيخ حمزة ..

كان النهار قد انبثق والشمس لم تظهر بعد ومحمود يهرول على الطريق الزراعى ساحبا الخروف فى عنت والنوم لم يبرح جفونه بعد ، ومباركة تتقدمه تحمل « مشنة » العيش على رأسها حتى وصل الركب الى النقطة الثابتة ،واكثر من عربة اوتوبيس مرت من امامه وهو لايستطيع الركوب ومعه الهديه المبروكه لان الكمسارية لم يكونوا سمعوا بعد بسر الشيخ حمزة الباتع ..

ووصل محمود اخيرا الى القاهرة قبل الظهر بقليل ، وقطع المســـافة من شبرا الى العباسية على قدميه و « المشنة » فوق رأسه والخروف يسحبه بحبل طويل علقه فى رقبته وقدميه ..

وعندما وصل الى المولد لم يكن هناك خلق كثيرون ، كان الحر شديدا مرهقا ، والشيخ حمزة الصغير ممددا على السجادة العجمى الفاخرة ومـــن حوله بعض المريدين الذين ظلوا على ولائهم للشيخ الصغير بعد ان انتقـــل الشيخ حمزة الكبير الى مولاه ، وضريح الشيخ الكبير يتضوع عبيرا ونورا ، والمكان كله يعبق برائحة البخور ، ودار رأس محمود الف مرة قبل ان ينادى على الشيخ حمزة ، وهكذا نهض الشيخ من مجلسه متثاقلا ومن خلفه مريدوه

حتى وصل الى محمود فلم يتمالك الاخير نفسه فانكب على يده مقبلا اياها قبلات سريعة متلاحقة ٠٠

وهكذا افلت الخروف من يد محمود وشرد فى الصحراء الواسعة ،وساعة كاملة ومحمود يجرى خلف الخروف الشارد متوسلاً بطوب الارض « حلـــق يا جدع ٠٠ امسك يا خويا » والشيخ حمزة ومريدوه يشرفون عـلى عمليـة المطاردة حتى استطاع محمود ان يمسك بالخروف بعد ان فقد ما تبقى فيه من جهد قليل — وسحب الخروف من اذنيه حتى سلمه للشيخ وعلى شفتيه ابتسامة عريضة استطاع ان ينتزعها فبدت صفراء باهتة لا معنى لها ٠٠

وهمس الشيخ فى أذن واحد من الملتفين حوله وسرعان ما ظهرت بالقرب من الجمع المحتشد عربة فارهة نزل منها سائق حمل الخروف داخلها ثم انطلق بها مثيرا خلفه غبارا شديدا آذى عينى محمود رغم انه كان وقتئذ مطرقا الى الارض فى حياء شديد ٠

ولم يدر محمود اين ذهب الخروف ولكنه عرف مصير « المشنة » فقـــد دخل بها رجل عجوز مخترقا الساحة الكبيرة الى ركن قصى حيث يقوم بعض الرجال بالطبخ على قدم وساق لتجهيز العشـــاء للوافدين مـــن الريف والمدينة لاحياء الليلة الكبيرة لمولد سيدى حمزة ، وعندما رفع محمود عينيه الى اعلى لم يجد الشيخ ولا احدا من مريديه ٠٠ فحمد الله فى سره لانه كان يود الجلوس ليستريح ٠٠

وجلس محمود قليلا على الرمال الناعمة الباردة حول الضريح ٠٠ ولكن قلبه كان يأكله لزيارة اخيه فى القلعة ، لم يكن له سواه ٠٠٠ وقد هجـــر القرية صبيا وجاء الى المدينة واشتغل صبى بقال وموزع عيش « فينو » ابيض ثم خفير ثم نشبت الحرب فكون نفسه واستطاع ان يمتلك لنفسه بيتا وان يتزوج واحدة من مصر طويلة وبيضاء مثل الجير ولم يعد بينهما اتصال الا فى مثل هذه المناسبات القليلة ٠٠

وخلع محمود نعليه ودخل الى الساحة الكبيرة ومن ثم انفلت الى ضريح الشيخ حمزة فقرأ الفاتحه مرات مترحما على والديه وعلى اموات المسلمين جميعا ، ثم دار حول الضريح مرات متمتما ببضع امنيات ساذجة ثم دار حول الضريح من جديد قبل ان يغادر المكان كله وهو يمسح وجهه بيديه فى طريقه الى القلعة ٠

ووصل محمود الى منزل اخيه بعد العصر بقليل فتوضأ وصلى العصرثم القى عليه اخوه عدة اسئلة قصيرة عن البلدةوحال الذين فيها اجاب عليهامحمود فى اختصار شديد ، ثم قص على اخيه وهو جالس القرفصاء يتناول طعـــامه من بقايا طعام الامس قصته مع الخروف فى البلدة عند الفجر وفى صـحراء العباسية عند الظهر ، وبان الغضب الشديد على وجه اخيه وهو يستمع اليه ثم صرخ فى وجهه مؤنبا :

– انك اولى بهذا الخروف ، هل اكلت حتى حمدت الله وشربـــت حتى ترتويت ، ثم لم يبق الا موالد الاولياء واضرحة المشايخ ، ستعيش وتمـــوت فلاحا » لا تفهم حال الدنيا وكيف تسير الان ..

ورفع مبروك – وهذا اسمه – ساقيه وضم يديه حولهما على هيئة دائرة وعاد يصرخ فى محمود ..

– انظر الى ، هل ارسلت شيئا ، هل ذبحت دجاجة .. لماذا لا تفعـــل مثلما افعل . او انك تفعل هذا لكى يقول الناس « والله محمود راجل عـــــال وعمدة » . لماذا لا تعيش فى حدودك ايها الابله ثم .... وهرش مبروك فى انفه قبل ان يقول :

– ثم اخوك .. أليس اولى من الشيخ حمزة ، هل يأكل الشيخ حمزة .. هل يشرب .. ان اولاده فى بحبوحة من العيش . فابنه حمزة الصغير مدير فى الوزارةوالاخر طبيب والثالث ضابط بوليس والرابع فى الجامعة ، وانت ؟ لا شىء ، لم يكن عندك سوى الخروف وقد سحبته بنفسك للشيخ حمزة .

ورد محمود فى خوف شديد من كلام اخيه الذى يبدو معقولا الى حد مارغم ما فيه من كفر شديد ..

– أصله نذر علينا ..

– نذر .. هكذا صاح مبروك فى تهكم لاذع .. ومن قال لك انذر شيئا .. لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، اراهن انك لم تأكل اللحم طول العام وجلبابك تملؤه الثقوب وكأنه غربال ، لقد هرمت ويبست واصبحت جلدا عـــلى عظم وستموت قبل الا وان ، ولكن لك ان تفعل ما تريد فلن أنصحك حتى تموت .

وتوقف محمود عن ازدراد الطعام الذى امامه رغم أنه كان يحس جوعـا

يمزق احشاءه ، وجذبت زوجة اخيه غطاء رأسها الى الامـــام حتى لامس حاجبيها وقالت فى لهجة مضغوطة وكأنها تتحدث من انفها ٠

ـ أكمل اكلك ، والا الكلام اللى فى صالحك يزعل ، احنا مالناش دعوة ، كل واحد عقله فى رأسه يعرف خلاصه ٠٠ ثم قامت فغادرت الحجرة عـــلى الفور ، وظل الرجلان صامتين كأنهما تمثالان من النحاس حتى بعد ان نهض محمود وغسل يديه ثم عاد ولبس الحذاء وتأهبللخروج ، ولم يحاول اخوه ان يستبقيه بل مد يده فى فتور بورقتين من فئة العشرة القروش دسهما فى يـد محمود الذى طوىاصابعه الخمسة عليهما على الفور ، ودون ان يســـتدير لمواجهة اخيه فتح الباب فى هدوء وانصرف عائدا الى العباسية ٠٠

وصل محمود الى ساحة المولد فى المساء ٠٠ كانت الانوار تتلألأمنبعيد وصوت مرتل التواشيح يدوى فى الميكروفون ، وخلق كثيرون يحـــومون فى الساحة الكبرى فى ملابس بيضاء ، والليلة الختامية تبدو عامرة جميلة لائقة بمقام الشيخ حمزة الكبير ٠٠ وصدم محمود فى أحلامه عن « العشوة الطيبة » التى كان يمنى نفسه بها ، فقد قدم العشاء منذ الساعة الخامسة وظل الجميع يأكلون حتى الثامنة مساء والذين حضروا بعد الثامنة لم يقـــدم لهم شىء مجلسوا فى الساحة الكبرى حول الضريح يزفرون وقد فترت حماستهم للمولد وراحوا يتحدثون فى امور شتى متصلة اتصالا وثيقا بالمعـــايش والارزاق، وافترش محمود الارض وسط مجموعة من قرى مختلفة بالمنوفية جمعتهمالليلة المباركة ، وكان الحديث يدور كله حول كرامات الشيخ حمزة وكيف ان خلقا كثيرين حضروا الليلة من بلاد بعيدة واكثرهم ممن لم يكونوا على اتصـــــال به فى حياته التى امتدت عشرات السنين ٠

وراح كل منهم يتحدث عن كرامات الشيخ التى سمع بها والتى رآها بنفســـه ٠ وكان يتزعم الجميع الشيخ حسنين فهو اعلمهم جميعا بكرامات الشـــيخ ، فهو ينيف عـــلى السبعين وكان من الواصلين على الشـــيخ ومن صحابته المفضلين .. وذكر الشيخ حسنين واقعة حدثت فى صـــباه وكانت فى مولد الشيخ معروف والد الشيخ حمزة الكبير وكيف ان الالاف المؤلفة التى هرعت لاحياء الليله اكلت حتى شبعت من خروف واحــــد و « مشنة » عيش واحدة لان يد الشيخ حمزة كانت مبروكة بفضل الله .. وتململ محمود فى جلسته وهو يستمع لفضائل الشيخ حمزة الكبير ، وتحسر لانه ليس حيا الان ، اذن لاستطاع محمود أن يتناول عشاءه فلا يعـــانى

عضه الجوع كما يعانيها الان . وفكر محمود فى ان يشترى شيئا يأكله ، ولكن كل ما معه ثلاثون قرشا ، سيركب بعشره ، والريال سيقطع به جلبابا للولد سيد ، وهو يستطيع ان يصبر حتى الصباح وسيصل القرية فى الضحى ويستطيع ان يأكل هناك ما يريد .

وكان الحديث بين المجموعة قد انتقل من واحد الى آخر وصمت المجلس كله بعد ذلك . وطالت فترة الصمت ، وكان الجوع قد نال من الجميع فاضطجعوا على الرمال يحدقون فى النجوم .. وفجأة هتف محمود بصوت غير مسموع .. وكأنه لم يكن يقصد ان يقول .. « انا جبت خروف النهارده » .. وانتفض جاره عبد المقصود وشب على ركبتيه وقد مال بجسمه الى الامام مستندا بيده اليسرى الى الرمال وهتف صارخا فى وجه محمود :

— بتقول ايه ؟

وهرش محمود قفاه قبل ان يقول وكأنه يعتذر عما قال :

— ده نذر علينا . خروف لامؤاخذه سمين .

وخبط عبد المقصود كفا بكف وهو يلعن كل شىء ، ومع كل شىء هذه اجداد الذين نسلوا محمود منذ عهد آدم الى اخر الزمان .

— بقى خروف يا بغل وقاعد بطنك تصوصو من ..

ولم يواصل عبد المقصود حديثه ، فقد أقبل الشيخ حمزة عليهم فوقفوا جميعا ، ونظر الى كل واحد منهم بعينيه الناعستين الجميلتين ، ووجهه الاحمر السمين المستدير وبشرته الناعمة اللامعة الحمراء ، ومد يده البضة المشربة بالحمرة فاختطفها محمود بسرعة وطبع عليها قبلة طويلة وسأل الشيخ وعلى شفتيه ابتسامة مضيئة :

— عسى ان تكونوا فى خير حال ، وان يكون العشاء قد قدم لكم جميعا ، فان الدنيا « هايصة » كما ترون ، وهذه ليلة مباركة نسأل الله ان يعيدها عليكم بالخير والبركات .

وزام عبد المقصود ولم يتكلم ، وهرش الشيخ حسن قفاه وتحول

الاخرون يبحثون فى الرمال عن احذيتهم او عن شىء آخر علهم يكونون قد نسوه هناك . وتولى الاجابة محمود فهتف صارخا :

ــ الحمد لله ، خير الله كثير ، وبركة الشيخ كثيرة .

وانصرف الشيخ بعد ان اعلن الجميع عن اقتراب موعد « حضرة » الذكر ليستعدوا لها ..

واقبل الجميع على ساحة الذكر . وانفلت محمود بعيدا فاخرج القروش الثلاثين وعدها اكثر من مرة ، ثم اختار لها مكانا فى السروال عند الجنب الايمن ، ومن ثم اتجه الى حلقة الذكر ماخذ مكانه وراح يتطوح فى حركات منسجمة مع الصف الطويل من الرجال ، وكان الجوع والارهاق قد هدا كيانه وسلبا حيويته وقدرته على حركات الذكر . ولكن ما ان مر الوقت ومست الجميع الرحمة الربانية ، وطفا الزبد على افواه البعض وتدفق العرق غزيرا من جباه الرجال حتى اندمج محمود هو الاخر وذاب فى الذكر حتى نسى متاعبه تماما .. حتى انه بعد ساعة من الزمان سقط مغشيا عليه فلم يفق الا فى الصباح .

وتذكر محمود ما حدث له فى الصباح وهو يسير على الطريق الزراعى الطويل عند قرية سنتريس عندما فتح عينيه وكانت حرارة الشمس حامية والصحراء قد تحولت الى جهنم وهو نائم فى مكان يبعد عن حلقة الذكر مسافة طويلة والسكون يشمل كل شىء ، سكون عميق كثيف وكانه ضباب ، حتى ان محمود قد ضرب راسه بيده ليتاكد انه مازال على قيد الحياة ورويدا رويدا بدأ يفيق وبصره يميز الاشياء التى من حوله .. الخيمة مازالت مكانها واثار ليلة الامس تبدو واضحة .. قصاصات ورق كثيرة تتحرك وكان فيها حياة حين يهب عليها نسيم الصحراء الساخن الجاف ، وفردة حذاء مقلوبة ، وطاقية صوف مدفونة فى الرمال واثار اقدام حافية على الطريق بين الخيمة والضريح ، والشيخ حمزة واقف وسط مجموعة من العمال يناقشهم فى صوت مسموع حول اجر الميكروفون والكراسى القطيفة التى خصصت للمقرئين والضيوف العظام .. ودس محمود يده فى طيات ملابسه يتحسس جسمه الذى لم ير الماء منذ شهور ، ومست يده نفس المكان الذى اودعه بالامس القروش الثلاثين ، ثم هب واقفا وكانها لدغة ثعبان .. ومن

اجل البحث عن الثروة الضائعة خلع محمود الجلباب والفانلة ثم خلع السروال ، ووقف وسط الصحراء « بلبوصا » يفتش فى كل خرق عن القروش التى ضاعت مع ليلة الامس ومضى اكثر من ساعة ومحمود يجار بأعلى صوته وهو يلطم خديه دون مجيب ، حتى خيل اليه ان من كرامات الشيخ حمزة الصغير ان اذنه لا تلتقط مثل هذه الاصوات التى نهى عنها الله كما قال الشيخ نفسه عندما ذهب اليه محمود يشكو ماحدث له :

— اسمع يا محمود .. ان ما يفقده الانسان ما هو الا تكفير عن سيئات ارتكبها المرء دون ان يشعر وربما هو تعويض لمال حرام اكتسبه الانسان دون ان يدرى بمصدره ، والدنيا على حالها منذ الازل فى أخذ وعطاء ، وما ضاع اليوم قد يأتى به الغد وتناول محمود يد الشيخ فقبلها وعبرة يتيمة تنحدر من عينيه الى جانب فمه المفتوح فى ذهول .

واختطف الشيخ يده بسرعة ودسها فى جيبه وهو يعيد باقى النقود التى نقدها للعمال اجرا عن الكراسى والميكرفون وهتف بصوت مسموع .

— عاوز فلوس ولا حاجة يا محمود .

وهتف محمود فى صوت عاجز .

— متشكر يا سيدى الشيخ انا رايح لاخويا .

واتجه الشيخ فى خطوات واثقة مطمئنة الى عربة كانت تقف الى جانب الطريق واختفى داخلها وسرعان ما اختفت هى الاخرى عن الانظار ، بعد ان اثارت خلفها زوبعة من الرمال آذت عينى محمود . واكتشف محمود وهو يبتلع حسرته انها نفس العربة التى حملت الخروف بالامس .

واستدار محمود وذيل جلبابه علي رأسه في طريقه الي القلعة .. الى اخيه .. وطافت برأسه وهو يسير مسرعا فى شارع الجيش ذكرى المقابلة الفاترة وبقايا الطعام البائت ، الكلام الموجع والنظرة المتحفزة ، والتهكم اللاذع ، وارتعش بدن محمود وهو يذكر كل هذا .. وكانت القلعة تقف شامخة أعلى الجبل وتبدو لعينه وهو واقف فى صرة العتبة الخضراء برنو اليها من بعيد والافكار المزعجة السوداء تتزاحم حوله وتسد عليه

الطريق الى هناك ، واستدار محمود الى الخلف الى شارع كلوت بك الى شبرا البلد على تدميه .

كانت الشمس قد مالت للمغيب ، ورائحة الارض الطيبة السوداء تملأ خياشيمه ، ونقيق الضفادع اخذ يعلو فى الجو ، وعواء ذئاب جائعة هائمة وسط الحقول ياتى من بعيد ، ونباح كلاب متحفزة يحمله الريح من الضفة الاخرى للنهر .. ومجرى الرياح المنوفى يتدفق عميقا باردا مخضرا مسرعا نحو الشمال حاملا على صفحته كميات هائلة من العشب والنخيل .

وازاح محمود جلبابه عن راسـه ، وانحـــدر الى ضفة النهر ثم انحنى يشرب بفمه من المياه الجارية وهو ينخر كالحصان .. ثم ارتقـــى الى « بهناى » على بعد خطوات من مكانه وهو يتلو الفاتحة فى همس عـــن المحدر من جديد وهو يمسح بيده رأسه ورقبته ، ورفع راسه ينظـــر روح الشيخ حمزة ، وساقاه النحيلتان تسرعان الخطى حتى اختفى داخـل مسارب القرية الضيقة ..



خواجات شارع الهرم

تذكر الناس فى قرية « نكلة » قصة حسن أبو سـويلم و « الخوجاية » فى تلك الليلة الباردة من ليالى الشتاء ، مع انهم كانوا قد نسوها منذ أعوام ٠٠ وكانت المناسبة التى ذكرتهم بالقصة هى موت حسن بعد أن اعتكفطويلا فى المصلية التى على حرف النهر ٠

وعندما تهادى نعشه فى المساء وسط المصابيح والمشاعل ، وقـف الناس الذين كانوا فىالمقهى رافعين أصابعهم متمتمين بالشهادتين على روح الذى فى النعش ٠٠ فقد كان صديقا لهم فى أيام بعيدة ، يوم أن كان يجلس عـلى المقهى ويحكى قصة الخوجاية البيضة التى سلبت عقله فى شارع الهرم ٠٠ وكان حسن قبل أن يموت يعمل فى الجمعية التعاونية وقبل ذلك كان فى مصر ، ولم يدر أحد من أهل القرية ماذا كا نيفعل هناك ، ولكنه قبل ذلك كان يسرح خلف الجمل طول النهار من القرية الى المدينة وبالعكس ٠

وأصل القصة أن حسن كان يسير خلف الجمل ذات صـباح فى طريق الهرم فى طريقه الى « نكلة » عندما وقف فجأة راشقا العصا الشمش الرفيعة بين جلد ظهره وجلبابه الازرق الرقيق ، وراح يهرش بقسوة مخترقا ظهره طولا وعرضا ، حافرا بطرفها المدبب قنوات وسط العرق والطين وظل عشر دقائق وهو يهرش هرشا متصلا محركا أكتافه خلال عملية الهرش ملتقطـا أنفاسه بسرعة وهو يلهث كالكلب ، مغلقا عينيه فاتحا فمه من اللذة التى تجتاح جسده كله ٠٠

ولم يكن فى نيته ان يكف عن الهرش أبدا ، لولا ان الجمل ترك الطريق منحرفا نحو المزارع فجرى خلفه ،وعندما ابتدار به نحو الطريق العام استوقفه ثلاثة اشخاص : « خوجاية » وزجلان معها ، ظلوا ينظرون الى الجمل فترة طويلة ، وهم يحومون حوله وكأنهم لم يروا مثله من قبل ، والست « الخوجاية » تربت عليه فى حنان ، وحسن واقف خلف الجمل وكأنه ليس موجودا فى نظر هؤلاء الناس ٠٠ والتفتت الخوجاية الى حسن أخيرا ، وطلبت اليه بالاشارة ان يسمح لها بركوب الجمل برهة ، وشمر حسن عن ساعديه، ورفع الخوجاية من وسطها الى أعلا ،وأزاح الهواء فستانها الرقيق فكشف عن جسدها ، أفخاذ ممتلئة جميلة شديدة البياض والاحمرار ٠٠ورائحة نفاذة لم تدخل خياشيم حسن من قبل ٠ تفوح من الجلد الناعم الرقيق مثل الفستان الذى يغطيه ٠

ودارت الارض بحسن فلم يستطع أن يرفع الخوجاية الى اكثر من هذا ، وعندما هوى بها الى الارض ، ارتمت على صدره فاحتضنها ، وأحس بصدرها الناهد وشعرها الاشقر الناعم ووجهها الذى يطفح دما وجمالا ٠٠ ولميستطع الوقوف على قدميه بعد ذلك ٠٠ وأحس رغبة فى الجلوس ، فجلس متعبا على الرصيف يلهث كقطة تلد !

وصعدت الخوجاية على ظهر الجمل بمساعدة الرجلين ، ثم لم يلبثوا طويلا حتى ذهبوا تاركين فى يد حسن ورقة من فئة الخمسين قرشا وسعادة تغمر كيانه وترعشه ٠

ولعق حسن شفتيه وهو يسير خلف الجمل والدنيا لا تكاد تتسع له فى طريقه الىقريته « نكله » ويداه معلقتان على طرفى العصا من خلف عنقه وتمنى لو أن معه خوجاية من هذا النوع فيغلق عليها وعلى نفسه بابالمندرة، فلا يأكل ولا يشرب ولا يعمل ، وهو واثق تماماً انه معها لن يموت ، وقفزت الى ذهنه صورة زوجته « لظيمة » فانقبضت نفسه وعاد يهوى بالعصا من جديد على ظهر الجمل حتى وصل الى القرية ، وعشرة أيام مرت عليه فى قريته لم يغادرها وهو جالس على الدكة أمام المقهى عند حرف الترعة يحكى للناس قصة الخوجاية البيضة التى فى لون العسل والحليب والناس تسمع وتضحك وهو يروى التفاصيل ، كيف رفعها بذراعيه ؟ وكيف طار الفستان الحريرى ، وكيف ظهر الجسد الباتع اللين الاملس كالحرير ، وكيف أصابه

الدوار ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ ثم يسكت حسن فجأة كلما قصها مرة ٠٠ وهو يعض على شفتيه ، وفى آخر الليل كان يجمع طرف جلبابه بين أصابعه الخمسة وهو يزوم كالذئب المسلوخ ويشيح بيده فى وجوه الحاضرين وملء أشداقه عبارة واحدة :

– روحوا ٠٠ داحنا متجوزين غفر !

ولم يمض أسبوعان حتى طلق حسن زوجته ، وتفرغ للجلوس على المقهى ، رافضا العروض الكثيرة التى عرضت عليه لنقل المحاصيل بالجمل الى المدينة مكتفيا بالهرش فى ظهره بطرف العصا ، ورواية قصة الخوجاية البيضة لكل من يقابله فى الطريق ٠

ومضى شهر وتزوج حسن فتاة بيضاء فى لون البفتة ، نحيلة مثل العصا المشمش التى لا تفارقه ولكن الذين رأوه ليلة الزفاف ايقنوا من سعادته لعرض الابتسامة التى احتلت فمه ، وانقطع عن المقهى ، وذهب بالجمل الى المدينة والى القرى المجاورة ، والزوجة الجديدة تخرج الى الحقل ، فان حسن يملك قيراطين ووقته لا يسمح له بالتفرغ لزراعتهما ، ومرت شهور ، وأصبحت الزوجة سوداء كغيرها من النساء فى القرية ،وكون الطين والتراب والعمل الشاق الطويل طبقة جديدة نحاسية اللون فوق وجهها ، وعاد حسن الى المقهى يحكى من جديد قصة الخوجاية فى شارع الهرم ، مضيفا للقصة فصولا جديدة : كيف مالت هى عليه ؟ وكيف ربتت على خده ؟ ومسحت بشفتيها على جبينه العريض ؟ ولم تمض أيام كثيرة حتى طلق حسن زوجته ، وفى آخر كل ليل يلعن أجداد الحاضرين وأذواقهم الفاسدة ٠

– دانتم متجوزين حدايات ٠

ومرت شهور طويلة وأصدقاؤه يهمسون فى أذنه بأسماء العذارى فى القرية ، وحسن لا يعجبه أحد ، ولا ترضيه واحدة منهن على الاطلاق كلهن غربان وكلهن « غفر » ! ولكن ثلاثة أرادب قمح كان ينقلها بالجمل من قريته الى المنصورية ، غيرت رأيه وزحزحته عن مكانه فقد وجد ضالته فى المنصورية ، عذراء صغيرة فى الخامسة عشرة بيضاء جميلة ، شعرها ناعم طويل ، وعيناها واسعتان ، تعرف القراءة أيضا ولا تعرف كيف تعمل فى الغيط ، وفى نفس المساء تزوجها حسن ، ثم عاد بها

الى القرية بعد أيام ، وافتقد رواد المقاهى حسن ونسوا قصته ، فقد باع الجمل وهجر القرية كلها ، وذهب الى القاهرة مع زوجته الجميلة ، وعبثا حاول حسن أن يجد عملا ملائما ولكنه لم يستطع ، وثمن الجمل يتبخر من بين أصابعه حتى لم يعد معه شىء وتقطع رقبة حسن ولا يعود الى القرية ، انه يستطيع ان يزحزح جبلا من مكانه ، انه قوى كالثور ، فلينزل الى الميدان بقوته ٠٠ وفى ميدان المحطة وقف حسن يرفع الحقائب على كتفيه ، ويخطف رجله ليحضر عربة ويدخل جيب حسن كل يوم من مطلع الشمس حتى آخر النهار خمسة عشر قرشا ، المهم انه يأكل وزوجته تنام شبعانه والحياة تمضى به وبها ، وهو فى غير حاجة الآن الى مواجهة الفشل ونظرات الناس فى قرية « نكلة » ، واحتمل حسن كل شىء فى سبيل البقاء فى القاهرة والاحتفاظ بزوجته ! وأيام كثيرة اسود من الخروب مرت عليه ، ولا يأكل ولا يشرب ، يشاغب الشيالين ، وعساكر البوليس ، وأحيانا المسافرين ، وعرف حسن الطريق الى القسم ، ونام على أسفلت الحجز ، والزوجة الصغيرة يشحب لونها وتنحل ، والصفرة تضرب فى وجنتيها وتحت عينيها وعظام صدرها تبرز الى الامام ، وعنقها أصبح كحبة السمسم وهى تبصق دما كل صباح ، وحسن يرى ولا يعرف ، ثم لم تلبث ان ماتت ذات مساء ، وعاد هو الى « نكلة » ، فقد وجد مبررا لعودته الى هناك ، وعاد رواد المقهى التى على حرف الترعة يلتفون كل مساء حول حسن وهو يروى لهم قصة الخوجاية البيضة التى فى لون العسل والقشدة واللبن الحليب ، وأصبح فى جعبة حسن قصص كثيرة عن « الخوجايات » فى مصر ، وكلهن جميلات ، وكلهن مثل العسل والحليب ، وهن يسرن فى الطريق ، أنصاف عرايا وأذرعتهن كالفطير ، وأرجلهن كالسمن وأصواتهن ٠٠ يا مغيث !! واشتغل حسن فى الجمعية التعاونية ، يحمل الكيماوى على ظهره من الجمعية الى البيوت ، وفى الليل كان أمامه متسع للقصص عن خوجاية شارع الهرم ، وخوجايات مصر كلهن ، حتى التقى ذات مساء فى المقهى بجندى بوليس يعمل فى نقطة « نكلة » منقول حديثا من مصر ، شاب فى حوالى السادسة والثلاثين متوسط القامة شاحب اللون ، فمه مفتوح دائما عن أسنان ذهبية ، وجد حسن فيه شيئا ينقصه ويثيره فقد كان يتحدث دائما عن مغامرات نسائية قام بها فى البندر وفى الريف ، وفى كل مكان ذهب اليه ، وفى جيبه عدد من صور النساء وكلهن بيضاوات وجميلات وسمينات أيضا ،

وريق حسن يجف كل مساء وهو ينظر الى الصــــور الكثيرة وكأنها أوراق كوتشينة ، مدققا النظر فى الملاءة اللف ، والاخرى الاسبور . والثالثة الفلاحة والرابعة والخامسة ، وحسن مشغوف به.وبصوره حتى اصبح يقلده فى حركاته ، ويختار نفس لون الجلباب الذى يلبســه عسكرى البوليس فى أوقات الراحة ، واصبح جيب حسن هو الآخر عامرا بصور كثيرة لشادية وماجدة وفاتن حمامه ، اشتراها جميعا من مصر فى مشوار له مع العسكرى الصديق وتساءل العسكرى مرة عن سر عزوف حسن عن الزواج ؛ وكان الجــواب أنه لم يعثر على بنت الحلال بعد ، ورشق العســــكرى اصبعه فى أنفه ثم فى فمه ، ثم خبط براحة يده على فخذ حسن ثم هتف قائلا :

ــ واللى يجيبلك بنت الحلال ؟

واجاب حسن بسرعة متسائلا فى الوقت نفســه :

ــ بيضـــة ؟

ــ وشعرها طويل ، وحاجة عال العـــال .

وخطف حسن رجله الى مصر مع العسكرى ورآها وجلس معها ؛ بيضـاء كالنهــار ، وجميلة ، وسمينة كالعجل البناتى ؛ وتعمل خادمة فى بيت احـد الاثرياء ؛ وليست عبيطة مثل الفلاحات ؛ وقال حسن عال ؛ ورد العسكرى مبروك . . واخذها حسن فى ذراعه وعاد الى نكلة . ولم يعــد احد يراه فى المقهى ، أصبح من بيته الى عمله ، وجلبابه دائما نظيف . والمداس لا يبـــارح قدميه ، والترعة تستقبله كل صباح واصبحت سهرته فى نطاق ضيق ؛ مــع العسكرى فى الليل عند حرف الترعة يشربون اقداح الشاى ويدخنون كراسى المعسل بالحشيش ، واغلق باب المندرة فى وجوه الجميـــع ؛ لم يكن احــد ليستطيع الدخول فى المندرة الا العسكرى ذو الاسنان الذهبية ؛ فهو تقريبا ولى امر العروس وهو وكيلها ايضا فى صيغة العقد ، وحسن نشوان بالزوجة الجديدة ولا يسمح لهـــا بالعمل فى الغيط ولا فى البيت ؛ ولولا العيب لطبخ حسن وكنس المندرة ، واعد الفراش وغسل الغسيل كله ، وجلباب واحــد عند حسن وعشرة عند زوجته ورطل اللحم يأكل منه قطعة وزوجتــه تأكله كله ، وهى تأمره وهو يطيع ، واحيانا تحدث المناوشات بينها وبينه ؛ الجيران يتسمعون من خلف الجدران ، وصوته خفيض ذليل ، صوتها يلعلع بالشتائم واحيانا ترن الصفعات على قفاه وهو صامت وربما سعيد ، وحسن يكسب

كثيرا من توصيل الكيماوى للمنازل فاصبح يعمل اليوم بطوله والمكسب لفتحية ، وايام الاسواق يقترض حسن حمارا من القرية ويعود ومعه ربطة فى حجم شوال الكيماوى مناديل مزينة بالترتر وتطبع طوب حمراء اللون لغسيل الكعبين ، وكحل ولبان وبخور ، والعسكرى معه يشترى له أرخص قليلا ويفسح له الطريق وينتقى له الالوان والانواع ، وحسن يصفق برجليه ويديه فرحا للحظ الذى هبط عليه من السماء ، الزوجة الحسناء والخل الوفى وذات مساء وكان حسن فى قرية مجاورة ، وعاد بعد العشاء بقليل وعندما انحرف الى داخل الدرب الذى يقطنه واصبح الى جوار الشباك ، سمع صوتا وهمسا فى الداخل رغم أن الظلام كان يسود المكان وتوقف حسن قليلا ينصت الى الذى يدور فى الظلام ، ويسمع حسن ضحكا ومزاحا وتبين صوت العسكرى وصوت زوجته ، وفكر حسن ماذا يفعل .. ثم لم يلبث أن انتحى جانبا فى الدرب وجلس على حجر كبير لا يدرى ماذا يفعل .. واكثر من مرة وحسن يهم بالدخول الى المندرة ، ولكن شجاعته تخونه وقدماه تعودان به الى حيث كان ! واربع ساعات طوال وحسن مسمر مكانه يرسم على الارض اشكالا مختلفة بعصاه المشمش الطويلة ، ثم فجاة برز شبح فى الظلام خارجا من المندرة ولم يكن سوى العسكرى فى جلبابه الازرق المخطط باقلام عريضة بيضاء ، ووقف العسكرى يتلفت حوله ، ثم مضى فى طريقه الى الترعة ودخل حسن بعد دقائق ! كانت زوجته نائمة ، وعلى وجهها تبدو نشوة وسعادة لا حد لها ، وقد زينت بمنديل جديد ، وفى عينيها كحل غامق ، وكعباها نظيفان من أثر الدعك الشديد ، وايقظها حسن فى قسوة ، ولكنها عندما استيقظت لم يستطع ان ينظر اليها ، وجلس حسن امامها وهى نصف نائمة ممددة فى ارتخاء لذيذ . . . وسألها حسن فجاة دون أن ينظر اليها :

— مين اللى كان هنا النهاردة ؟

وردت هى بعد فترة :

— مفيش حد .

وعاد هو يسأل وهو لا يقوى على النظر اليها :

— مفيش حد يعنى ايه ، أمال توفيق العسكرى كان بيعمل ايه ؟

وردت هي مستنكرة :

ـــ توفيق العسكري ده ايه ، مش صاحبك ، وانت اللى داخل معاه خارج معاه ، كمان ده راخر ، والنبي تتمسى كده وتنام ، انت باين عليك سكران .

وبسرعة عجيبة لهفها حسن بكفه على صدغها ، ثم انهال عليها بالصفعات واللكمات وهى ترد له الصفعات وتعضه فى ذراعه .

واستيقظ الجيران على الاصوات المنبعثة من مندرة حسن وضاع الطرق الذى استهدف له باب حسن ولم يفتح ليلتها لاحد ، وخرج حسن فى الصباح الى الجمعية التعاونية ، ووجهه يبدو عليه الاجهاد الشديد ، وعيناه حمراوتان بلون الدم ، وجلبابه ممزق ، حتى المداس نسيه فى المندرة ، ولم يحمل على ظهره جوالات الكيماوى ولم يشرب الشاى كما اعتاد ، بل جلس يرسم على الارض اشكالا بطرف عصاه المشمش التى كان يضرب بها الجمل ويهرش بها ظهره فى الزمن الذى مضى ، وتحصر على الزمن الذى طواه لاهثا منذ اعوام ، وعلى المعروف الذى قدمه للدايخة التى كانت تعمل خادمة فى مصر وفكر فى طريقة للانتقام من توفيق العسكرى ، وفكر فى أن يقتله ، أو يذهب الى المديرية وينقله الى مكان بعيد ، أو يطلق زوجته ، او يذهب اليه فى منزله ويضربه ويفضحه ، ولكنه أسف بينه وبين نفسه لعجزه عن الانتقام، فتوفيق قوى ، وهو عسكرى أيضا يستطيع ان يؤذيه . يهرش بقسوة كما كان يفعل من قبل ، واحس بالنشوة تسرى فى كيانه ، ثم خطر له ان يهجر القرية قبل أن يستيقظ الناس ليتوارى عن عيونهم ، ولكنه لا يملك شيئا ، وليس أمامه ما يفعله اذا هرب ، والتجربة البشعة التى مرت به فى مصر مازالت ماثلة لعينيه ، ولعن حسن مصر والخوجاية والشيطان الذى ألقى بالعسكرى فى طريقه ، وتمنى لو يستطيع استرضاء زوجته فترضى ، وتمر الايام فينسى وتنسى ، ثم يأخذ حذره بعد ذلك ، فيقاطع العسكرى ، ويحرص على زوجته ، كانت الشمس قد ارتفعت فى الافق والف فكرة تطوف فى رأس حسن والعصا المشمش فى يده يرسم بها على تراب الطريق الزراعى رسوما مختلفة وخطوطا متشابكة ، وفجأة برز توفيق العسكرى من عند القنطرة مهرولا بجلبابه وعلى وجهه يبدو الشر العنيف ، وابتسم حسن ابتسامة بلهاء

عندما اقترب منه توفيق والشرر يتطاير من عينيه ، ومن أنفه ينبعث دخان كثيف وفكر حسن فى ان يطلق ساقيه للريح هاربا من القرية ، ولكنه لم يستطع حتي تحريك أصابعه الضخمة ، ولم يتحدث توفيق ولم يفتح مجالا للمناقشة. بل انهال على رأس حسن ووجهه باللكمات ، وركله فى بطنه بالحذاء وهو يزمجر اثناء ذلك كله :

ـ تفضحنى وسط الناس ياابن ...

وحسن يصرخ ويستنجد بطوب الارض .

ـ حقك على ياعم توفيق ، انا غلطان ياعم توفيق .. ورفعه توفيق من جلبابه فأوقفه على قدميه وكانت الناس قد التفت حولهما وجاءت فتحية ايضا تسبه وتضربه ، وتوفيق يقسم بأغلظ الايمان انه لن يتركه الا فى النقطة . وتدخل الناس و « معلهش ياسى توفيق » ده غلبان ياشاويش توفيق .

ورضى توفيق أخيرا أن يتركه على شرط .. ان يدفع ما عليه !

ونظر الناس الى حسن وهو يغض بصره نحو الارض ، علم الناس فى ذلك الصباح ان توفيق يدينه فى عشرة جنيهات دفعها ليلة الزفاف ليدفعها حسن مقدم الصداق لزوجته ، ونام حسن فى تلك الليلة وفى الليالى التالية فى الجمعية ثم باع القيراطين ليدفع مؤخر الصداق والدين الذى عليه .

وظلت فتحية فى المندرة وانتقل اليها توفيق العسكرى ، ومضت شهور طويلة وحسن بلا بيت ولا عمل ، وتعلم حسن الصلاة ، فقد كان ينام فى المصلية التى على حرف النهر خارج القرية ، وقال الناس انه « مخاوى » .. احدى جنيات البحر بيضاء وشعرها طويل وأسنانها لامعة ، وأظافرها حادة قاتلة، وانها تخرج اليه فى الليالى القمرية عند المصلية . وعندما مرض العسكرى بعد ذلك ومات قال الناس انه قد استعان بالجنية للانتقام منه ، وانه سينتقم غدا من زوجته ، ولكنها لم تلبث أن غادرت القرية ذات صباح الى حيث لايعلم احد ، وفى بعض الليالى كان الناس يذهبون الى حسن فى المصلية وكان يحكى لهم دوما حلمه الذى رآه فى الليل وهو نائم عندما جاءه سيدى الخضر وانبأه بقرب نهاية العالم وان الارض لن تلبث ان تزول بما فيها ومن فيها .. ثم لا يلبث أن يسأله أحد الحاضرين :

ـ وايه حكاية الخوجاية ؟

ويحكيها حسن .. ولكن بأسلوب آخر ، ونقنــه التى طـالت نضرب فى صدره الذى ضاق ، وعبارة واحدة يختتم بها الحديث دائما :

ـ اخص على الخواجات وعلى سنينهم ، دول ناس مسخرة .

●●

كان الرجال الذين كانوا على المقهى وقت أن مر النعش فى طريقــه الى المقابر مازالوا فى أماكنهم عندما هبطت النسوة من فوق الاكمة الى القريــة حاملات المشاعل وقد اطفئت جميعها الا مشعلا واحدا لينــير لهن الطريق ، وعندما أصبحن فى محاذاة الرجال صاح أحدهم متهكما :
ـ الله يرحمك ياحسن ... دول صحيح كلهم غربان ! وعض الآخرون على شفاههم وهم يهرشون فى أقفيتهم .. وتذكروا كيف كانــوا يســخرون بحسن وبقصته ، وان كان كل منهم قد يتمنى فى أعمــاقه أن يكون لــه امرأة بيضاء مثل اللبن الحليب شبيهة بتلك التى رآها حسن واحتضنها بين ذراعيه ذات صباح فى طريق الهرم .



جاء الشتاء

تجاوبت جدران السجن الصماء بأصداء صرخات الحراس الرهيبة ووقع اقدام المجرمين المثقلة بالحـــديد ، وهم يجرونها فى ردهات السجن الطويلة نحو مصيرهم الذى الفوه ، وانتهت الضجة فى لحظات ، فقد اصطـــف المسجونون فى طابور بائس طويل ينتفضون من موجة البرد الشديدة التى وفدت فجاة على المدينة وكان الطقس بالامس دافئا جميلا ، ولكنهم سرعان ما نســوا البرد ، فقد دبت الحرارة فى اوصالهم المرتعشة وهم يســيرون فى حماس شديد نحو الجبل ، وكانهم فرقة من الجنـــد عائدة من ميدان القتال الى المدينة ..

ولم يكن ثمة مايثير انتباه أحد بين هذا الطابور التعس من الرجال الاشقياء اذ كل شىء يسير فى نظامه المعهود ، على الطريق الحجرى الطويل بين ســور مضروب من الاسلاك الشائكة وبنادق الجند المصوبة فى خمول الى صدور المجرمين .

ثمة رجل واحد كان يسير فى نهاية الطابور ، وكل شىء يبدو جديدا امامه وغير مالوف لديه .

فقد كانت قدماه تصافح أحجار الطريق للمرة الاولى . ولم تكن تشــيع فى وجهه علامات الرضا كغيره من افراد الطابور ، بل كان يبدو قلقا وأسنانه الصغيرة الحادة كأسنان فأرة تقضم اظافر اصابعه الخمسة فى عصـــبية محمومة .

لقد كان كل شيء يبدو امام عقله الصغير غريبا هذه المرة .. لقد دخل السجن من قبل مرات عديدة .. وكان هو الذي يسعى اليه .. ولكنه في هذه المرة في الليمان .. وهؤلاء الذين يمشي معهم وحوش وليسوا آدميين ، وكل منهم نجا من حبل المشنقة بأعجوبة .. انهم موتى غير أن قلوبهم حية تنبض بالحقد المرير ..

وتعجب حسن لهذا القدر الذي جمع في هذا الطابور عـــددا وفيرا من القتلة ــ وهو أيضا .. قاتل مثلهم .. ولكن ..

وصرخ حسن من الالم ، فقد هوت على كتفيه كموب بنادق الجند ، فقد أخل حسن بالنظام وهو « سارح » في وجوده الضائع .

وعاد حسن يجري وهو يلهث ليلحق بالقطيع البائس ، وعندما لحـــق بمكانه في الطابور لم ينظر اليه أحد ولم يهتم به انسان .

ان كل فرد في الطابور لايهتم بغيره ، ان نفسه فقط هي المحور الـــذي تدور حوله حياته .

وعاد حسن من جديد يقضم أظفاره وعقله يقضم من أحشاء الماضي قصة وجوده الذي ضاع .

انه منذ عشرة أعوام وهو يمارس الحياة في حي السبتية ، وكان يمارسها قبل ذلك بسبعة عشر عاما .. غير أن فصولها الاولى ضاعت ولم تبق منها الآن الا صور باهتة . غير أنه منذ عشرة أعوام وهو يذكر جيدا انه بدأ يمارس الحياة بوعي لكل ما يجري حوله ..

كان فتى قويا شديد البأس كأنه ضبع ، وعندما واجه الحياة كانت نفسه تفيض آمالا عذبة : مسكن فسيح ، وعمل مستقر ، وزوجة تملأ بيته ..

ولكن كيف السبيل الى تحقيقها ؟ بالمال .. ثم اين المال ؟ بالعمل ، صحيح أن حسن عمل خبازا مدة طويلة ، يعجن كالنساء مع خمسة من أقرانه ،وقوته تذوب مع الليل الكئيب ، وخمسة عشر قرشا هي كل ما يناله حســـن في الصباح .

خمسة عشر قرشا .. وعمل تافه كالنساء ..

.. وهكذا أصبح حسن « قهوجي » في حي السبتية .. عمل أنظـــف وأكثر راحة ولائق بالرجال ، والثمن واحد .. خمسة عشر قرشا ..

وفي المقهى يجلس عبيد وأصابعه العشرة تزينها خواتم من ذهب

والصديرى الشاهى يبرز من فتحة جلبابه الجوخ · واللاسة الحريرية تلتف حول رقبته ، والحذاء اللامع يبرق فى قدميه ، وهو لايعمل ولا يجرى ، وأنما يوزع الحشيش على الراغبين ويكسب ويتزوج ويطلق ، وله فى السبتية أكثر من عشيقة وأكثر من تابع ذليل ·

وترك حسن العمل فى المقهى وجلس فيها وأصبح جيبه عامرا بلفافـــات الحشيش ، وعرف المارة طريقهم اليه · ولم يعد حسن يجرى ولا يلهث ، وهو يكسب جنيها وأحيانا أكثر ، ولسوف يهبط الثراء عليه يوما ما ، فهو ليس أقل من عبيد ، بل هو أقوى وأكثر شبابا ·· ولكنه افقر ، والزمن الذى يجرى به كفيل بحل المشكلة ولكن الزمن كان يجرى به فى الطريق المضاد ، فقـــد وقعت « كابسة » على المقهى وضبط حسن ، وفر عبيد قبل أن يحضر البوليس فقد كان يعرف ·

وهكذا دخل حسن السجن أول مرة ، ولم يمكث طويلا ،فقد قضى الشتاء بطوله ثم عاد الى السبتية مع الصيف ·

ولم يفلح حسن هذه المرة فى أن يصبح تاجر حشيش ، فهو مفلس ليس معه شىء ،والتجار الكبار رفضوا التعامل معه ، فهو مشبوه معرض للوقوع فى أيدى البوليس ، ومعنى هذا ضياع أموالهم كما ضاعت من قبل ، والحشيش تجارة ، والكبار فى ميدان التجارة يسحقون الصغار بلا هوادة وحسن صغير فى الميدان وعبيد من الكبار ونجح فى أن يسحقه ·

عاش حسن شهور الصيف ·· وهو نفسه لا يدرى كيف ؟ ·· المهم انه كان يأكل ويشرب وينام دون عمل فهو منذ ان هجر المخبز وقد قررألا يعـــود اليه ، ومنذ تذوق ربح الحشيش لا يستطيع أن يقبل خمسة عشر قرشـــــا ليخدم الاوغاد والعاطلين المترددين فى مقهى السبتية ·

ولكن شيئا ما أزعجه ، فقد حل الشتاء . ولم يعد يستطيع النوم عـلى رصيف الشارع ، ولم يعد يحتمل الجوع ، فالبرد قارس ، وهو فى حـــاجة الى غذاء ، وليس هناك من سبيل ·

وتذكر حسن والريح تعصف بوجهه الشتاء الذى مضى ، وهو فى زنزانة السجن الدافئة ومن تحته البرش والوجبات الثلاث كل يوم والحياة الرتيبة ·· ولا تفكير فى الغد ·

وشهدت مقهى الكمال فى الصباح معركة عنيفة دارت بين حسن والذين

كانوا فى المقهى ذلك الوقت الباكر من الصباح ٠٠ ولا احد يعلم السبب فى الشجار ٠٠ المهم ان حسن حطم الكراسى والاوانى والاكواب ٠٠ واكثر من راس ٠٠

واختفى حسن من حى السبتية شهورا عديدة ، ثم عاد مع الصيفيميش مثلما كان فى الصيف الذى مضى ، يأكل ويشرب وينام ٠٠ وهو نفسه لا يدرى ٠٠ كيف ؟

وعندما جاء الشتاء شهد المقهى المواجه لمقهى الكمال معركة رهيبة كان بطلها حسن ٠

وكما لم يعرف الناس سبب المعركة الماضية لم يستطيعوا معرفة السبب فى معركة اليوم ، المهم أن حسن حطم المقهى تماما ، واختفى بين ايـــدى البوليس وراء جدران السجن ٠

وشاعت قصة حسن فى الحى ٠٠

وعندما عاد هذه المرة كان قد أصبح أحدوثة ، فالنساء يتغامزن حـوله وهو سائر بين أزقة الحى من خلف النوافذ ٠٠ والرجال يقفون ويفسحون له الطريق ٠٠ وأصحاب المقاهى يحلفون بالطلاق أن يشرفهم حسن بالجلوس معهم قليلا ٠

وعرفت النقود طريقها اليه من جديد « شغلة » جديدة وسهلة ليس فيها عرق الفرن ولا مذلة الخدمة ولا مغامرة التجارة فى الحشيش ، انه يطلب فقط ، والناس من حوله تلبى ما يطلبه ٠٠

وعندما حل الشتاء هذه المرة لم يجد حسن نفسه مضطرا الى تحطيم شىء ، فهو يأكل ويشرب ، والنقود من بين يديه ، وله أكثر من عشيقة ،والناس تخشاه ٠٠ حتى عبيد نفسه أصبح يهاب حسن ويخشاه ٠٠

وعاد حسن يصرخ من الالم ٠٠ وكعوب البنادق تنهال على كتفه ، فقد أخل بالنظام من جديد وهو « سارح » فى ماضيه ، وعندما وصل الى مكانه فى الطابور ، كان كل شىء يبدو هادئا حوله ٠٠

وعاد حسن من جديد ليفكر فى ماضيه بعد أن أصبح له فى الحى مكان رفيع ٠٠

وتذكر فردوس التى استعصت على كل الرجال ما عداه ٠٠ وتذكرهــا وهى تخطر من أمام المقهى فى « الملاءة اللف » ووجهها الصبوح كأنه ابتسامة عريضة وشعرها المتهدل يخفى عينها اليمين ٠٠

انه يذكرها عندما غمزت له ، وعندما لحق بها فى الزقاق الضيق الذى ينتهى الى الدحديرة ، ثم غزواته معها ، والهمس الذى كان يدور على السنة الجميع ··

·· ثم يذكر وهو يحث الخطى على الطريق · مناديل « الترتر » التى اشتراها لها ·· وزجاجات الكحل التى أوصته عليها ·· وأرطال اللحم الضأن التى كان يحضرها كل يوم لها ·· وأنواع الفواكه التى كان يحملها معه كل مساء ، وسكوت أهلها ورضائهم رغم أنوفهم ·

لقد كان ممكنا أن تسير به الحياة هكذا الى الابد ، فيأكل ويشرب وينعم بفردوس وغيرها ·· ولكنه فوجيء بفتور من جانب الناس لم يلحظه بادىء الامر وقد ظنه أمرا عارضا لا يلبث أن يزال · ولكنه على مر الايام لاحظ أن الفتور قد زاد الى حد أن أصبح واضحا · والذين كانوا يدفعون الاتاوات كل يوم . أصبحوا يدفعون يوما بعد يوم ، وأحيانا يوما كل اسبوع ، ثم يوما كل شهر·

ولم تعد تكفيه القروش القليلة ، انه فى حاجة الى مال وفير ، ليأكل كما اعتاد وليدخن وليلبى طلبات فردوس التى تزداد يوما بعد يوم ·

وفكر طويلا فى الامر ·· ماذا يفعل ؟ ·· هل يضرب الناس ؟ لقد بات يخشى السجن الذى كان يهواه وهو يرفض العمل ·· ويريد أن يحتفظ بمكانه الذى وثب اليه فى الحياة ، ويود لو يحتفظ بكل ما ينعم به الآن ، دون مشاكل ولا ارهاق ، ولكن يبدو أن الناس قد اكتشفوا الضعف الذى تسلل الى قلبه·· اكتشفوا انه لم يعد ذلك الوحش الذى كان بالامس ·· لقد أصبح مهذبا يحل المشاكل بالتفاهم بدلا من قبضة اليد ، لابد ان الناس اكتشفوا تلك الحقيقة لانهم لم يعودوا يرفضون الدفع بل انهميتحرشون به وكأنهم يمتحنون قوته وهو احيانا يكتم كل ما فى نفسه من ثورة ليمر الامر وكأنه لم يلحظه ، وأحيانا تسول له نفسه أن يبطش بمن يقف فى طريقه ·· ولكن فردوس والحياة اللذيذة التى يحياها ، صحيح انه فقد الطمأنينة ، ولكن فليحتفظ بالحياة ··

ومرت أيام طويلة وحسن يضطر الى تدخين السجاير « الفرط » ·· والتهام الوجبات غير المناسبة ·· والبعد عن فردوس أياما لايراها ، ولا تراه ·· وأحيانا كان حسن يتميز غيظا وهو قابع وحده فى مكان بعيد وينطح رأسه الحائط وهو يحدث نفسه : هل هو حقا جبان ؟ ان الخوف لم يعرف

طريقه اليه من قبل ٠٠ وهو مستعد الآن لان يحارب قبيلة وبلا سلاح ٠٠ اذن ماذا ؟ انه الحرص ، ولكن ، على أى أمل ، ان تعود المياه وحدهـــــا الى مجاريها ٠

ولكن حسن كان واهما ٠٠ فكل يوم يمر به كان يؤكد له ان نجمه قد أفل ، وان أياما سوداء مقبلة عليه ٠٠ وكان من الممكن أن يحتمل حسن كل شيء الا هذا الذى حدث ٠٠ فقد أصبح الفتور وباء معديا ينتقل بسرعة مذهلة فيصيب الناس حتى أصاب آخر الامر ٠٠ فردوس ٠

ولكن ما السبب ؟ انه لم يبخل عليها بشيء على الاطلاق ٠

كان دائما رهن اشارتها ، كانت تطلب وهو يجيب ٠٠ وفكر حسن قليلا، لابد أن هذا هو السبب فهو منذ مدة طويلة لم يعد فى استطاعته أن يجيب ٠٠ وهى دائما تطلب ، وألف رجل على استعداد أن يجيب ، وكان الذى أصاب هذه المرة ٠٠ عبيد ٠

لقد سحقه مرة فى دنيا التجارة وها هو يســـحقه مرة أخرى فى عالم النساء ٠٠ وهاهو أحيانا يعتريه ضعف فيتراجع ولكنه دائما ينتصر ٠٠

وأحس حسن بالمرارة تفيض بها نفسه ، وتمنى فى سريرته لو استطاع أن يشارك عبيد فى فردوس حتى تعود الاحوال الى ما كانت عليه ٠

وفكر حسن فى أن يقتل عبيد ، ولكنه قوى ، وعنده مال ورجال ،ويستطيع بسهولة أن يسحقه كما كان يفعل من قبل ، اذن من يقتل والرغبة تلح عليه فى أن يقتل أى انسان ٠

ثم جاءت فرصة عندما ذهب الى فردوس يطلب منها حلية ذهبية كان قد أهداها لها فى أيام بعيدة ، ولم يجدها هناك ، ووجد زوجها ٠٠ هذا البائس المحطم كأنه عود قصب تحالفت عليه أنواء الشتاء ٠٠ ولم يدر حسن مـــاذا يفعل ، لقد رفع قطعة حديد بيده وهوى بها على الزوج ٠٠ ولم يكن فى الحقيقة يريد قتله ، كان فقط يريد أن ينتصر عليه ٠

وعاد حسن من جديد يذكر ماذا حدث بعد ذلك ، التحقيق والمحاكمـــة ، والحكم بالاشغال المؤبدة ٠٠ وتذكر وجوه الصف الطويل من الشهود الذين شهدوا ضده ووقفوا ضده ، وهو خلف قضبان الحديد من أصحاب المقاهى والباعة والمتشردين ، والذين كانوا يقبلون يديه ٠٠

ولكنه لم يهتم لهذه الوجوه الكثيرة قدر اهتمامه بوجهين : وجه فردوس،

ووجه عبيد ، وجهها وهى تحكى ، كيف راودها عن نفسها ٠٠ وكيف صدته برفق فى البداية حتى لا تثير فضيحة ، ثم اضطرت الى ابلاغ زوجها بالامر ٠٠ ووجه عبيد وهو يروى فى هدوء وورع ، كيف أن هذا الواقف خلف قضبان الحديد خطر على الفضيلة والامانة والامن العام ٠٠

وضغط حسن على أسنانه وهو يذكر عبيد ٠٠ لقد انتصر فى النهاية على كل أعدائه ، حسن فى السجن ، والزوج فى التراب ولا بد هو الان يحكم الحى من فوق كرسيه بمقهى الكمال بالسبتية ٠

كان الطابور البائس من الرجال الاشقياء قد وصل الى نهاية سفح الجبل عندما انهمر المطر فجأة وبشدة ، وكأن عددا وفيرا من المآسى الرهيبة قد هز أشجان السماء فراحت تذرف الدمع الهتون عله يجرف أمامه كل ما هو شر ، على أرض البشر ٠٠ وانتشر الرجال الاشقياء فى أنحاء الجبل ليفروا بجلودهم من المطر ٠٠

رجل واحد كان يقف مرفوع الرأس نحو السماء المطرة ، وعلى فمه ابتسامة الرضا وقد غاب القلق عن قسمات وجهه العريض ٠ لقد جاء الشتاء ، وهو ليس فى حاجة لتحطيم المقاعد والرؤوس ليدخل السجن ٠



فى ليلة العيد

كان المقهى عامرا هذه الليلة ·· ليلة العيد ، والزبائن يبدون غيرهم بالامس ·· فهم رغم الكآبة المطلة من عيونهم المنتفخة الا ان احاديثهم فكهة وملابسهم جديدة، وفى جيوبهم بعض النقود ·· والمعلم أمين صاحب المقهى يبـــدو فرحا هو الآخر ، منتفخا كالديك فى جلسته الهادئة على الرصيف المقابل ، والشيشة فى فمه ، واصابعه النحيلة المدببة كمخالب الطير تلمع بالخواتم الذهب ، والصديرى الشاهى يبرز من بين فتحة الجلباب الصوف ، والليلة ليلة صيف ، والنسيم يهب حينارطبا نديا ، وحينا آخر مشبعا بالتراب · و « المعلم » أمين يفلسف كعادته دائما لافراد الشلة الذين تناثروا حوله على المقاعد فوق الرصيف : كاذب من يقول ان التراب يضر بصحة الناس،اننا جميعا من التراب ، لا يضر بالناس الا الاعمال السيئة ·· ويجيب القطيع البائس الجالس حول المعلم أمين بهز الرؤوس ومصمصة الشفاه علامة الاعجـاب المزوج بالدهشة من قول المعلم أمين ، ان أحدا من الجالسين لا يستطيع ان يناقش اقوال المعلم ، انهم لا يفهمون معنى النقاش ، وهم أيضا ليسوا فى حاجة اليه ·· لقد تعودوا سماع مثل هذه الحكم البالغة من المعلم فى بعض الليالى التى ينجلى فيها ، وهم يفرحون لمثل تلك الليالى لان كلا منهم يستطيع أن يشرب على « الحساب » أو يقامر على الحساب بل وفى بعض الليالى التى يكون فيها المعلم مبتهجا للغاية يستطيع بعضهم أن يقترض شيئا من النقود ·

ويعود المعلم أمين الى حديثه محركا الهواء براحة يده متعمدا خلال ذلك أن يرى الجمع المحتشد حوله ، الخواتم الذهبية اللامعة ، والفصوص الياقوت

التى تبدو وكأنها عيون ملتهبة لشياطين أقزام · والفانلة الحمراء ذات الكم الطويل المشغول بالابرة فى نهايته ثم يرفع حذاءه الاجلسيه الى أعلى قليلا محركا أصابعه داخل الحذاء قبل أن يقول :

– صحيح ليس التراب هو الذى يضر بالناس ، وليس هو الطين أوالدود، أنا أعرف مخلوقات فى حجم الجان وفى قوة سباع الغاب ، يقضون حياتهم أبدا ، وطعامهم دود المش ، وشرابهم طين النهـــر ·· وعملهم نبش الارض بأظافر اليدين والقدمين ·· انه اذن ليس التراب والطين والدود الذى يضر يصحة الناس وانما الذى يضرهم هو الطمع هو الشره ، هو اللهث الذىلاينتهى أبدا فى سبيل جمع المال ·

وعادت الدهشة الممزوجة بالرضا ترتسم على وجوه الناس المنصتين فى غير حماس الى قول المعلم أمين وكأنما لحظ المعلم هذا التراخى مـــــن جانب الجالسين ، فصفق بشدة للجرسون الذى أقبل على عجل يقطع الشارع وثبا بكلتا قدميه كحيوان الكنجر · وطلب المعلم مشروبات للجالسين ، ثم تمطى فى خمول وتثاءب فاغرا فاه فبدا فى وجهه حفرة واســعة كباب القبر ، وبدت أسنانه الصـــدئة الصفراء المتآكلة كأنها بقايا عظام ميت ·· ومضت فترة صمت طويلة قبل أن يعود المعلم أمين الى حديثه الذى يتنــاول كل شىء تقريبا ، من شئون الدنيا والدين الى الحب وروايات السينما الى موضوعه المفضل دائما ·· أيام زمان ·

– نعم ، اننا نقتل بعضنا بعضا ، بالظلم والحقد والحسد ·· كلنا فى هذه الحياة قتلة ومقتولون ·· ولا أدرى لماذا أصبحت الحياة شقية بائسة الى هذا الحد ·· وكانت منذ أربعين عاما هينة لينة جميلة على الدوام ·· هل أجدبت الارض ؟ هل جف ماء النهر ؟ هل نقصت خيرات الله ؟ لا بد أن شيئا من هذا قد حدث ·· والا ·· فلماذا كل هذا البؤس ، وكل هذا الظلم ، وكل هـــذا القتال العنيف فى سبيل الحياة ··

وكان المعلم أمين يكرر هذا الحديث كلما اجتمع حوله بعض الرجـــال وكان يبين من حديثه أنه دوما تواق الى ·· أيام زمان تلك الايام التى عاشها فى شبابه قاطعا مسافات شاسعة من الارض لهثا وراء قطيع من الاغنام فى طريقه الى المدبح جامعا قرشا فوق قرش حتى كون ثروة ضئيلة استطاع أن يشترى بها المقهى وأن يلبس القفاطين الشاهى والساعة ذات الكتينة الذهـــب

والحذاء الاجلسيه ·· واستطاع ايضا ان يشترى كل هؤلاء الرجـــال المنصتين ·

وكان من المفروض أن يستمر المعلم أمين فى حديثه وأن يستمر الذين حوله فى أماكنهم طالما أن المعلم لا ينساهم خلال حديثه فيصفق بشـــدة بين الحين والحين طالبا المشاريب مجانا لهؤلاء الصحاب · ولكن المعلم قطـــع حديثه فجأة وقد لمعت عيناه وهو يصوب بصره داخل زقاق الاباصيرى الذى يمتد بجدار المقهى وينتهى بجدار أسود اللون من اثر دخان « مستوقد » الفول الذى يجاوره · ولحظ الرجال الذين كانوا على الرصيف شبحا يخطر عـلى مهل فى طريقه من داخل الزقاق الى الشـارع العمومى ·· وقبل أن يصـــل الشبح الى ناصية الشارع كان المعلم قد أسرع متجها ناحيته وانتحى بـــه جانبا فترة من الوقت ، مضى بعدها الشبح فى طريقه الى الشارع ؛ وعندئذ تبينللرجال أن الشبح لامرأة تبدو داخل الملاءة السوداء صغيرة جميلة لدنة كالعصا الخيزران ·· ومن جديد عاد المعلم أمين الى جلسته مع الصحاب ، ولكنه لم يتكلم بل ظل صامتا بعد أن دس شيئا صغيرا كان بين أصابعه فى فمه ·· ونادى على الجرسون ودس فى يده جنيها وطلب ثلاثة أرطال من اللحمـة الضأن وأربعة أرغفة وحزمة من الفجل وليمونة خضراء ·

ثم جلس هادئا مزهوا كانه قائد يخرج لتوه منتصرا فى معركة ·· ومـر ماسح الاحذية ونقر بفرشاته على الصندوق ولكن المعلم أمين لم يجبه مكتفيا بالنظر الى الحذاء اللامع وعاود الصبى الصغير النقر على الصندوق فركله المعلم أمين بقدمه فى بطنه ، فتقهقر عائدا للخلف فى خطوات سريعـــة غير منتظمة ثم اعتدل ·· ومضى ·

وعاد المعلم أمين إلى جلسته الهادئة المنتفخة كانه ديك ·· واقبل بعد قليل رجل سمين قصير القامة منتفخ الاوداج أصلع الراس لامع البشرة يبدو وكانه عجل صغير معد للذبح ·· فى نظرته تبدو الطيبة ممتزجة بالبلاهة والغباء ، ملطخ الملابس ببقع الدم وبقايا قطع اللحم الرخيص·· وحيا الرجل المعلم أمين وصحبه ·· ثم أدخل بيده خلال فتحة الجلبابوضرب ركبته بيده قبل أن يقول:

ـ مفيش لعب يا معلم ؟

ودون أن يتحرك المعلم من مكانه قال فى هدوء :

ـ ايه الحكاية يا معلم نسر ·· لازم غنى النهارده !!

ـ نجرب يا معلم ..
ـ طيب استنى اما أجيبلك الواد سيد .
وغاب الجرسون قليلا ثم عاد ومعه سيد .. نحيفا ضئيلا غائر العينين بارز عظام الوجه له نظرة لص غشاش ، وان كانت تفصح فى نفس الوقت عن شخصية ذكية طموحة وأعصاب قلقة ثائرة ، وصفق سيد فرحـــا وقفز فى الهواء عدة قفزات متتالية :
ـ مساء الفل يا معلم نسر .. العشرة بجنيه مشفى ..
ورد النسر فى بلاهة :
ـ نتفرج ..
ونهض المعلم أمين على الفور ليعد لهما المائدة والدستة الجديدة والمقاعد وقطع الطباشير ، ولم يكن فى المقهى سوى أربع موائد مشغولة باللاعبين ، فانقض المعلم على احداها وحملها بين يديه وقذف بها على الرصيف ، وعندما احتج اللاعبون صفع كلا منهم على وجهه وقذف بهم الى عرض الطريق .. وهكذا أعدت الجلسة بسرعة للمباراة التى ستنشب بين الـــرجلين ، ونهض الصحاب الذين كانوا حول المعلم أمين فالتفوا باللاعبين .
وبدأت المباراة ، قذف كل منهما ورقة من ذات الجنيه وبـــدأ التفنيط والتفريق واللعب وطار الجنيه الاول والثانى والثالث والرابع ، وعقـــارب الساعة تأكل ظلام الليل ، واللعب وئيد رتيب والخســارة تتزايد وأعصـاب اللاعبين والمتفرجين على السواء قلقة محترقة بتأثير السهر واللعـــــب والنيكوتين .. وجاء الجرسون فهمس فى أذن المعلم أمين بكلمات قصيرة ، فاستأذن بعد أن سلم « التأمين » لاحد الحاضرين وغاب داخل الزقاق ومضت ساعات طويلة قبل أن يبزغ ضوء الفجر ، ومع الفجر عاد المعلم أمين ، وكان الرجل الضئيل النحيل سيد قد خسر كل ما معه .. خمسة عشر جنيهـــا بالتمام ، وآخر « عشرة » قد انتهت ، والمعلم نسر يفنط الكوتشينة ، وســـيد يبحث فى كل خرق من جلبابه عن نقود ، والمتفرجون يشرحون فى لذة فائقة سير العشرة الاخيرة وكيف أن المعلم نسر ترك « الاس البسطونى » من يده ، ولو تمهلقليلا لحسم العشرة قبل الاوان .

واشترك الجميع فى هذا النقاش الذى يدور عادة بعد كل عشرة فنيـــة وكان الحاضرون قد بلغوا العشرين رجلا ، فقد خرج كـــل زبائن المقهى

ليشهدوا سير المعركة الرهيبة بين المعلم نسر وسيد ·· أو أبو سيد كما يطلق عليه المعلم أمين من باب المزاح ·· ·· وقطع هذه الثرثرة الفـــــارغة على المشاهدين صوت أبو سيد وهو يصرخ فجأة :

– خمس دقائق أروح أجيب فلوس واجى ··

وفى هدوء بالغ رد المعلم نسر :

– وأنا ايه اللى يخلينى استناك ؟

– لازم تكفينى لعب ، كده الاصول

– الاصول هى اللى بقولك عليها ··

ووافق المعلم امين على كلام نسر وايده كذلك كل الحاضرين ، فان نسر كان لا يهدأ طوال اللعب فى طلب المشاريب « للجدعان » الذين التفوا حـول المائدة وسادت فترة صمت قصيرة قبل أن يمد أبو سيد يده فى حركة عصبية محمومة الى المعلم امين ويقول :

– هات جنيه لحد الصبح يا معلم ··

– ماحنا الصبح دلوقت ·· كل سنة وانت طيب ··

– قصدى لحد ما روح البيت ··

– على الطلاق من بيتى ما فيه فى جيبى مليم خردة

وكانت المفاجأة قاسية لابو سيد لم يستطع تحملها فازدرد ريقه عـــدة مرات ثم قال للمعلم بنفس الصوت المخنوق بعبرات غير منظورة :

– أنا شايف معاك فلوس زى البنك دلوقت والا خسارة فيه الجنيه ؟

كانما اثار هذا التحدى والاصرار من جانب أبو سيد المعلم أمين فصرخ مهتاجا :

– الله ، انت شريكى ؟ ·· حالف من بيتى طلاق تلاته ما سلف أخويا ابن أمى وأبويا ·· حد شريكى ·· !!

وفى لمح البصر هب أبو سيد كالمجنون خالعا عنه جلبابه وقذف بها فى حجر المعلم ثم جلس وقبض نسر على الجلباب قبل أن يقول مستنكرا :

– دى ماتساويش نكله ·

– هيه ايه دى – على الحرام انت ما تعرف تلبسها ··

وحسم المعلم أمين النقاش بأن وافق على استئناف اللعب على أن تكون آخر « عشرة » اذا خسر أبو سيد اللعب ·· وهكذا بدأ التفنيط والتفريق ولكن

بهدوء أعمق وعدم مبالاة من جانب المعلم نسر ، وبعصبية أشد من جانب أبو سيد . وجاء عسكرى الداورية فسلم على الجميع ، وكل سنة وانت طيب يا معلم . وانت طيب يا حضرة الصول .

شاى الاصطباحة يا واد للباش شاويش

حاضر يا معلم

كل هذا واللعب يدور بين الغريمين اشبه بمعركة حربية يتوقف عليها مصير الحرب ولم يمض وقت طويل حتى ظهر واضحا ان الحظ قد فر تلك الليلة من جانب أبو سيد وانه سيخسر حتى جلبابه .. هكذا ادرك أبو سيد أيضا وهو يلعب آخر « طبلية » واللعب يسير خفيفا وبحذر وتباشير الصبح تلوح فيما وراء الافق وصياح الديكة يملأ الجو وقرقعة عربات « الكارو » تسمع من بعيد والنسمات الباردة الندية التى تهب فى مثل هذا الوقت من كل صباح تنعش الجميع الا اللاعبين فقد كانا يتصببان عرقا وكانهما خارجان لتوهما من حمام ساخن .

وهكذا انتهت العشرة وخسر سيد جلبابه فبدت عيناه المنتفختان حمراوين كحبات التين البرشومى المعطوبة .. وأخذ الرجال الذين كانوا يشهدون اللعب فى الانسحاب فى هدوء وفى اصرار مد ابو سيد يده الى المعلم نسر وقال بصوت مخنوق وكأنه طفل قضى فى البكاء وقتا طويلا .

– هات اثنين جنيه يا نسر

– ولا مليم

قالها نسر فى هدوء غير متكلف وعاد ابو سيد يطلب بنفس الاعصاب الثائرة والصوت المخنوق .

– لا حاخد اثنين جنيه

– والنبى لما تتشنق ، أنا خسران معاك الجلد والسقط .

وأدرك أبو سيد انه لا فائدة ترجى من وراء النقاش وانه حتما ذاهب الى منزله بلا جلباب ولا نقود .. وأطرق قليلا نحو الارض يفكر وهو يصرعلى أسنانه كالكلب ويدعك عينيه باصبعه ، وبسرعة خاطفه سدد أبو سيد لكمة قوية الى فك غريمه انتجت صوتا اشبه بذلك الذى يحدث من احتراق خشب داخل فرن متقد .. وعندما افاق المعلم نسر من المفاجأة قذف بغريمه فى عرض الطريق وظل يلاحقه بالركل والضرب بقسوة وشدة بالغة وكأنه ينتوى قتله ..

وعندما وقف أبو سيد على قدميه أدرك أن عسكرى البوليس قد قرر أن يؤدى واجبه فانسحب مخترقا الزقاق الى منزله ·

كانت الشمس قد بدأت ترسل أشعتها نحو الارض والزقاق يبدو رغم الصباح مظلما والبيوت التى الى جانبيه متداعية الاركان متهالكة تشققت جوانبها بفعل السنين الطويلة التى مرت عليها والنوافذ تفسخت وتحطم زجاجها منذ عهد غابر وبقيت بقاياه على النوافذ مكتسبا لونها الذى كان ناصعا يوما ما ·· لونا آخر شبيه بلون المياه الراكدة ومصباح الحكومةالذى يتوسط الزقاق يلفظ آخر انفاسه ولم يبق فيه سوى ذبالة ضئيلة مرتعشة خافتة وأحس أبو سيد بالدوار وهو يفتح الباب الخشبى الضخم الذى تزينه نقوش كالحة كنقوش التجاعيد التى يضيفها الزمن الجبار الى الوجوه الشائخة ·

وعندما أغلق الباب من خلفه حدث فى وسط الساحة الرطبة شىء غريب لم يكن يتوقعه وكان ولده أبو حباجة فى طريقه الى الخارج فمد يده اليه :

– هات قرش

وانتفض سيد كالمجنون وبكل ما تبقى فيه من قوة صفعه على وجهه وحمله بين يديه وفتح الباب وقذفه الى الزقاق وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، وضج الزقاق بصراخ الطفل ونباح كلب عجوز كان نائما أزعجه الصراخ فقام محتجا بصوته البغيض على تلك الضجة المقلقة وجرى بعض الرجال الذين كانوا ما يزالون فى أماكنهم عند ناصية الشارع ليلحقوا بالطفل المطروح على أرض الزقاق ·· وعندما رفعوا الطفل من فوق الارض ·· كان هناك فى الطابق الاعلى من المنزل رأس امرأة صغيرة حسناء رغم الشحوب الذى يبدو فى وجهها وكانت هى أم الطفل وزوجة سيد النقاش ·· وعرف الرجال فى ذلك الصباح أنها هى التى انتحى بها المعلم أمين فى ظلام الليلة الماضية فترة فى الزقاق ··



ريان بيان فو

محمد عبيد أمي لا يقرأ ولا يكتب · ولكنه قادر على التفاهم بخمس لغات · وهو نكى من طول ما عمل فى ميناء بور سعيد ، يعرف جنسية الخواجا من سحنته ، ويكسب القرش بالفهلوة ·· وهو
مشهور بين عمال الميناء باسم الفهلوى · وعندما نشبت الحرب اغلقت الحكومة البوغاز ، ولم يعد الميناء يشهد سوى مراكب حربية كئيبة يركبها جنود فقراء ·· تدخل سرا وتخرج سرا ·· والاقتراب منها ممنوع · ومع ان الفهلوى فى استطاعته ان يصعد على ظهر اية باخرة يشاء وفى اى وقت يريد ·· وبلا تصريح ، الا انه لم يرغب فى الصعود على ظهر واحدة من هذه البواخر الكئيبة التى تنقل بدل البضائع والركاب ·· قنابل ومدافع وجنود · المهم ان الحرب راحت وجاء السلام ، ومع السلام جاءت المراكب عبر البحار تحمل ركابا كأيام زمان · ولكن ليتها ما جاءت · فركابها أفقر من العساكر ، واغلبهم مهاجرون الى استراليا · تحسر الفهلوى على خواجات زمان ·· العجائز الاثرياء · يبدو ان الحرب قد قضت على هذا النوع من الناس ، واشاعت الفقر والخراب فى بلاد بره · والا ، فلماذا كل هذا الهم والفقر الذى يعيش فيه هؤلاء الوافدون من خلف البحار ·

وبالرغم من هذا كله فالفهلوى حريص على الذهاب كل صباح الى الميناء، يصعد على البواخر ·· يبيع احيانا صورا تذكارية ، واحيانا اخرى يضطر الى ان يشتغل حاويا ويخرج الكتكوت من البيضة ، واغلب الاحيان كان يصعد

الى البواخر وليس معه شيء وينزل منها ومعه اشياء كثيرة · وهو يربح ما يكفيه ويستطيع ان يربح اكثر لو اراد ، ولكن آه لو وقع فى يد البوليس.

شيء واحد فقط كان يقلق بال الفهلوى ويعذبه · وهو عدم الاستقرار على مهنة تضمن له مستقبله ، حتى جاءت الى الميناء مراكب من نوع جديد تحمل عساكر من فرنسا فى طريقها الى بلاد بعيدة · ورغم ان المراكب حربيـــة الا ان الصعود على ظهرها مباح · والعساكر الذين تحملهم البواخر معهم نقود فرنسية ، وهم يستبدلونها بنقود من عملة الهند الصينية ·

عمل سهل ومريح · وقلة تعمل وحدها فى الميدان ·والفهلوى فى حاجـة الى مهنة ·· وهاهى الفرصة امامه والمراكب التى من هذا النوع كثيرة · اذ يبدو ان حربا هائلة نشبت فى تلك البقاع ويبدو ايضا انها لن تنتهى ابدا ·

وراح الفهلوى يصعد على البواخر يستبدل النقود ·· ويربح كثيرا · والاوراق التى فى يده تتضخم وتزيد · واصبح الفهلوى تاجر نقود فى الميناء يكسب جنيهين واحيانا ثلاثة كل يوم · ثم زادت المراكب فزاد الربح،وتضاعف الربح بعد ان اصبحت المراكب تأتى وتعود · وهو يستبدل النقود فى الذهاب والعودة ، وغمر الســـــرور قلب الفهلوى ، فهو يكسب كثيرا وينفق أكثر ، ويتزوج ويطلق واصبح له فى بور سعيد عشيقات ·

وأربع سنين كاملة والفهلوى يرتع فى النعمة ·· وخزانته اصبحت تضيق بالنقود من هذه العملة الغريبة ·· عملة الهند الصينية ·

صحيح أن الدنيا حظوظ ، والحرب التى تدور فى تلك البلاد البعيدة تدر عليه ربحا وفيرا ، ولكن اين تقع تلك البلاد البعيدة التى درت عليه كل هذا الربح ، واصبح الفهلوى اكثر اهتماما بالمشكلة عن ذى قبل · وراح يتتبـع أنباء المعارك التى تدور هناك باهتمام ، فهناك ثورة ·· وفرنســا تحاربها ، وهو يدعو لفرنسا بالنصر ، وهى حتما ستنتصر ·· فهى أقوى ولديها كثير من الرجال والعتاد · وحفظ عن ظهر قلب اسماء القادة الذين يحـــــاربون هناك ، الجنرال كاسترو الفرنسى ·· انه فى صورته يبدو عظيما وشـــديدا وسيأتى النصر قطعا على يديه · فهو يحمل على صدره حفنة من النياشين ، وهو لابد خاض من قبل كثيرا من المعارك ·

والجنرال جياب قائد الثوار يبدو هزيلا ضعيفا ·· وسترته قديمة وليس على صدره أية أوسمة وهو يبدو فى الصورة غلبان كعساكر البوليس ·

انه الآن وبعد ان شاهد صورته متفائل بالنتيجة · وهل هناك شك فى انتصار الفرنسيين · وآه لو انتصروا ، اذن لاستطاع الفهلوى فى نهاية الحرب ان يستبدل كل النقود التى معه بعملة مصرية ·· وهى تساوى عندئذ نصف مليون جنيه · وسيهجر العمل طبعا ·· وسيجرب لاول مرة فى حياته عيشة الاثرياء العجائز الذين كانت تحملهم البواخر الى الميناء قبل الحرب ·

ولكن لو خسر الفرنسيون الحرب ! مُش معقول !!!

ولكنه خاطر كئيب احيانا يطوف بنفس الفهلوى فيزعجه ويحيل حياته الى جحيم ·

فانهم لو خسروا الحرب ·· لخرج الفهلوى من الصفقة عاريا كما كان · ولعاد من جديد الى الميناء يصعد على ظهر البواخر يبيع صورا تذكارية ، ويخرج الكتكوت من البيضة ·· وينشل جيوب الخواجات ··

فهو وان كان واثقا من نتيجة المعركة الا ان هذا الشعور الغريب احيانا يعتريه عندما يصعد على ظهر باخرة مستشفى قادمة من تلك البلاد التى تدور فيها الحرب · وفى بطن السفينة كان يشهد المأساة بعينيه · مئات من الجنود الجرحى فقدوا اعز اجزائهم وناموا فى ذهول ، بعضهم فقد نور عينيه · وكان يعجب لان أغلب الجرحى ليسوا من الفرنسيين ·· هم فى الغالب سود من الصومال او سمر من شمال افريقيا · وكانوا يصعبون عليه ، واحيانا كثيرة ساعد بعضهم على الهرب لقاء بضعة جنيهات من عملة الهند الصينية ·

ومرة انتاب الفهلوى الذعر ، حين تقهقر الفرنسيون فجأة ··· وتقهقر معهم سعر الجنيه الهندوشين · ولم يغمض للفهلوى جفن الا عندما صمد الفرنسيون واستعادوا مراكزهم · كانت محنة ولكنها علمته أشياء كثيرة · فتقهقر الفرنسيين شىء مزعج حقا ·· ولكنه مفيد فى الوقت نفسه ، اذ انه يساعد على مد اجل الحرب ·

ولكن فجأة حدث ما لم يكن فى الحسبان ابدا · فقد جاءت الانباء من بعيد بانسحاب الفرنسيين انسحابا طويلا متواصلا تاركين خلفهم عشرات المدن وملايين الافدنة والاف القتلى والجرحى · وظل الفهلوى اياما طويلة متفائلا بالنتيجة ··· صابرا على المحنة ·· والصبر طيب · ولكن كل يوم يمر كان يخيب ظنه فى فرنسا ·

وجاءت اللحظات الحاسمة فى تاريخ عبيد وتاريخ الحرب فى الهند الصينية · وبرز الى الوجود اسم قلعة ديان بيان فو · واصبح هذا الاسم جزءا من حياة الفهلوى · واكثر من خناقة عنيفة نشبت بينه وبين بعض التلاميذ من مدرسة بور سعيد ·· الذين يتحمسون للثوار ويتمنون لهم النصر!! مغفلون هؤلاء الاطفال لا يدركون عظم المصيبة التى ستحط على راس الفهلوى لو حدث ما يتمنونه · وأصبح الفهلوى حاد المزاج ، يضرب الناس لاتفه سبب ، ويقلب مائدة الطعام بلا سبب ويصفع زوجته كل صباح عدة أقلام سخنين ··· ويسب الدين والدنيا ، ويبصق على حال الدنيا الذى لايدوم لاحد · حتى ولا لفرنسا واصبح الفهلوى زبونا للصحف ، يقرأ انباء المعركة بشغف · ولم يعد يختلط بأحد ·· او يحتك بانسان · حتى عمله فى المراكب هجره فى انتظار نتيجة المعركة · وزوجته طلقها واستراح من وجهها النحس، واصبح شغله الشاغل كله ·· الجنرال كاسترو ·· الذى يحس نحوه حنينا عجيبا · والجنرال جياب الذى يود من صميم فؤاده لو تتيح له الايام فرصة صفعه على قفاه ·

وجاءه النبأ الرهيب بعد أيام ، فقد انتصر الثوار وخسر الفرنسيون المعركة ، وخسر هو كل ما عنده من نقود ·· فلم تعد تساوى ثمن الحبر الذى طبعت به · وتهاوى الفهلوى تحت عظم الصدمة فمرض واصفر لونه واستبد به الهزال ·· ثم اصيب بالشلل فلم يعد قادرا على الحركة ·

وأيام طويلة كئيبة بائسة مرت عليه وهو يفكر عميقا فى المأساة · ويكاد يفقد عقله وهو يتساءل فى ذهول : كيف هزمت فرنسا ؟ وكان احيانا يخرج من بحثه الطويل بسبب يرضيه ، لا بد انها ارادة الله ، فقد عصت فرنسا تعاليمه ، وهو يعلم تماما انها بلد المساخر ، وانها بؤرة الرذيلة والشيطان ·

شىء واحد فقط لم يستطع تعليله على الاطلاق ·

كيف هزم الجنرال كاسترو ·· وهو يحمل على صدره كل هذه المجموعة الهائلة من النياشين ·

وكيف انتصر الجنرال جياب ··· وهو فى بذلته الحقيرة ، وليس على صدره أثر لنيشان ··· ويبدو فى الصورة غلبانا كعساكر البوليس ·· لابد انها حكمة الله !!!

جنة رضوان

خيم السكون والليل على « دحديرة » ابن طولون ، ولفت الظلمة الحالكة كل شىء فى الممر الضيق الملتوى الملتصق بجدار الجامع العتيق ، وخلا الطريق من كل شىء الا من وقع أقدام بعض الرجال المتعبين العائدين الى منازلهم فى أعلى الدحديرة ، أو طفل يجلس القرفصاء بجوار الحائط يقضى حاجته ٠

ولكن من أول الدحديرة كان يبدو نور قهوة المعلم سلطان باهرا كضوء الشمس ، وصوت الراديو يلعلع من بعيد ، وعلى الضوء كانت اشباح الجالسين فى حلقات تظهر بوضوح ، وهم يتبادلون الجوزة فيما بينهم فى استرخاء طبيعى لذيذ ٠ والواد برهومة يلف كالدبور حول الزبائن والكراسى وصوته يملأ الجو ع الفاضى وع المليان ، وعندما شاهد المعلم رضوان مقبلا من بعيد أول الدحديرة هتف وهو يضبط ساعته على التاسعة تماما :

– كراسى يا واد للمعلم رضوان وصحبته ٠٠

ومع أنه لم يكن هناك واد سيلبى نداء برهومة ، الا أنها كانت عادته دائما كلما لمح المعلم رضوان مقبلا من بعيد ٠ والمعلم رضوان زبون دائم منذ أكثر من عشرة أعوام ، لم يتخلف يوما عن موعد حضوره الى المقهى كل مساء فى التاسعة تماما ٠ فهو يعمل خبازا فى فرن مجاور للمقهى ، وهو يبدأ عمله فى الثانية عشرة تماما ، فهو يقضى فى المقهى كل يوم ثلاث ساعات ، وكانت فلسفته دائما التى يشرحها لكل من يسأله عن سر مواظبته على موعد المقهى :

ـ وهنعمل ايه ، عشان يبقى البيت جنب الغيط ، مش أحســـن ما نروح سيما ولا نسكر ونعمل منكر مايرضيش الله ! والحقيقة أن المعلم رضوان لم يغضب الله أبدا ·· فهو فى الخمسين من عمره الآن ، وهو منذ أن مـــاتت زوجته وهو يعيش حياته على وتيرة واحدة · من الثانية عشرة حتى الصباح أمام النار يخبز العيش ، ومن الصباح حتى غروب الشمس نائم فى البيت ، ومن التاسعة حتى بدء العمل فى الفران على مقهى المعلم سلطان · وهو لايأتى الى المقهى وحده ، بل دائما تحوطه شلة من الأصدقاء ، هو دائما أعلمهم ، ودائما أغناهم ، فجميع الطلبات التى تنزل الأرضية على حساب المعلم رضوان وفى ذلك المساء عندما حضر ومعه شلته اختاروا مكانا خارج المقهى وجلس صامتا يكركر فى الشيشة العجمى التى لا تفارق فمه أبدا مادام هو موجود فى مقهى المعلم سلطان ، ولكنه فجأة قطع الصمت المخيم على الجميع وهتف فى صوت ممطوط :

ـ أنا حلمت حلم النهارده ربنا يجعله خير ··

وهتف الكل فى نفس واحد :

ـ خير انشالله ··

وعاد المعلم رضوان يقول فى نفس الصوت المنغم الممطوط :

ـ خير !! حلمت ان واحد جه صحانى م النوم وقاللى قوم يا رضـــوان ، قلتله على فين ، قاللى اللى خلقك عاوزك ، قلت سبحان الله لا اله الا الله ·

وبلا سبب أو مبرر مفهوم ، هتف أحد الجالسين على الفور :

ـ يا سلام يا معلم ·· يحيى العظام وهى رميم ·

ـ أمال ، قدرة ، الغرض انا قمت معاه على طول ·· فضلنا ماشيين مع بعض لما صادفنا باب أخضر دخلنا منه ·

وقطع الحديث رجل آخر ، هتف وجسمه كله يهتز من النشوة ·

ـ الله أكبر ·· ربنا يوعدنا ، حاكم الباب الأخضر ده خير ·

وفى ثقة واطمئنان ، قال المعلم رضوان :

ـ أمال ! ·· الغرض دخلنا م الباب الأخضر بصيت لقيتلك جناين عـــلى كل لون · ورد ، وزرع ، وخضرة ترد الروح وفواكه من كل صنف مالهاش سعر ·· جوافه ، وفول أخضر ، وتفاح أمريكانى م اللى كان بييجى هنا قبل

الحرب ، حاكم النوع اللى شفته ده فى الحلم ، عنيه ماشفتوش بعد الحرب أبدا ··

ورد شاب صغير كان يجلس مع الجمع المحتشد حول المعلم رضوان :

ـ يابخت اللى عاش قبل الحرب ، ده أبويا بيقول ان العشر بيضات كانوا بقرش واحد ·

وعلق بعض الجالسين على كلام الشاب بفتور ·· وعاد المعلم رضوان فاستأنف حديثه على الفور :

ـ الغرض بصيت لقيت فى الناحية التانية وحوش من كل نوع ، غزلان تلاقى ، سبوعة تلاقى ، لبو تلاقى ·· انما هادية وواقفة ساكتة بأمر ربها · سألت الجدع اللى معايا فى الحلم ، قلتله احنا فين ؟ ·· قاللى احنا فى الجنة ياعبيط ، وهو قال الكلمتين دول ·· وبصيت مالقتوش قدامى وصحيت م النوم قلت اللهم اجعله خير يارب ·

وهتف الجميع فى نفس واحد :

ـ خير انشالله ··

وقال واحد :

ـ ده ربنا كتبلك طولة العمر ، حاكم الموت فى الحلم يعنى عمر طويل ·· كل شىء يبقى عكسه فى الأحلام ·

وضحك المعلم رضوان فى فتور ·· وقال :

ـ والا الموت يا سيدى ، ما كلنا لها ، حد بيخلل فيها ·

وقال برهومة الجرسون ، وكان قد سمع شطرا من الحديث :

ـ أبدا وحياتك يا معلم ·· شقى وآخرتها قطنة ، وياريت نطولها ·

وجذب المعلم رضوان عدة أنفاس متلاحقة محمومة من الشيشة ، ثم قال فى هدوء :

ـ ياعم والله بنتمناها ، هيه مقابلة ربنا حد يطولها ·· بس ربنا يجعل آخرتنا حلوة ، ونشوف الجنة ··

وسكت قليلا قبل أن يقول :

ـ دى الجنة حلوه ياجدعان ، اللهم صلى على أجدع نبى ··

ثم رفع يديه فجأة الى السماء ·· وهتف على الفور :

ـ الفاتحة على روح أمواتنا وأموات المسلمين ··

ورفع الجميع أيديهم الى السماء ، وقرأوا الفاتحة فى صوت خفيض ثم مسحوا وجوههم بأيديهم وجلسوا صامتين ، وقطع الصمت واحد منهم ، قال فجأة وكأنه يريد أن يطمئن نفسه :

ـ الجنة حلوه ، بس مين يطولها يا معلم ٠

وفى الحال رفع المعلم رضوان ساقه ووضعها على الساق الأخرى ، ومال بنصفه الأعلى الى الامام ، ونظر بعينيه الضيقتين الى محدثه ، وقال فى هدوء شديد :

ـ كل المسلمين هيطلوها ، حاكم ، النبى بتاعنا متشفع لنا ، ووارد فى الكتب حديث عن النبى بيقول « يارب أمة المسلمين انا متشفع لها » ٠

وفتح السائل فمه فى دهشة وعجب ، وقال :

ـ يا سلام ع القدرة يا جدعان ، بقى يعنى الواحد هيشوف الجنــة ، سبحان الله ٠ أنا كنت بقول الجماعةالفقرا اللى زى حالتنا عمرهم ماهيشوفوا ميتها ٠٠

وقال المعلم رضوان فى ثقة العالم بالأمور :

ـ كدب ، مافيش حاجة اسمها غنى وفقير عند ربنا ، كله يوم القيامة واحد ٠ نقف فى طابور واحد قدام بابين ، باب أخضر وباب احمر ٠ الباب الأخضر ده الجنة والاحمر النار والعياذ بالله ٠ اللى مكتوبله الجنة يخش م الأخضر ، واللى بعيد عنكم مكتوب عليه النار يخش م الباب الأحمر ٠ اللى هيخش م الأخضر يبص يلاقى على طول الجناين فى وشه ٠ جناينمالهاش حدود ، ويلاقى السرايات على الجنبين ، كل واحد يستلم سراية ، وحاكم سرايات الجنة مش كبيرة ، يدوبكعلى أد الواحد٠ وهيه كل الحكاية دورين٠ أول دور من غير مؤاخذة للأكل بس ، وتانى دور للنوم ٠ وهناك نظــام مفيش بعد كده ٠ الواحد يصحى الساعة حداشر ، اتناشر ٠٠ على مهله، مفيش شغل هناك ، وساعة ما يصحى ينزل يغسل وشه ، ويلبس جلابيــة بيضة نضيفة ، ويقعد ع السفرة زى الناس الذوات ٠ يبص يلاقى ع السفرة دى كل شىء قلبك يحبه من خيرات الله ٠ فول زى الألماز مهروس فى الزبدة البقرى الحلوه ، وعسل وطحينة . وجبنه حلوم بخيرها ، واللبن اللى لســه محلوب من بز أمه ، والدقة اللى معمولة بصنعة نضيفة ، والعيش الأبيض اللى زى الفل ، وجرجير وفجل من خيرات ربنا اللى فى الجنينة ٠ قــول

ياكل ده بده ، ويقوم يتمشى شوية فى الجناين ، أو يقعد جنب الشـــــــباك المفتوح ع البحرى يجيب تراوة ترد الروح ، حاكم كل الشبابيك اللى فى الجنة ع البحرى ٠٠ والجو دايما هناك خريف يرد الروح ، ولا ترابة تـــلاقى ، ولا عفارة تلاقى ، حاجة نضافة مفيش بعد كده بقدرة ربنا ٠٠

كان الجمع المحتشد قد أصغى بكل ما فيه من حواس لحـــديث المعلم رضوان ، وأشرف الجميع على مقاعدهم يستمعون فى نشوة وأعجاب وهم يلعقون السنتهم تارة ، ويهرشون بين افخاذهم تارة أخرى ويتثاءبون على الدوام ٠ ولم يحاول أحدهم أن يقاطع المعلم رضوان ، فعاد الأخير يسرد القصة فى حماس هادىء جميل :

ـ المهم بعد كده ، الواحد يطلع تانى ينام ، ما هو مفيش شغل هناك ، ولا قوم روح الفرن ولا شوف العجين ولا كافة حاجة من دى ، كل واحد حر نفسه ، فعلى طول الواحد يطلع ينام تانى لحد الساعة خمسة ، الساعة ستة، على كيفه ٠ وعند ما يصحى يلاقى السفرة متحضرة ، فراخ عتاقى محمرة ، كتاكيت مشوية ، أرانب بالملوخية ، كبده على كلاوى ٠٠ حاجات م اللى تجرى الدم فى عروق الواحد وتخلى عنيه تفنجل ٠

ولعق المعلم رضوان ريقه ، وكذلك فعل بقية الموجودين ٠٠ وسأله واحد:

ـ مفيش شوية طرشى يا معلم ؟ ٠٠

ورد المعلم فى ثقة بالغة :

ـ دى مسألة مزاجات بقى ، عاوز طرشى يجبولك ، كافة شىء ترغبـــه نفسك يحضر على طول ، أمال هيه جنه ليه ؟!

ثم عاد المعلم رضوان يسرد قصته الجميلة ٠٠ والآخرون يستمعون فى لذة فائقة :

ـ بعد الأكل بقى الواحد يغسل ايديه ، مفيش هناك حاجة اسمها تكسل تغسل ايديك ، النضافة واجبة هناك ٠ وبعد كده يجيلك الحور العين ، ستات زى البقلاوة ، حاجة تفتح النفس ، مش زى الستات اللى الواحد بيشوفهم فى السكك دول ، ما يغركش الأحمر والابيض ، دى مسائل بوليتيكا كلها ، انما هناك حاجة طبيعى بتاعة ربنا ، وكل واحد يختار اللى على كيفه ، حلاله ٠ وعلى أد الواحد مايحرم نفسه من الدنيا دى ، على أد ما يمتع نفسه هناك ، والعين بالعين والسن بالسن ٠٠

وهتف واحد من الجالسين :
ــ الله أكبر يا معلم ·· أد كده ··
ورد المعلم على الفور :

ــ أمال ، ماهو يعنى ايه حكاية العين بالعين دى ، يعنى زى ما تعمل تلاقى ·· تهيص فى الدنيا وتلعب تنشوى فى نار جهنم ، تمشى عدل وتشوف أوامر ربنا ، تتمتع زى ما بقولك دلوقت بالظبط ··

وسكت المعلم رضوان قليلا ، ريثما أزاح عمامته الى الخلف قليلا قبل أن يقول :

ــ المهم الساعة اتناشر بالليل يكون العشا جاهز فى الجنة تنزل تتعشى لقمة خفيفة ، شويه لبن ، حتة مربى ، حتة جبنه ، شويه زتون ، لقمة عيش فينو · وتطلع تتمشى شوية فى التراوة ، وفى القمر الحلو ·· حاكم القمر ما يختفيش أبدا فى الجنة · يتنه منور على طول · عاوز تشوف حد ، تود حد ، عاوز تزور جماعة صحابك ، جماعة كده كده ·· زى مانت عاوز ··

وهرش واحد من الجالسين قبل أن يسأل المعلم رضوان سؤالا محيرا :
ــ لكن الجنة واسعة قوى يا معلم ·· الواحد هيزور الناس فيها ازاى ؟

ــ لأ ما هو كل جماعة صحاب جنب بعض ، وع العموم ان كنت عاوز تشوف حد فى الجنة بس تتمنى فى نفسك ·· وعلى طول تشوفه ·

ــ ازاى دى بقى ؟
وارتبك المعلم رضوان قليلا قبل أن يقول :
ــ الله !! أهو دا اللى حصل بقى · انت شريكه ·
وسكت الرجل ، فقد أفحمه منطق المعلم رضوان ·· ودار الهمس بين الجميع ، وتحركت السنتهم بتعليقات شتى :
ــ صحيح يا ناس ربنا قادر على كل شىء ··
ــ سبحانه ·· هوه المغنى ··
ــ يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ··
ــ ده ربك كبير ··

وعندما سكتت الأصوات ، وهم المعلم رضوان باستئناف الحديث من جديد ، زعق الواد برهومة كالغراب :

– يا معلم رضوان ، الساعة بقت اتناشر ..

وضرب المعلم يده فى جيب الصديرى فانتزع ساعته الضخمه القديمة.. كانت الثانية عشرة تماما .. فأعادها الى جيبه من جديد ، وقام فانتحى ببرهومة جانبا وحاسبه على المشاريب ، ثم حيا الجميع من بعيد ، وراح يحث الخطى على بلاط الدحديرة حتى وصل الى الفرن . وعندما اصبح فى فم الباب أحس بوهج النار تكاد تلهب بحرارتها حتى الجدران ، ونسى المعلم رضوان كل شيء ووثب نحو الداخل على عجل ، وخلع جلبابه فعلقه فى رأس المسمار ، ثم قفز الى أسفل وفتح باب الفرن ، فأحس كأنه فتح بوابة جهنم ، وتصبب العرق على جبهته بغزارة وهو يتناول ارغفة العيش ليقذف بها داخل النار ، وفى رأسه تطوف كل الصور التى رسمها بنفسه للجنة التى لابد وأن يراها فى يوم من الأيام ..



غيط القصب

يا وكستك يا حمدان بعد العمر الطويل تطلع حرامى وتدخل اللومان ويموت أولادك من الجوع فى كفر الغنايم ·· وانت طول عمرك شريف تضع على رأسك لبدة ، وعلى صدرك نمرة ، وعلى كتفك بندقية تحرس بها غيط القصب للشركة ، ولك مرتب ثابت كالمستوظفين وانت طول عمرك قانع يا حمدان بالجنيهات الثلاثة كل شهر ، تدفع اثنين منهم للعيال فى كفر الغنايم ، وتصرف انت واحد طول الشهر تأكل وتنام وتلبس وتشرب الشاى وأحيانا تدخن السجاير الممتاز ·

والجنيه صحيح لا يكفيك . والأمراض تنهش جسمك والروماتزم ينشر عظمك وأصابع قدميك تطل من بوز الجزمة ، والعقارب تسرح حولك فى الجحر الذى تأوى اليه والشقوق التى تمزق يديك تقيحت والخيبة تحط عليك من كل مكان ·

وقطع على حمدان تفكيره غلام جاء يعدو من بعيد ، ويزعق بصوت كريه وكأنه غراب :

ـ فز يا حمدان لفندى فى الشركة ··

وزام حمدان كأسد أسير ولم يتكلم ، وأعاد الولد نداءه ، ثم استدار وراح قافزا مثلما جاء ، وقضم حمدان ابهامه ، ثم نكش شعر شاربه المنفوش ، وعاد يفكر فى الوكسة العريضة التى أصابته آخر الزمان ·· فلابد أنها ساعة

نحس تلك التى رآه فيها الأفندى معاون الشركة وهو يبيع حزمة القصب بقرشين والأفندى المعاون مؤذى لا يرحم أمه ، وسيطرده حتما وربما قدمه للمركز مقبوضا عليه ، والمركز يسمع كلام الشركة ٠٠ ونهارك أزرق ياحمدان لو سجنوك ٠٠ فمرة قبل الآن ضبطوه وهو يسرق القصب ٠٠ ويومها سلموه للمركز ٠٠ وضربه العساكر بالكفوف والقوايش ٠٠ وبات اربعة أيام على الأسفلت ثم أطلقوه حرا بلا تهمة ولا عمل ٠٠ لانهم فى الشركة استغنوا عن خدماته ٠٠ وليس يعقل أن تقبل الشركة بين خفرائها لصوصا من عينة حمدان ٠٠ولكن حمدان ليس لصا، وهو لايصدق أبدا أن الشركة تفصله من أجل حزمة قصب يضيع مثلها عشر مرات فى كل ساعة ، طعاما للذباب ، والفلاحين الذين يعبرون الطريق ، واللصوص الذين يعيشون داخل غيط القصب والشركة لن يلحقها الخراب من أجل حزمة قصب يبيعها حمدان لابد أنها عين أصابته من العاطلين الملطوعين على جانبى السكك فى كفر الغنايم ،وجفيت أقدام حمدان عند الشيخ ، وعند النائب ، وقبل رجل الضابط ، وانحنى على يد الشاويش ٠٠

ونام اياما عند بيت المعاون ٠٠ ثم قبلت الشركة أن يعود الى عمله على شرط الا تمتد يده الى عود واحد من القصب ٠٠ ورضى حمدان بشرط الشركة ٠٠ وهو على يقين بأن يده ستمتد دائما الى غيط القصب ينتزع منه عيدانا يمصها وأخرى يبيعها ويحصل على ثمن الدخان ، وغيط الشركة مثل بحر المالح ليس له برور ٠٠

وعاد حمدان الى غيط القصب يحرسه ، والتجربة التى خاضها قد غمرت نفسه بأحاسيس جديدة ، وحركت برأسه أسئلة كثيرة لم تكن تطوف به من قبل لماذا تكره الشركة السرقة عندما تكون من جانب حمدان ، مع أن الشركة تسكت على سرقات على نطاق أوسع من جانب لصوص يعيشون داخل القصب ، والشركة تعرف هؤلاء واحدا واحدا ، وتدفع لكل منهم أجرا كبيرا يوازى أجر المدير ٠ وتحترمهم أيضا وتتركهم ينتزعون محصول فدادين كثيرة والشركة تبدو راضية كل الرضى ٠٠ بل انها فى أحيان كثيرة تأمر بتعيين انفار لا حاجة اليهم لأن هؤلاء اللصوص اشاروا بتعيينهم وهو يعرف هؤلاء اللصوص جيدا ، فهم ينزلون ليالى كثيرة عليه ويقضون ساعات الليل معه ، يشربون الشاى ويتحدثون احاديث فاجرة ٠٠ ويشتمون المدير والمعاون ويتحدثون عن الضابط حديثا صريحا وكأنهم لا يخشونه ، ومن خلال

تلك الأحاديث فهم حمدان انهم على علاقة وثيقة بالشيخ وبالنائب ، وانهم أحيانا ينزلون ضيوفا عليهم وعلى الاعيان يأكلون ويسمرون وكأنهم معهم فى نفس المنزلة ٠٠

وتوقف حمدان عن السرحان فقد ناداه خفير آخر من عند باب الشركة بصوت مرتفع ٠٠

– يا حمدان كلم لفندى المعاون عاوزك ورد حمدان بصوت أعلى :

– طيب ، يعنى هو مستعجل جوى ع الشر ٠٠

واستدار الخفير الآخر ومضى داخل الشركة ، وعندما غاب عن ناظريه عاد يفكر وهو يتساءل فى دهشة عن السر الذى يفصل بينه وبين هـؤلاء اللصوص الذين يعيشون داخل غيط القصب انهم ليسوا أقوى منه جسدا ، بل هو أقوى من بعضهم ! طوله مفرط ، وقلبه ميت لايخشى الأسود ومعه بندقية من نفس النوع الذى يحملونه ، ولكن هو عار ، وهم فى أبهى حلة ، الجلاليب الصوف والجوخ فى الشتاء ، ومن تحتها القفاطين الشاهى والجزم الطويلة فى أقدامهم ومن تحتها الشرابات الصوف ، والكتاين الذهب تتدلى من جيوبهم وفى الصيف يلبسون الحرير الطبيعى والفانلات المشغولة بالابرة والصنادل التى تكشف عن الأصابع والكعبين ٠ وهو مفلس دائما ، وهم دائما فى يسر ، محافظهم منتفخة ، وسجائرهم من نفس النوع الذى يدخنه الضابط واللفندى المعاون ، وهو يشرب السجاير الفرط ، ولا يجدها بسهولة فيمد يده الى غيط القصب ليعيد عصافير رأسه التى تهرب منه وتطير ٠

سؤال غريب ٠ احتار حمدان فى البحث عن جوابه ٠٠ ماذا يفصل بينه وبين هؤلاء اللصوص حتى أنهم يرتعون فى النعمة ، ويشرب هو كل ما فى الوجود من ذل وهوان يرعبه الضابط ، ويبعد النوم عن عينيه أفندى مفعوص مثل المعاون انه أقوى من بعضهم والسلاح الذى معه مثل السلاح الذى معهم ولكنه يمتاز عنهم بأشياء كثيرة هى انه يستطيع المشى أمام مركز البوليس فى أى وقت يشاء وهم لايستطيعون ٠ وشيخ البلد يسأل عنه أحيانا ، ولا يسأل أبدا عن هؤلاء المطاريد والنائب زاره مرة فى بيته وجلس معه فوق الفرن وشرب معه الشاى وعامله بمودة ويوم الانتخابات ذهب ومعه تذكرة القى بها فى صندوق ٠ والآخرين لايستطيعون أن يذهبوا فليس لهم تذاكر ، وليس لهم

عند الحكومة وجود · وهو يخدم الشركة ، والاخرون يسرقونها ومع ذلك فله منها الاحتقار ، ولهم منها العطاء · أحوال مقلوبة مثل كل شيء في الوجود ، ويبدو أنها ستظل مقلوبة ، ولا سبيل الى اصلاحها على الاطلاق · ولو أن هناك عدلا لمنحته الشركة العلاوة التي طلبها منذ عام ، اذن لما سرق ، ولما وقف هذا الموقف الذي لايدري كيف يواجهه · فقد فات الاوان واقشعر بدن حمدان كله وهو يتخيل نفسه في الحديد ، وصفا من الجنود يحرسه ، ثم المحاكمة والسجن ومصير أسرته في كفر الغنايم وكلام الناس عليه · وأطفاله كلهم صغار ليس فيهم من يستطيع أن يعول العائلة وكفر الغنايم كله سوف يشمت فيه · وستهون أسرته وتذل ، وستخدم الذي يسوى والذي لايساوي شيئا في سوق الرجال · وهو نفسه بعد أن يخرج من السجن ويعود الى كفر الغنايم ، ماذا يفعل وهو لم يكن يجد عملا في الحقول قبل أن يعمل في الشركة ، انه سيبقى ملطوعا على جدار المضيفة يدور مع الشمس اينما تدور ·

ولو انه لم يسرق القصب في تلك الساعة المهببة التي كان المعاون يمر فيها على الخفراء لما حدث من هذا شيء ولكن ، الله يخرب بيته محمد افندي المدرس الالزامي هو الذي أصر على شراء حزمة القصب في تلك الساعة لأن أولاده مغرمون بمص القصب في النهار وهو طول عمره يسرق القصب ويبيعه في الليل ، ولكن هكذا اراد له القدر ومحمد أفندي وأولاده المغرمون بمص القصب في النهار أسباب ليس الا وليس امامك ياحمدان الا التسليم بارادة الله ·

ونفخ حمدان وهو ينتزع بأصابعه من جيبه الداخلي سيجارة يشعلها علها تهدىء أعصابه ، وتضغط بدخانها على الثورة التي تجيش بنفسه ، ولو كانت العسكرية قبلته لاستراح من هذا كله ، ولكنه لسوء البخت ـ اقرع ـ والعسكرية لا تأخذ القرع وعلى عينيه الشمال سحابة اصابه بها مرض لايدري عنه شيئا كاد يفقده نور عينيه وهو طفل صغير ·

واشعل حمدان السيجارة ، وجذب منها انفاسا عميقة · وراح ينظر بعين نافذة الى غيط القصب الذي يترامى أمامه عريضا مثل البحر المالح ليس له برور · وفي داخله تسكن اسود كاسرة من البني آدم تحتقر المدير والمعاون ، ولا تخشى الضابط ولا تعمل حسابا للخفراء وتلبس الصوف في

الشتاء والحرير فى الصيف وجيوبها عامرة بالمال ، وسجائرها فاخـــرة النوع ، ولها من الشركة مرتب الخواجة المدير ، ومصمص حمدان شفتيـــه وبدت على وجهه ابتســـامة ارعشت معالمه كلها . وجاءه نداء مرتفـــع من الخلف يطلب اليه أن يسرع فى مقابلة المعاون · ولكن حمدان لم يســـمع النداء ولم يهتم به ، فقدتحسس سلاحه ونهض على قدميه ، واخترق هـــذا السياج الذى يفصل بينه وبين الاسود الكواسر التى تسكن الغيط وانفرجت أعواد القصب وتهشمت تحت أقدامه أعواد ما لبثت أن عادت وتآلفت ، وغاب حمدان من خلفها عن الأنظار · وغدا سوف يصبح حمدان واحدا من الاسود الكاسرين ·



شد اللبان

يخرب بيت الذين نصحوك يارشوان بركوب المركب ٠ لقد انهد حيلك وانقطع قلبك ، وستموت حتما قبل أن تصل الى مصر ، ولو فعلت كما أوحى لك تبيرك وعقلك لكنت الآن فى الطريق الى مصر خفيفا على قدميك ، ولما كانت الحبال قد أدمت كتفك وعنقك وانت مربوط فيها طول النهار كأنك قرد ، والمركب من خلفك ، ومن فوق المركب آلاف البلاليص ومن فوق البلاليص عشرة رجال يملكون المركب ولا يتحرك رجل منهم ليشد اللبان قليلا يا رشوان ٠

وزفر رشوان زفرة حارة وهو ممدد كالفسيخة على ظهر المركب ينظر فى نجوم السماء ، ومياه النيل ساكنة متموجة فى رفق ، ولا نسمه هواء ويبدو انها لن تكون وسيشد اللبان فى الصباح كما شده كل يوم منذ شهر ، ورفع رشوان يده التى أدماها الحبل يتحسس عظامه التى تحطمت وعروق رقبته التى برزت وانتفخت وأصبح لونها أزرق من النيلة ٠٠ انه الآن فى بنى سويف وبعد خمسة أيام سيصبح فى مصر ولكن من يدرى ، فقد لا يصل الى مصر أبدا انه يحس الآن احساسا صادقا نابعا من جروحه التى تقيحت ، انه سيموت فى الطريق وسيدفن فى قبور مهجورة مجهولة كالكلب ، والله ينكد على صالح فهو الذى أشار عليه بهذه المشورة المهببة وأكد له أنه لن يشد اللبان اكثر من يوم ٠٠ وربما يومين وأحس رشوان بحركة غريبة من خلفه

فاستدار بعنقه ليرى من هناك ، ولم يكن هناك سوى الريس سليم الذى يملك أكبر حصة فى المراكب ، وكان يتأهب للصلاة ، فرش جلبابه ناحية القبلة ، ثم بسمل ورفع يديه نحو رأسه ، ولكنه فجأة أحس برشوان يتقلب على ظهر المركب كالسمكة فسأله فى استنكار :

ـ جاعد كده ليه يارشوان ، عما تفكر فى ايه ؟

ـ فى حال الدنيا ٠٠

ـ وما لها الدنيا ما هى عال ٠٠

ـ عال جوى عشان مانت جاعد زى البلاص طول النهار ، وأنا عما اشد فى اللبان لما انهد حيلى ٠٠

عجايب ياخوانا على رجالة اليومين دول ٠٠ دى رجالة ورج ٠٠ وهلل الريس سليم وكبر واستغرق فى الصلاة ، ومرت على ذهن رشوان كل ذكريات الأيام المريرة التى عاشها فى النهر على ظهر المركب ولا عمل له الا شد اللبان ، فهو فى حاجة فعلا الى السفر الى مصر ، بعد أن وصله خطاب يفيده بضرورة الحضور للعمل فى شليش الخضار بروض الفرج ، وكانت أمنية رشوان الوحيدة أن يجد عملا فى مصر ولو من غير أجر . فهو يعلم أن زيدان وعبد المعبود بدأوا حياتهم فى الشليش بوجبات اليوم ثم أصبحوا بعد ذلك معلمين كبارا وأصحاب أطيان ، وهو لا يهمه كيف يبدأ المهم أن يجدما يبدأ به، ولكن المشكلة كانت فى الطريقة التى يسافر بها الى مصر وهو لايملك نقودا ولا يستطيع أن يقترض وفكر رشوان بعمق ثم قرر فى النهاية أن يرحل الى مصر مشيا على قدميه ، فكرة وليس أمامه سواها ، وهو لن يعدم وسيلة ليجد غذاءه وثمن الدخان على طول الطريق ، ولكن صالح وجد له حلا للمشكلة : لماذا لا يركب مركبا الى مصر ولن يدفع شيئا ، ولكنهم سيطلبون منه أحيانا أن يشد اللبان عندما تكون الريح هادئة والمركب عاجزة عن السير فى مجرى النهر ٠٠ وصالح نفسه جرب هذا من قبل ، ودخلت الفكرة رأس رشوان وهو قوى ويستطيع شد المركب عندما تهدأ الريح ٠٠ وهى لا تهدأ الا يوما وربما يومين ، وذهب رشوان الى النهر ، وساوم واتفق وجاءت قرعته فى مركب الريس سليم ٠

وكانت الريح عظيمة نشطة ، والمركب تسير كالونش ولا حاجة هناك لشد اللبان ، خمسة أيام فقط ثم هدأت الريح تماما وكأنها ماتت ٠٠ وجاء الدور

على رشوان ليجرها بدل الريح ، وهكذا ربط نفسه فى انحبل وغاص فى الطين عند حرف البحر وهيلا هوب والمركب تتهادى من خلفه ومن فوقها البلاليص ومن فوق البلاليص عشرة رجال ، ومضى يوم ويومان وأسبوع والريح يبدو أنها لن تبعث من جديد ..

ولو واحد فقط من الذين على ظهر المركب يشد اللبان ليوم واحد يستريح فيه رشوان اذن لصار قادرا على الشد أبد الدهر ، ولكنهم جميعا يرفضون .. انهم أصحاب المركب ، كل منهم له حصة . ثم ان الاتفاق حدث بينهم وارتضاه رشوان ولم يجبره أحد على أن يقبله .. وفى الأمسيات التى كان يسهرها رشوان مع الرجال العشرة كان أحيانا يثور على الوضع الذى انتهى اليه الحال على ظهر المركب ، وكان يصرخ فيهم محتجا ..

– هو ما فيش عدل .

– كلام ايه ده اللى انت بتجوله ؟

– هوه مافيش رجالة تانى تشد .

– ما هوه انت اللى رضيت ، كان حد ضربك على جفاك ؟

– طيب وسيدى عبد الرحيم لماشى بكره وسايب المركب .

– مع السلامة يا خى ، انت حتشاركنا ولكنه كان يعجز دائما عن تنفيذ وعيده ، انه لا يستطيع أن يغادر المركب ، لقد شد اللبان اكثر من أسبوعين فكيف يتركها اذن وقد تهب الريح فجاة فيستريح ، ثم هى لابد أن تهب حتى لا يفوت الوقت وتضيع الشغلة .. ولو ضاعت اذن لمات جوعا فى مصر ، وماتت الأولاد فى الصعيد . ولكن الريح ظلت ميتة حتى وصل المركب الى أسيوط .. ونامت بعد ذلك بجوار الشاطىء خمسة أيام كاملة ولم يغادرها رشوان أبدا كان مشغولا عن النزول الى البر بجروحه وهمومه وتفكيره الدائم فى الشغلة وفى الأولاد ، وفى عبد المعبود وزيدان وصابر الذين أصبحوا بنكيرة وأصحاب أطيان .. ثم جاءت الريح بعد ذلك وانزلقت المركب فى الطريق الى مصر ، واستطاع رشوان أن يهدأ وأن يطيب جروحه ، وأصبح قادرا على الحركة وعلى المشى .. وأحيانا كان ينزل الى البر عند القرى التى تقف عليها المركب فيطوف فى داخلها يشاهد معالمها .

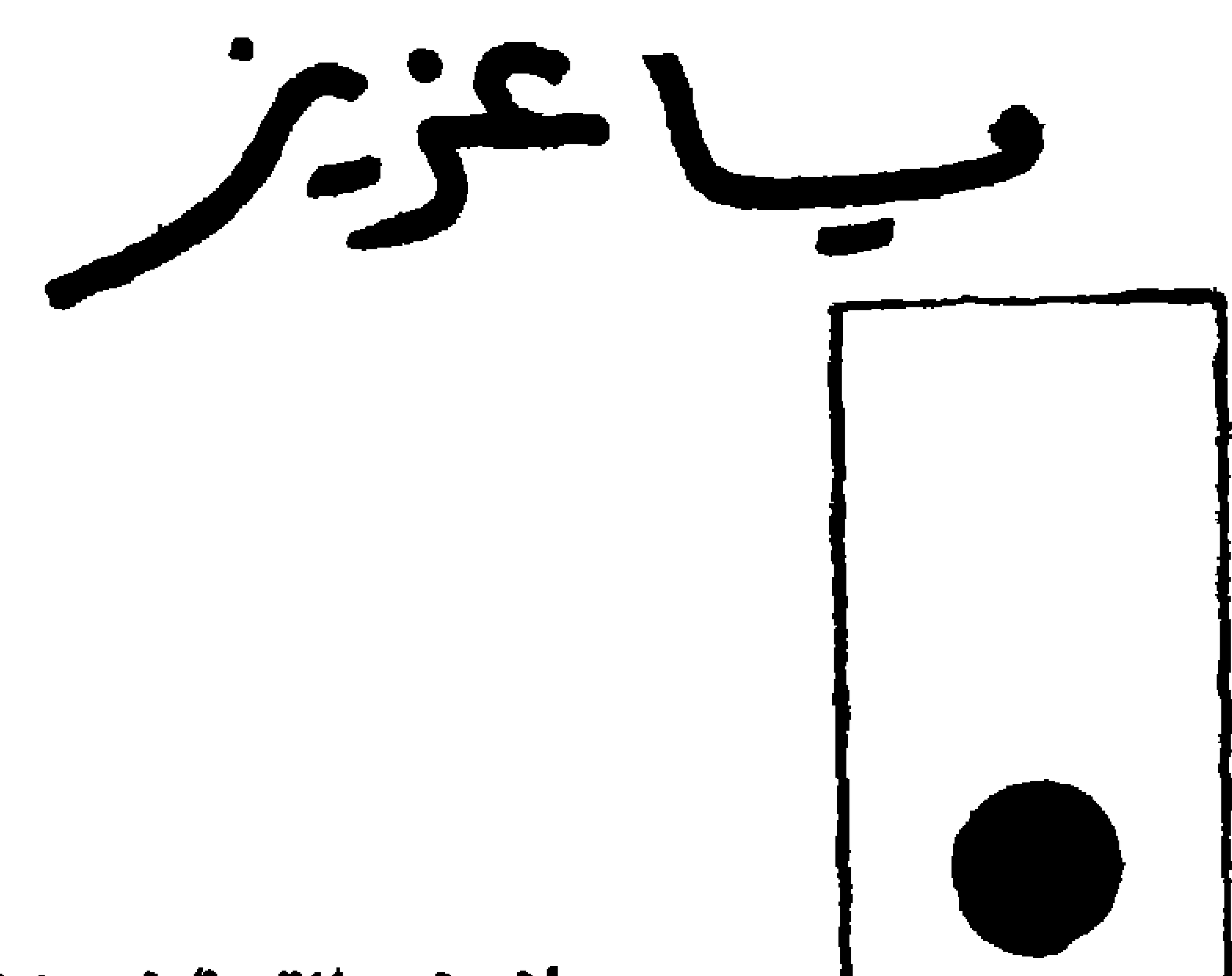
ان الجو بعد أسيوط أرق منه فى داخل الصعيد ، والخير هنا أكثر والناس أنظف وأغنى ، والنساء أجمل ولونهن أفتح من اللائى فى الصعيد

لابد أن النساء فى مصر يشبهن الخواجات السواح اللائى يفدن الى الصعيد فى الشتاء ، ويا خرابك يا رشوان لو وقعت فى واحدة منهن ، عندها مال قارون، وعمارات مثل عبد المعبود ، وغيطان مثل زيدان ، ياخرابك يارشوان لو حدث الذى فى بالك ، ولماذا لا يحدث ؟ والواد الترجمان العدمان صمويل ماتت فى دباديبه خواجاية من أمريكا ، وأصبح صمويل العدمان من أعيان أسوان وابتسم رشوان وهو يتخيل نفسه فى الجبة الجوخ والقفطان الحرير والعصايا الكريز والجوز الأجلسيه ، والخواتم الذهبية فى أصابعه واللاسة الكشمير على كتفيه ، والعيال فى الصعيد سيدفع لهم كل شهر مائة جنيه ، بل تكفى عشرة ٠أحلام جميلة قد تتحقق ، ولكن لو تهب الريح فتدفع المركب الى مصر قبل أن تطير الشغلانة وهو يعلم أن العاطلين فى مصر أكثر من البلاليص فى الصعيد ، ولكن الريح تموت مرة أخرى عند المنيا ، وهات ياشد ٠٠ ويئن رشوان ويتوجع ولا مجيب وقد استطاع أن يصل بالمركب الى بنى سويف ، وأمامه الآن خمسة أيام لو هبت الريح والريح كانت دائما تهب قبل أن يركب هو المركب ٠٠ ولكن لماذا ركب هو فى بؤونة ٠٠ انه سوء الحظ ٠٠ وكان من الممكن أن يستمر رشوان فى شد اللبان لولا زجاجة كبيرة مشطورة نصفين دخلت فى رجله فقطعتها ونزف دمه كأنه يسيل من حنفية ٠٠

وأحس رشوان بهبوط فى قواه ٠ فنام على ظهر المركب وقد حشا الجرح المفتوح طينا وترابا ولفه بخرقة وجدها عند الشاطىء وراح يزوم كالكلب المصاب ، والجرح يزداد ألما ، والحمى التى كانت فى ساقه الجريحة شملت جسمه كله ٠وراح رشوان فى غيبوبة ٠٠ يتذكر أم عياله التى تركها بلا قرش، وعياله الصغار والشغلة التى فى الشليش ، والشورة المهببة التى اشار بها صالح والتى لولاها لكان الآن يسير على قدميه خفيفا كالفراشة نحو مصر ٠ ولم يدر رشوان وهو فى الغيبوبة ان الريح قد هبت قوية رغم بؤونة ، وان المركب تنزلق بسرعة مع التيار وانه قد أصبح فى مديرية الجيزة ، وفى الصباح سيكون فى مصر ٠ لم يدر بشىء من هذا كله ، فقد كانت الحمى تاكله، وتاكل وعيه ، فكان لا يرى الا الماء ولا يذكر الا شد اللبان الذى جاء بخبره ٠ وفى الليل حلم رشوان ، أحلاما مزعجة وهذى بكلام كثير حتى أن الرجال أصحاب المركب ايقنوا أنه سيموت فالتفوا حوله ، يبللون جبهته بالماء البارد ويقرأون حوله بعض الآيات ٠٠

وعندما جاء الصباح كانت المركب قد بدأت فى رحلتها مع التيار منـــذ الفجر ، وكانت الشمس تقف عالية ناحية الشرق ورشوان ممدد مكانه عـــلى ظهر المركب فاتحا عينيه وقد زالت عنه وطأة الحمى القاسية التى استبدت به· ونهض فى تثاقل وقد تأكد ان المركب تجرى وأن الريح تهب قوية نشطـــة · والتيار يدفع بالمركب سريعا نحو مصر · وعندما رأى على الشاطئين البعيدين سرايات جميلة وسيارات تسابق الريح تأكد انه أصبح فى مصر فاستدار الى الناحية الأخرى مدققا النظر فى معالم الطريق الذى ينحدر فيه · وعندما رفع بصره أمامه أشرق وجهه الكالح . وارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه ·كان كوبرى عباس يقف على بعد قليل يسد مجرى النهر وكأنه حارس عنيد · وجلس رشوان مكانه وهو يشكر الله على أن نجاه من موت أكيد · وعندما اندفعـــت المركب أسفل الكوبرى فى طريقها الى روض الفرج طاف بخياله عبد المعبود وزيدان وصمويل الترجمان الذى أصبح بنكيرا ومن أعيان أسوان ··





ازدانت القرية فى تلك الصباح وشغلت نفسها بالحديث عن القادم اليها .. هذا البيه الدكتور الذى يعرف كل شىء وفى راسه علم الدنيا . والذى شرب العلم من بلاده ، عندما كان فى بلاد بره ، حتى فاق أهل بره علما وفنا !! .

ومن فى الدنيا لا يعرف الدكتور شريف « ده متعلم فى أمريكا يا جدعان وشارب العلم من بز أمه » ..

هكذا أكد شندى لأهل القرية وهو يتحدث عن البيه الدكتور الذى سيشرف القرية فى المساء ليتحدث الى الفلاحين عن كيفية حلب البقرة ، ووسائل زيادة الثروة الحيوانية .. موضوع المحاضرة كما كتب على تذاكر الدعوة التى وزعها عضو مجلس الشيوخ على كبار المزارعين والأعيان ..

ولكن الفلاحين الغلابا لم تصل اليهم دعوات لحضور المحاضرة اكتفى العمدة بالمرور عليهم فى بيوتهم فى موكب مهيب من الخفراء وشيخ الخفر ، وشيخ البلد ، ونبه على كل منهم ألا يتأخر فى الحضور الى المركز الاجتماعى حتى لا تفوته محاضرة الدكتور ، لم ينس العمدة أن يخبرهم وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه أن البيه المأمور سيشرف الحفلة ..

ولم يعد هناك حديث للفلاحين الا البيه الدكتور والمحاضره وراح كل منهم يرسم بخياله الواسع صورة للدكتور المتعلم بره .. فى امريكا ، والذى فاق أهل بره علما وفنا ..

ـ ولكن ·· ما هى الثروة الحيوانية دى يا جدعان ··
هكذا تساءل احمد البديوى ريس انفار الدودة فى عزبة العمدة ، وسارع محمد افندى المدرس الالزامى بالرد عليه ·

ـ الثروة الحيوانية يابهيم ماتعرفهاش ··
وضحك أحمد البديوى حتى استلقى على قفاه ، وقال وهو يلهث من شدة استغراقه فى الضحك ··
ـ يعنى هوه ابويا كان ودانى الجامعة ··
وضرب محمد أفندى كفا بكف وهو يلعن ابو البهايم ·· ويزوم مثل كلب جريح ··
ـ بقى فيه حد لسه مايعرفش الثروة الحيوانية ياجدعان وعايشين فى الدنيا تعملوا ايه بالذمة · الثروة الحيوانية ياحيوان يعنى يعنى بدل مايبقى عندك جاموسة تبقى عندك جاموستين ··
ورد احمد البديوى على الفور :
ـ طيب ويبقى عندى جاموستين ازاى وأنا ما ماعنديش فلوس·هوه أنا لاقى أهرش ··
وضيق محمد افندى ما بين حاجبيه وعينيه · وراح يخلع بأظافر يده ، أظافر قدمه ، وقال فى هدوء بالغ :
ـ أهو ده اللى هتعرفوا النهاردة فى المحاضرة ··
ثم أضاف بعد فترة صمت طويلة :
ـ حاكم البلاد كلها راح تشوف التمدن ، وبلدنا دى مكتوب عليهـــــا الفقر ، طول مافيها بهايم زى احمد البديوى ·
واثارت العبارة الأخيره احمد البديوى فزعق على الفور :

ـ جرا ايه يامحمد افندى ، احنا يعنى غلطنا فى البخارى ، هو ده اسمه كلام برضه ، بقى يعنى حلب البقرة عاوز محاظرة ·
وضحك محمد أفندى طويلا ، وقال وهو يهز رأسه بشدة :
ـ محاضرة يابهيم ·· مش محاظرة ·
ـ انا عارفلك بقى ·· أهو محاظرة زى محاضرة ··
ونهض محمد افندى ، وقبض بيده على حفنة تراب وهو ينهض متثاقلا ، القى بها على رأس البديوى ، وهو يقول ضاحكا :

– ياراجل روح شوفلك تربة ، قبل الموت ما يغلى · وقال البديوى دون ان يتحرك :

– اهو الموت جى ·· يعني هوه احنا راح نخلل ··

وعندما ابتعد محمد افندى عن الجمع المحتشد عند دكان ونجث ، تساءل ابراهيم عطوه فى خوف شديد :

– هوه الدكتور اللى جى الليلة راح يكشف ع البهايم ··

وهرش البديوى فى قفاه ·· قبل أن يقول :

– حد عارفلهم حاجة ··

وقال ابراهيم عطوة بحذر :

– حاكم البهيمة بتاعتنا عيانه قلت اخبيها هنا ولا هنا ·

وارتفع صوت من وسط الجلسة يقول :

– خبيها برضه احسن ، ما حدش عارف ايه اللى راح يجرا

وفى المساء كان المركز الاجتماعى يسبح فى الضوء ، ويموج بالمئات الذين توافدوا اليه من انحاء القرية والقرى المجاورة · وكان عساكرالبوليس يضربون حوله نطاقا ، وثمة صوت مزعج يصرخ فى الميكرفون لتجربته قبل بدء الحفلة · ولم يكن بين الجمع الحاشد واحد من الأعيان اللهم الا عبد الرسول شحاته وهو يملك عشرة افدنة لا غير ، ومع ذلك أصر على الجلوس فوق الكراسى القطيفة ، ورفض أن يتلحلح من فوق الكرسى ولو اضطره الأمر االى ارتكاب جناية !

وبعد قليل اقبل المأمور ومعه الدكتور شريف وبعض الأفندية ، فافسح الناس لهم طريقا ·· وسرعان ما اتخذ الجميع مجلسهم فى الصف الامامى ، واصر المأمور على ألا يجلس قبل أن يجلس عضو الشيوخ والدكتور أولا ··

كان الدكتور شابا فى الثلاثين من عمره يرتدى بذلة حريرية بيضاء ، ويلبس نظارة سوداء رغم أن الشمس كانت قد اختفت منذ ساعات · ويبدو نحيفا خفيفا كأنه ريشة حمامة بيضاء ··

وهمس الفلاحون بأن العلم هو الذى سلبه حيويته ونضارته وأكلشبابه. وانه لولا العلم لكان مثل طور الوسية ، أو مثل احمد البديوى على الأقل ··

وعندما انتهى المقرىء من التلاوة ، قام الدكتور فى خفة ووقف أمام الميكرفون ، وبعد أن تنحنح وشرب شفطة ماء واحدة قال فى صوت جميل ، وعبارات واضحة :

ـ أيها الفلاحون الزملاء · السلام عليكم ورحمة الله ·
ورد الجالسون جميعا وفى وقت واحد :
ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ··
ولكن يبدو أن الدكتور لم يكن ينتظر ردا منهم فأسرع مواصلا حديثه على الفور :
ـ ان موضوع الساعة هو كيفية حلب البقرة ، ووسائل زيادة الثروة الحيوانية ، وسأتحدث اليكم بعد خبرة خمسة عشر عاما قضيتها فى امريكا ··
فأولا لكى نحلب البقرة يجب أن يتم حلبها فى مكان نظيف مدهون بطلاء أبيض لاراحة أعصاب البقرة ··

وثانيا يجب أن تتم عملية الحلب بواسطة خبير فى هذه العملية ويستحسن أن يكون مرتديا قفازا من الجلد الناعم ، وجلبابا أبيض معقما فى درجة حرارة أربعين مئوية ، ويجب وضع كمامة على الأنف اثناء عملية الحلب حتى لا يتلوث الحليب بالميكروبات المختلفة ··
والى هذه اللحظة كان الجميع صامتين ·· ولا حركة · ولكن ابو سويلم الخفير ·· هتف فى اذن جاره :
ـ همه راح يفرقوا علينا كمامات هيه الحرب قامت والا ايه ياجدعان ؟!!
ولم يدر أبو سويلم الا وصف طويل أمامه يضحك بصوت عال · كان يجلس فى الصف معاون المستشفى ، وموظف البوستة · ولم يسكتوا الاعندما التفت المأمور الى الخلف ·· فعاد الصمت من جديد يخيم على الصالة ،وعاد الدكتور الى حديثه قائلا :
ـ ولكى يكون اللبن مفيدا ومحتفظا بكافة المواد الغذائية يجب حفظه فى أوان من المعدن ، ويلاحظ تعقيمها قبل وضع اللبن فيها · كما يجب معاملة البقرة قبل عملية الحلب معاملة حسنة بحيث لا تتوتر أعصابها فتفسد اللبن ، ويصبح غير صالح للاستعمال ··

وصمت الدكتور قليلا ريثما تناول شفطة أخرى من كوب الماء الذى أمامه ثم تناول منديله الحريرى ومسح به نظارته السوداء ، ثم أعادها كما كانت وضرب بيده على المائدة ·· وقال فى صوت جميل ·

ـ واذا اتبعتم هذه النصائح فسيزيد مقدار اللبن ، وسيصبح فى مقدور البقرة أن تلد ولادة سهلة وميسورة ، وسيزيد وزنها حتما بفعل الراحة والمعاملة الحسنة ..

وفجأة قفز من بين الجالسين شيخ عجوز فى السبعين من عمره ، وسأل فى لهفة :

ـ ياسيدى الدكتور ، احنا راح نستلم البقرة امتى ؟ ..

وضربت لخمة مع الدكتور فلم يدر كيف يجيب على سؤال العجوز .ولكنه بعد فترة رد على سؤاله بسؤال آخر :

ـ بقرة ايه ؟ ..

ـ البقرة اللى احنا راح نعاملها كويس ..

وابتسم الدكتور ابتسامة هادئة واجابه :

ـ البقرة اللى عندك ..

وقال العجوز :

ـ أنا معنديش بقرة !!

وارتسمت علامات الوقار على وجه الدكتور وقال :

ـ لكن احنا بنتكلم عن اللى عندهم بقرة ..

وظاطت الصالة وارتفع الهمس بين الفلاحين . واحنا ماعندناش بقر ، واللى عنده حتة جاموسة عامل أبو على .. والنبى يخيب خيبتك اللى ما يقول يا عزيز .. يا عزيز ! ..

ولم تفلح التفاتة المأمور هذه المرة فى اعادة السكون فاضطر الى أن يرفع صوته « هص .. هص » .. .

وسكت الناس من جديد . غير أن الضجيج عاد عندما بدأوا يخرجون من الصالة ، خرج الرجل العجوز أولا ، وتبعه أبو سويلم الخفير ، وخرج خلفه احمد البديوى ، ونصار الأقرع .. وتسلل العشرات خلفهم الى الخارج، وعندما انتهى الدكتور من محاضرته لم يكن موجودا هناك سوى محمد أفندى ، ومعاون البوسطة ، ومعاون المستشفى والعمدة ، وعبد الرسول شحاته ، فقد كان قرب المسافة بينه وبين المأمور يغريه بالبقاء .

وعندما انتهى الدكتور من محاضرته . صافح المأمور أولا ، ثم مد يده فصافح بقية الموجودين . وعند الباب الخارجى ، تقدم محمد أفندى اليه

فأشاد بالخطبة وموضوعها ، وبعلم الدكتور العزيز ، ولم ينس أن يشـــيد بفضل البيه المأمور فى استتباب الأمن والنظام فى دائرة المركز ··
وقال وهو يصلح من شأن جاكتته الكالحة :
ـ ماتزعلش من أهل بلدنا يادكتور · حاكم دول ناس بهايم !!
وقال الدكتور فى هدوء ، وشبح ابتسامة طيبة ترتسم على شفتيه :
ـ لا أبدا ، دول ناس طيبين ··
وسحب المأمور من يده ، ودخلا العربة ثم مالبثت العربة أن تحركت ، وغابت بهما عن الأنظار ··
وعندما مرت العربة على الجسر ، ونورها يكشف لها الطـــريق الى مســـافة بعيدة ، وزوبعة من الغبار تلاحقها على الطريق · هتف الفلاحون الذين يجلسون على حرف الترعة فى كسل لذيذ :
ـ دا الدكتور اهه ياجدعان ··
وقال أبو سويلم على الفور :
ـ يخيب خيبتك اللى مايقول ياعزيز ··
ورد الجميع فى صوت واحد :
ـ يا عزيز !! ··

الفهرس

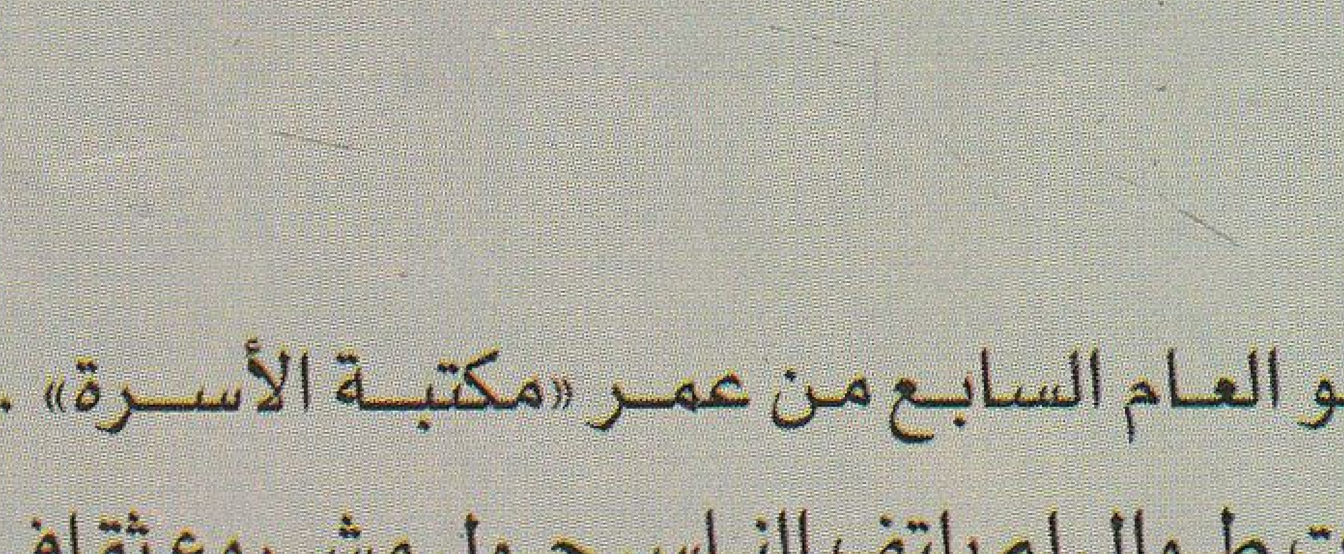
الموضوع	الصفحة

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩١٣٠/٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6704 - 5





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع

